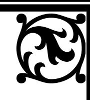
الْعَبْدُ الرَّبَّانِيّ
فِي الْمَفْهُومِ الْقُرْآنِيّ

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨ م

رقم الإيداع: ٢٠١٨/١٩٨٩٢

الترقيم الدولي: 978-977-6618-57-2

الناشر



٢٣ شارع محمد عبده ـ خلف الجامع الأزهر ـ القاهرة

٠٠٢٢٥١١٧٧٤٧

فرع المنصورة: شارع الهادي ـ عزبة عقل ـ المنصورة

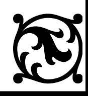
ت: ٠٠٢٠١٠٠٧٨٦٨٩٨٣ ـ ٠٠٢٠١٠٠٧٧١١٦٦٥

٠٠٢٠١٠٩١٣٧٨٥٨٣

واتس/ ٠٠٢٠١٠٠٧٨٦٨٩٨٣

Dar_Elollaa@hotmail.com







العَبْدُ الرَّبَّانِيّ

فِي الْمَفْهُومِ القُرْآنِيّ

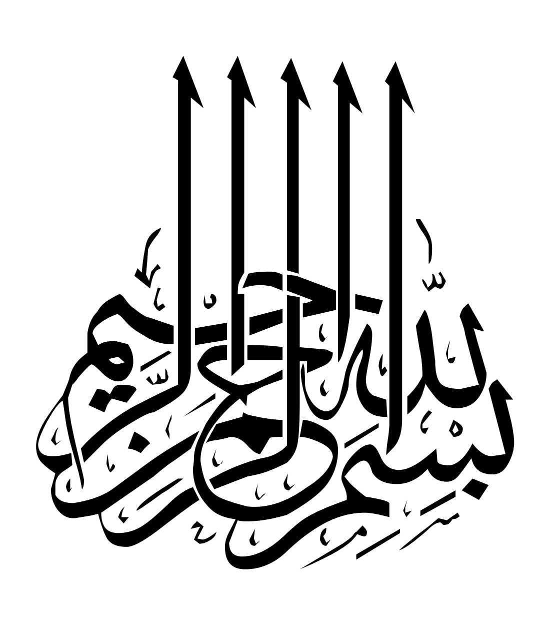
تأليف

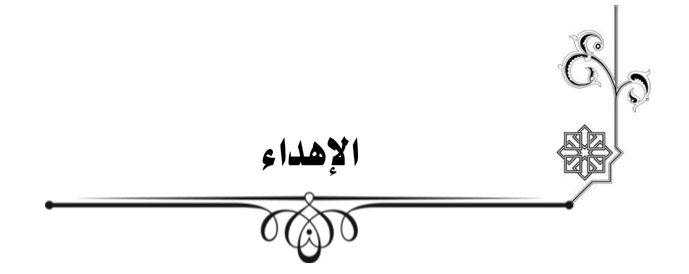
الفقير لعفو ربه العزيز

محمد بن هاشم عبد العزيز

عَفَا اللهُ عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ




بسم الله الرحمن الرحيم



الإهداء

إلىٰ من قاسمني في طفولتي أحلامي، وشاطرني في شبابي أفراحي وأحزاني، إلىٰ وزيري الذي شدَّ اللهُ به أزري كما كان هارون لموسىٰ عليه السلام، إلىٰ رفيق عمري، وصاحب دربي، إلىٰ شقيقي الغالي فضيلة الشيخ/

محمود هاشم عبد العزيز

الذي أسأل الله أن يجعله من العباد الربانيين، وأن يكون من العلماء العاملين، وأن يمتعه الله بالصحة والعافية، وأن يبارك له في أولاده اللهم آمين.

۞



مقدمة المؤلف

الْحَمْدُ للهِ الْمُنَزَّهِ عَنِ الأَشْبَاهِ فِي الأَسْمَاءِ وَالأَوْصَافِ، الْمُقَدَّسِ عَنِ الْجَوَارِحِ وَالآلاتِ وَالأَطْرَافِ، خَضَعَتْ لِعِزَّتِهِ الأَكْوَانُ وَأَقَرَّتْ عَنِ اعْتِرَافٍ، وَانْقَادَتْ لَهُ الْقُلُوبُ وَهِيَ فِي انْقِيَادِهَا تَخَافُ، أَنْزَلَ الْقَطْرَ فَمِنْهُ الدُّرُّ تَحْوِيهِ الأَصْدَافُ، وَمِنْهُ قُوتُ الْبُذُورِ يُرَبِّي الضِّعَافَ.

كَشَفَ لِلْمُتَّقِينَ الْيَقِينَ فَشَهِدُوا، وَأَقَامَهُمْ فِي اللَّيْلِ فَسَهِرُوا وَشَهِدُوا، وَأَرَاهُمْ عَيْبَ الدُّنْيَا فَرَفَضُوا وَزَهِدُوا، وَقَالُوا نَحْنُ أَضْيَافٌ.

أَحْمَدُهُ عَلَىٰ سَتْرِ الْخَطَايَا وَالاقْتِرَافِ، وَأُصَلِّي عَلَىٰ رسوله محمد الذي أنزل عليه قاف، **أما بعد:**

فإن العبودية مركوزة في فطرة الإنسان، بل نستطيع أن نقول: إنَّ في فطرة الإنسان فراغًا لا يملؤه علم، ولا ثقافة ولا فلسفة إنما يملؤه الإيمان بالله جل وعلا، وستظل الفطرة الإنسانية تُحِسُّ بالتوتر، والجوع والظمأ، حتىٰ تجد الله، وتؤمن به، وتتوجه إليه.

فإذا لم يجد الإنسان ربَّه وهو أقرب إليه من حبل الوريد، فما أشقىٰ حياته وما أتعس حظه، وما أخيب سعيه!

– إن الإنسان لن يجد السعادة، ولن يجد السكينة، ولن يجد الحقيقة، بل

لن يجد نفسه ذاتها قال تعالىٰ: ﴿كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡ﴾ [الحشر:١٩].

ومن هنا وجب أن نعلم: أن الإنسان لن يجد ربَّه إلا إذا كان ربَّانيًّا، ومعنىٰ ذلك: أن يكون منسوبًا إلىٰ الرَّبِّ سبحانه وتعالىٰ.

ولكنَّ الربانيين، عملة نادرة ودرة يتيمة وجوهرة كريمة، وأن يكون المرء ربانيًّا تلك أمنية غالية وحلم رائع وغاية سامية، بل إن الربانية والبحث عنها منهج وهدف لكل مسلم صادق واعٍ، وكل داعية حصيف مخلص، وكل موحد يبغي القرب من ربه، وكل تقي يعمل لعز دينه.

ومن هنا أقول:

عندما كنت أبحث لإعداد كتابي (ربانية الإسلام)، لفت نظري أن الإسلام منهج رباني خالص، والمسلم الذي يؤمن بهذا المنهج، وجب عليه أن يبحث كيف يكون كمنهجه ربانيًا، لا سيما وأن الله أمرنا فقال تعالىٰ: ﴿كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران:٧٩]، وبدأت أبحث عن صفات بها يكون العبد من الربانيين، ووقفت علىٰ صفات عديدة للعبد الرباني منها:

١- الرباني يدع الشهوة الحرام خوفًا من الله كما قال يوسف: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [يوسف:٢٣].

٢- والرباني لا يأكل المال الحرام لمعرفته أن المال الحرام ثمن لجهنم والعياذ بالله فالرباني لا يأكل الرشوة ولا الربا وإنما الرباني يكفيه قول الله: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ۝٥٨﴾ [يونس:٥٨].

٣- والرباني لا يركن إلىٰ ظالم ولا يعاونه ولا يمشي في ركابه لأنه يتذكر قول الله: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [هود:١١٣].

٤- والرباني يعفو عن من ظلمه إذا تمكَّن منه كما فعل يوسف وقال لإخوته: ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف:٩٢].

وهكذا فعل الرسول ﷺ مع أهل مكة لما قَالَ: «**اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ**».(١)، وغير ذلك من الصفات الكثير.

- ولو أردت الكتابة عن كل ما يمكن أن يوصف به العبد الرباني لطال الكلام جدًا، لكنني اكتفيت بالصفات الواردة في كتاب الله تعالىٰ، مع زيادة صفتين من لوازم الحياة الربانية: هما: (التوحيد، الاتباع). وجعلت الصفات الواردة في القرآن بينهما، فجاء الكتاب كالآتي:

المبحث الأول: الرباني موحِّد.

المبحث الثاني: الرباني طالب للعلم.

المبحث الثالث: الرباني ثابت.

المبحث الرابع: الرباني صابر.

المبحث الخامس: الرباني يحكم بما أنزل الله.

---

(١) معرفة السنن والآثار: (١٣/ ٢٩٣).

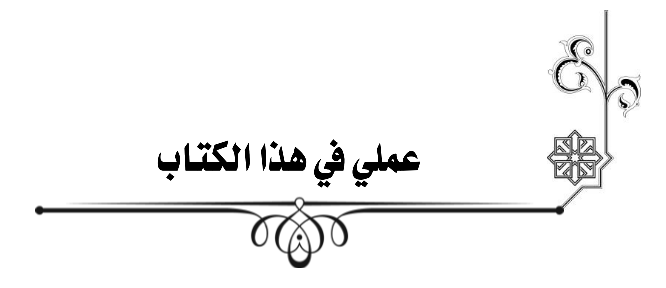
المبحث السادس: الربانيون حفظة.

المبحث السابع: الربانيون شهداء.

المبحث الثامن: الرباني غيورٌ لله.

المبحث التاسع: الرباني متبع لا مبتدع.

❊ ❊ ❊



عملي في هذا الكتاب

انطلقت مستعينًا بالله طالبًا منه العون والمدد والتوفيق وقمت بالآتي:

١ - جعلت كلَّ صفةٍ من صفات العبد الرباني موضوعًا، أتكلم عنه وأوضحه.

٢ - كنتُ حريصًا علىٰ أن يكون حديثي من كلام الله ومن كلام رسول الله ﷺ، وبعد ذلك أذكر بعض الأقوال من كلام السلف الصالح.

٣ - عزوت الآيات إلىٰ مواضعها في القرآن الكريم ذاكرًا اسم السورة ورقم الآية.

٣ - قمت بتخريج الأحاديث، فأذكر من روىٰ الحديث من أئمة هذا الشأن، وإن كان في البخاري ومسلم أو في أحدهما اكتفيت، وإن كان في غيرهما أذكر من رواه وخرجه مستصحبًا ذكر درجة الحديث من صحة أو ضعف أو...... وهذا في الأعم الغالب.

٤ - القصص والمواقف لها أثر في النفوس، ولهذا كنت حريصًا علىٰ ذكر المواقف من حياة الرسول ﷺ، ومواقف من حياة الأنبياء الكرام عليهم السلام، ومواقف من حياة الصحابة والتابعين، مع مراعاتي أن آتي بالمواقف من كتب التاريخ المعتبرة، مع حرصي علىٰ انتقاء ما يتوافق مع العقل الصحيح والمنهج القويم دون شطط أو زيغ أو مغالاة.

٥- كما ذكرت في بعض الأحيان من كلام الشعراء والأدباء ما يساعد ويخدم الموضوع، مع حرصي علىٰ انتقاء ما كتبت من شِعْرٍ يساعد ويخدم الموضوع.

وبعد هذا لا أستطيع أن أدّعيَ أنني جئت بما لم يأت به أحد وإنما هذا جهد المقل، وأسأل الله تعالىٰ أن ينفع بهذا الكتاب كاتبَه وقارئَه وناشرَه، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن يجعله لي ذخرًا وزادًا في يوم لقياه إنه سميع قريب مجيب.

وأسأل الله أن يجازي عني أساتذتي خير الجزاء، فهم أهل فضل ومنّة.

وأسأل ربي سبحانه وتعالىٰ أن يرحم أمّي الغالية الحبيبة كما ربتني صغيرًا، وأن يمتعها بالنظر إلىٰ وجهه الكريم، وأن يجمعها مع النبي ﷺ في الجنة.

- كما أسأله سبحانه أن يبارك لي في زوجتي الكريمة (أم نور) وأن يجزيها عني خير الجزاء.

- وأسأل الله أن يحفظ لي هبته الغالية ابنتي الحبيبة (نور) التي أسأل الله أن ينبتها نباتًا حسنًا، وأن تكون قرة عين لي في الدنيا والآخرة، كما أسأل الله لها السِّتر في الدنيا والآخرة هي وجميع بنات المسلمين.

وأسأل الله برحمته أن يحفظ بلاد المسلمين وأهل الإسلام.

- ثم أقول إن هذا العملَ عملٌ بشريٌّ يعتريه ما يعتري الإنسان من نقص.

- وأُشهد الله ﷻ أنّ كل خطإٍ وقعت فيه في كلامي أو في كتاباتي يخالف الصواب والمنهج الصحيح فأنا راجع عنه في حياتي وبعد مماتي.

- ولا أجد ما أقول لمن وجد خطأً عندي إلا ما **قاله الشاطبي**:

أَخـي أَيُّهَـا الْمُجْتَـازُ نَظْمِـي بِبَابِـهِ...يُنَـادَىٰ عَلَيْـهِ كَاسِـدَ السُّـوْقِ أَجْمِـلا

وَظُـنَّ بِـهِ خَيْـرًا وَسَـامِحْ نَسِـيجَهُ...بِالإغْضَـاءِ وَالْحُسْـنَىٰ وَإِنْ كَـانَ هَلْهَـلا

وَسَـلِّمْ لِإِحْـدَىٰ الْحُسْـنَيَيْنِ إِصَـابَةٌ...وَالْاُخْـرَىٰ اجْتِهَـادٌ رَامَ صَـوْبًا فَـأَمْحَلا

وَإِنْ كَـانَ خَـرْقٌ فَأَدَّرِكْـهُ بِفَضْـلَةٍ...مِنَ الحِلْمِ ولْيُصْلِحْهُ مَنْ جَادَ مِقْوَلا[1]

فـدائمًا الإنسـان يثبـت بشـريته، ويـأبىٰ الله إلا أن تكـون العصـمة لكتابـه ولرسوله ﷺ.

✍ وأختم قائلًا:

وليس يضرني وقوف أهل المعرفة علىٰ ما لي من التقصير، ومعرفتهم أن باعي في هذا الميدان قصير، فلئن أخطئ فمن الذي عُصِم؟! ولئن أُخَطَّا فمن الذي وُصِمَ؟!

وأعلمُ أن الخطأ والزلل، هما الغالبان علىٰ من خلق الله من عجل، فإن أصبتُ فمن الله وحده، وإن أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان، والله ورسوله منه براء، **وأتمثل قول الشاعر**:

لقـد مضـيت وراء الركـب ذا عَـرَجِ...مؤمِّلًا جبر مـا لاقيـتُ من عَـرَجِ

فـإن لحقـتُ بهـم مـن بعـد مـا سبقوا...فكم لرب الورىٰ في النـاس مـن فـرِجِ

(١) الشاطبية الأبيات: (٧٥-٧٨)

وإن ضــللتُ بقفــر الأرض منقطعًــا... فما علىٰ أعـرج في النـاس مـن حَـرَجِ

وأسأل الله تعالىٰ أن ينفعني وإخـواني مـن طـلاب العلـم بهـذا العمـل، وأن يخلص نيتي فيه لوجهه، فإن القلوب بيده وأن لا يجعل لأحد من خلقه فيه نصـيبًا وأن ينفعنـي بـه يـوم ألقـاه ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ٨٩﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]. وصـلىٰ الله وسـلم وبـارك علـىٰ نبينـا محمـد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه ببنانه ورضيه بجنانه

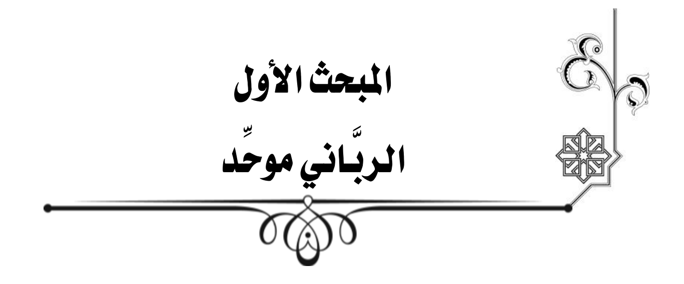
الفقير إلى عفو ربّه العزيز

محمد هاشم عبد العزيز

٠٠٢٠١٠٠٣٠٦٢٠٦٥

يوم السبت ٢٨ ذو الحجة ١٤٣٩هـ

الموافق - ٨ سبتمبر ٢٠١٨م



المبحث الأول
الربَّاني موحِّد

– الحياة الربانية من مقوِّماتها التوحيد، فقلب الرباني متعلق بالله وحده، وهذا هو أساس التوحيد، فليس لمخلوقٍ أيُّ حظٍ أو نصيب في قلبه سوىٰ الله، فهو عبد لله وحده قد تعلّق قلبه بالله لا بالنبي ﷺ (١)؛ يقول ربنا ﷻ: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [آل عمران:٧٩].

✍ وقبل الشروع في الكلام أقول:

إن التوحيد معروف فضله ومكانته، ولا يخفىٰ ذلك علىٰ مسلم، ولكن لن أتكلم هنا عن التوحيد من حيث أنواعه، وغير ذلك، فلقد سبق وشرحت ذلك تفصيلًا في كتابات أخرىٰ.

ولكنِّي سأكتفي هنا بهذه القاعدة التي ذكرها صاحب كتاب «أصول

---

(١) وشيءٌ يُحزن أن نجد من يتعلق بشيخ أو عالم، وأصعب من ذلك من تعلقت قلوبهم بالكرة وبالغناء والرقص وما شابه ذلك ، فماذا نقول؟!. إن التعلق يجب أن لا يكون إلا بالله سبحانه وتعالىٰ.

الوصول إلىٰ الله تعالىٰ».[1]

كن واحدًا لواحد علىٰ طريق واحد

كن واحدًا.. ما معناها؟

هل تعرف في زماننا رجلًا بوجهين؟.. أنا لا أعرف!!. فأكثر الناس اليوم بعشرة وجوه ليس بوجهين فقط.

بل عشرين، بل خمسين. بل مئة.. حتىٰ ذي الوجهين قلما تجده!!..

فأين المخلص الذي لا يعرف له إلا وجه واحد؟!، اللهم اجعلنا من عبادك المخلصين.

نعم: كثيرًا ما تجد إنسانًا معك في المسجد، قدمه في قدمك، وكتفه في كتفك ورأسه بجوار رأسك في السجود، يبتهل إلىٰ الله ويدعوه، ويتمتم بأطيب الكلمات، ثم إذا خرج من المسجد فبوجه آخر، فإذا دخل بيته مع زوجته وأولاده فبوجه ثالث، وفي العمل بوجه رابع، فإذا تعامل مع النساء الأجنبيات فرقيق طيب ولين بوجه خامس، وإذا تعامل مع الرجال فبوجه سادس، فإذا تعامل مع الأكابر أو من هم أعلىٰ منه اجتماعيًّا كمديره أو رؤسائه في العمل فبوجه سابع، وإذا تعامل مع من هم أدنىٰ منه كالفقراء والضعفاء فبوجه ثامن، وتاسع وعاشر.. من أنت؟؟!!

من أنت ؟! أي وجه وجهك الحقيقي؟!

---

(١) انظر: أصول الوصول (ص: ٧٦)، وما بعدها. ولكن بتصرف بالزيادة أحيانًا وبالاختصار أحيانًا أخرىٰ.

إلىٰ متىٰ يا عبد الوجه تخلع وجها وتلبس آخر؟!

إلىٰ متىٰ ستظل غشاشًا؟!

ألا تعلم أن الله يرىٰ كل هذه الوجوه؟!

.. يراك هنا ويراك هناك.. يراك الآن ويراك غدًا.

ترىٰ ذا الوجوه إذا مرض بوجه، وإذا صح بوجه، وإذا افتقر بوجه، وإذا اغتنىٰ وامتلك فبوجه آخر، تجده إذا تولىٰ سعىٰ في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل، وإذا رئس فذليل مهان منافق.. تجد ذا الوجوه لا يستحي من الله وهو يراه.

من أنت؟ أجب عن هذا السؤال.. من أنت وأي الوجوه وجهك وأي الأشخاص شخصك وأي الطرق طريقتك؟

لماذا تعيش بعشرين وجهًا، وعشرين لونًا، وعشرين طريقة؟!!

ألا تستحي من الله وهو يراك؟!

أخيّ كن واحدا كن صاحب وجه واحد، يمشي بطريقة واحدة.

أخي أريد لك وجه العبد.. أن تظل عبدًا.. العبد الذي يركع ويسجد ويتلو القرآن ويبتهل ويتفرغ.

هذا العبد كنه في البيت مع الزوجة والأولاد، وكنه في الشارع مع الناس كنه كيف كنت، ومتىٰ كنت، وأين كنت.. كن عبدًا في كل أحوالك.

إنني أريدك عبدًا لله في البيت، وعبدًا لله في المسجد، وعبدًا لله في الشارع،

وعبدًا لله في العمل، عبدًا لله وحده حيث يعرفك الناس، وعبدًا لله حيث تخلو فلا يعرفك أحد إلا الله، فالله الذي يراك هو الذي يعرفك، فاستح أن يراك علىٰ غير ما يعرفك.

كن واحدًا ولا تكن عشرة، لا تكن اثنين، كن عبدًا لله وحده، ولست أقصد أن تكون دومًا ذليلًا، بل العبد علىٰ مقتضىٰ العبودية: في البيت رجل له القوامة والتربية، وفي العمل تراه مخلصًا وإن لم يره أحد، وفي الشارع مراقبًا لمولاه.

كن عبدًا لله وحده مع الرجال والنساء، والأغنياء والفقراء، والصغار والكبار.. كن عبدًا وضع يديك ورجلك في قيود منهج الله لتتحرر من العبودية لغير الله.. الزم الأمر والنهي، وكن كما يريد الله.. عش علىٰ مراد الله منك لتكون عبدًا.

فكن واحدًا: أي عبدًا..

لواحد:

أي لله وحده، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَالدِّرْهَمِ، وَالقَطِيفَةِ، وَالخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ**». (١)

أسألك بالله، واصدق يا عبد الله: أنت عبد لمن؟

لله وحده أم عبدٌ للظروف أيضًا؟

---

(١) صحيح البخاري: (٢٨٨٦).

أم عبدٌ للبيئة والمجتمع؟!

عبدٌ للعادات والتقاليد؟!

أم عبدٌ للمهنة والوظيفة والراتب الشهري، عبدٌ لصاحب العمل، أم عبدٌ لزوجتك وأولادك واحتياجاتهم ومطالبهم؟!.. عبد من أنت؟.

كثير من الناس عبيد لأشياء كثيرة فمنهم من عبد بطنه، ومنهم من عبد شهوته وفرجه، ومنهم من عبد بيته وفراشه، ومنهم من عبد رصيده وماله، ومنهم.. ومنهم.. ومنهم من عبد نفسه!

✍ وهنا يأتي سؤال:

هل يمكن أن يكون الإنسان عبدًا لنفسه، وتكون نفسه صنمًا يُعبد من دون الله؟

إن الجواب على هذا السؤال ذكره الشيخ الغزالي فقال رحمه الله تعالى: تأملت في قصة الرجل المغرور صاحب الجنتين، الذي أغراه ثراؤه بالتطاول والكفر! فخذله الله، ودمَّر جنتيه، وأمسى بعد الغنى هالكًا، لا يجد أيَّ شيء، وأخذ يصيح ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٤٢﴾ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾ [الكهف:٤٢، ٤٣].

سألت نفسي: بمن أشرك هذا الرجل مع الله؟

لم يسبق في سرد القصة اسم صنم معبود، أو جبار يعتز الأغرار بالانتماء إليه..! وكان الجواب العاجل: لقد كانت نفسُه صنَمه، وإلهُه هواه!!

ليس من الضروري، أن يعتمد الشرك علىٰ صورة تنحت، أو رئيس يتفرعن.. يكفي أن يكون المرء فارغَ القلب من الله، فارغ الرأس من الله، مليئا بشهواته وحدها، يذكر دنياه، ويجحد آخرته، ينطلق في الدنيا انطلاق الوحش في الغاب، ما يسمع إلا نداء غرائزه وحسب. إذا لم يكن هذا كفرًا فما الكفر؟. (١)

وفي سبيل نفسه، لا يبالي أن يضحيَ بكل ما يعوقه، ويقف في سبيله من القيم والمثل والمعتقدات، وبكل من يعوقه، ويقف في طريق شهواته من البشر.

يفعل ذلك جهرة إن ملك القدرة عليه، وكان ذا جاه وسلطان، وقد يرتكبه سرًّا وخفية، فرارًا من طائلة العقاب والقانون.

هذا العابد لنفسه لا يحجزه ضمير، فقد مات ضميره وأهيل عليه التراب، ولا يحجزه إيمان، لأنه لا إيمان لمن كان إلهه هواه، وشهوته معبوده، ولا يحجزه عقل لأن شهواته عطّلت عقله، وأهواؤه أغلقت منافذ تفكيره، قال تعالىٰ مبيّنًا حال هؤلاء: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

نظرة في تاريخ العقيدة الإسلامية الطويل:

إن المتأمل في تاريخ العقيدة الإسلامية الطويل، ليدرك مدىٰ العناد والتكذيب الذي واجهه أنبياء الله ورسله في تعبيد القلوب لإله واحد هو الله،

---

(١) المحاور الخمسة للقرآن الكريم: (ص: ٤٣).

فقوم نوح كذبوا المرسلين، وكذبت ثمود وعاد بالقارعة، وكذب بنو إسرائيل موسىٰ وجحدوا ما جاء به، وعاند المشركون رسول الله ﷺ.. ومع كل هذا صبر هؤلاء الأنبياء والمرسلون، لعلمهم بعظمة وأهمية ما يدعون إليه.. وهو التوحيد.

التوحيد نظام الكون:

فالتوحيد نظام الكون، ولا يصلح في الطريق إلىٰ الله إلا التوحيد، توحيد القصد وتوحيد المعبود ولذلك اذا أردت أن تسير إلىٰ ربك سيرًا حسنًا فالزم التوحيد، قال - سبحانه وتعالىٰ: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

خطر ترك التوحيد:

ولابد أن تعلم أن الله - سبحانه وتعالىٰ - هدد أنبياءه ورسله بحبوط الأعمال - وإن كثرت - إن فاتها التوحيد، فقال بعد أن ذكر جملة كثيرة منهم في سورة الانعام: ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنعام:٨٨].

بل قال مخاطبًا نبيه محمدًا ﷺ: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الزمر: ٦٥- ٦٦].

ومن خطورة أمر التوحيد أنَّ الشرك في هذه الأمة أخفىٰ من دبيب النمل، لذا علمك النبي ﷺ أن تقول كل يوم مرارًا: «**اللَّهُـمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْـرِكَ**

بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لا أَعْلَمُ». (١)

ومن خطورة أمر التوحيد الخوف علىٰ التوحيد، قال الله - سبحانه وتعالىٰ - حاكيًا عن إبراهيم عليه السلام دعوته ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ٣٥﴾ [إبراهيم:٣٥].

فإبراهيم عليه السلام يخاف الشرك علىٰ نفسه، وهو خليل الرحمن وإمام الحنفاء؛ فما بالك بنا نحن إذن؟!

فلا تأمن الشرك، ولا تأمن النفاق؛ إذ لا يأمن النفاق إلا منافق، ولا يخاف النفاق إلا مؤمن، ولهذا قال ابن أبي مليكة: «أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق علىٰ نفسه».

* وها هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه خاف علىٰ نفسه النفاق؛ فقال لحذيفة بن اليمان رضي الله عنه الذي أسر إليه النبي ﷺ بأسماء أناس من المنافقين؛ فقال له عمر رضي الله عنه «أنشدك الله؛ هل سماني لك رسول الله ﷺ مع من سمىٰ من المنافقين؟ فقال حذيفة رضي الله عنه لا، ولا أزكي بعدك أحدًا» أراد عمر بذلك زيادة الطمأنينة، وإلا؛ فقد شهد له النبي ﷺ بالجنة. (٢)

✍ ومن خطورة التوحيد أنه قد يلتبس علىٰ العبد، قال ابن القيم في الفوائد: «التَّوْحِيد أصلف شَيْء وأنزهه وأنظفه وأصفاه، فأدنىٰ شَيْء يخدشه ويدنّسه ويؤثّر فِيهِ، فَهُوَ كأبيض ثوب يكون يؤثّر فِيهِ أدنىٰ أثر، وكالمرآة

---

(١) الأدب المفرد: (ص: ٢٥٠).

(٢) القول المفيد علىٰ كتاب التوحيد: (١/ ١١٥).

الصافية جدا أدنىٰ شَيْء يُؤثر فِيهَا، وَلِهَذَا تشوشه اللحظة واللفظة والشهوة الْخفية، فَإِن بَادر صَاحبه وَقلع ذَلِك الْأَثر بضده وَإِلَّا استحكم وَصَارَ طبعا يتعسّر عَلَيْهِ قلعه، وَهَذِه الْآثَار والطبوع الَّتِي تحصل فِيهِ، مِنْهَا مَا يكون سريع الْحُصُول سريع الزَّوَال، وَمِنْهَا مَا يكون سريع الْحُصُول بطيء الزَّوَال، وَمِنْهَا مَا يكون بطيء الْحُصُول سريع الزَّوَال، وَمِنْهَا مَا يكون بطيء الْحُصُول بطيء الزَّوَال، وَلَكِن من النَّاس من يكون توحيده كَبِيرا عَظِيما ينغمر فِيهِ كثير من تِلْكَ الْآثَار، ويستحيل فِيهِ بِمَنْزِلَة المَاء الْكثير الَّذِي يخالطه أدنىٰ نَجَاسَة أَو وسخ فيغتر بِهِ صَاحب التَّوْحِيد الَّذِي هُوَ دونه فيخلط توحيده الضَّعِيف بِمَا خلط بِهِ صَاحب التَّوْحِيد الْعَظِيم الْكثير توحيده، فَيظْهر تَأْثِيره فِيهِ مَا لم يظْهر فِي التَّوْحِيد الْكثير.

وَأَيْضًا فان الْمحل الصافي جدا يظْهر لصَاحبه مِمَّا يدنسه مَالا يظْهر فِي الْمحل الَّذِي لم يبلغ فِي الصفاء مبلغه فيتداركه بالإزالة دون هَذَا، فَإِنَّهُ لَا يشْعر بِهِ.

وَأَيْضًا فَإِن قُوَّة الْإِيمَان والتوحيد إِذا كَانَت قَوِيَّة جدا أحالت الْموَاد الرَّديئَة وقهرتها، بِخِلَاف الْقُوَّة الضعيفة.

وَأَيْضًا فَإِن صَاحب المحاسن الْكَثِيرَة والغامرة للسيئات ليسامح بِمَا لَا يسامح بِهِ من أَتَىٰ مثل تِلْكَ السَّيِّئَات وَلَيْسَت لَهُ مثل تِلْكَ المحاسن كَمَا قيل:

وَإِذا الحبيب أَتَىٰ بذنب وَاحِد ... جَاءَت محاسنه بِأَلف شَفِيع

وَأَيْضًا فَإِن صدق الطّلب وَقُوَّة الْإِرَادَة وَكَمَال الانقياد يحِيل تِلْكَ الْعَوَارِض والغواشي الغريبة إِلَىٰ مُقْتَضَاهُ وموجبه، كَمَا أَن الْكَذِب وَفَسَاد

الْقَصْـد وَضـعف الانقيـاد يحِيـل الْأَقْـوَال وَالْأَفْعَـال الممدوحـة إِلَـىٰ مُقْتَضَـاهُ وموجبه كَمَا يُشَاهد ذَلِك فِي الأخلاط الْغَالِبَة وإحالتها لصالح الأغذية إِلَىٰ طبعها. (١)

فانظر إلىٰ توحيدك: هل ما زال علىٰ صفائه وطهارتـه ونقائه أم أنـه تلـوث مـن مخالطـة البشـر ومعـاملاتهم، وغيـاب العلـم عـن القلـب، ونسيان الـذكر وكثرة الكلام والجدال المَقِيت وحـب العلـو والغلبـة، وتعلـق القلـب بمـدح النـاس ودفـع ذمهـم، والشـهوات المركبـة في الأنفـس... هـذه كلهـا والله إن وقعت في القلب سقطت سماء توحيدك علىٰ أرضـه، فـلا تقـوم لقلبـك قائمـة. فكن لواحد تسترح.

إن الإنسان له قلب واحد، ولـذلك ينبغـي أن يتوجَّـه إلـىٰ ربٍّ واحـد، فإن توجَّه إلىٰ معبودين سبَّب ذلك للإنسان شقاءً وأيّ شقاء.

وخلاصـة القـول: إن التوجـه إلـىٰ غيـر الله في جملتـه شـقاء، شـقاء القلـب والنفس، وهو كذلك ضلال عن الحق، وبعد عن جادة الصواب.

والسعادة تكمن في التوجه الصادق إلىٰ الله دون سواه، هذا في الـدنيا، قـال الله – تعــالىٰ: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الزمـر:٢٩]» يضـرب الله المثـل للعبد الموحد والعبد المشرك: بعبد يملكه شركاء يخاصم بعضـهم بعضـا فيـه «وهو بينهم موزع، ولكل منهم فيـه توجيـه، ولكـل مـنهم عليـه تكليـف، وهـو

(١) الفوائد لابن القيم: (ص: ١٩٤: ١٩٥).

بينهم حائر لا يستقر علىٰ نهج ولا يستقيم علىٰ طريق، ولا يملك أن يرضي أهواءهم المتنازعة المتشاكسة المتعارضة التي تمزق اتجاهاته وقواه!

وعبد يملكه سيد واحد، وهو يعلم ما يطلبه منه، ويكلفه به، فهو مستريح مستقر علىٰ منهج واحد صريح..

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الزمر:٢٩].. إنهما لا يستويان.

فالذي يخضع لسيد واحد ينعم براحة الاستقامة والمعرفة واليقين وتجمع الطاقة ووحدة الاتجاه ووضوح الطريق.

والذىٰ يخضع لسادة متشاكسين معذب مقلقل لا يستقر علىٰ حال ولا يرضىٰ واحدًا منهم فضلًا علىٰ أن يرضي الجميع!

وهذا المثل يصور حقيقة التوحيد وحقيقة الشرك في جميع الأحوال، فالقلب المؤمن بحقيقة التوحيد هو القلب الذي يقطع الرحلة علىٰ هذه الأرض علىٰ هدىٰ، لأن بصره أبدًا معلق بنجم واحد علىٰ الأفق فلا يلتوي به الطريق.

ولأنه يعرف مصدرًا واحدًا للحياة والقوة والرزق.

ومصدرًا واحدًا للنفع والضر.

ومصدرًا واحدًا للمنح والمنع.

فتستقيم خطاه إلىٰ هذا المصدر الواحد، يستمد منه وحده، ويعلق يديه بحبل واحد يشد عروته، ويطمئن اتجاهه إلىٰ هدف واحد لا يزوغ عنه بصره، ويخدم سيدًا واحدًا يعرف ماذا يرضيه فيفعله وماذا يغضبه فيتقيه.. وبذلك

تتجمع طاقته وتتوحد، فينتج بكل طاقته وجهده وهو ثابت القدمين على الأرض متطلع إلى إله واحد في السماء.. ويعقب - سبحانه - على هذا المثل الناطق الحي، بالحمد لله الذي اختار لعباده الراحة والأمن والطمأنينة والاستقامة والاستقرار. وهم مع هذا ينحرفون، وأكثرهم لا يعلمون». ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٢٩].

فهل أنت لواحد؟ أم انك لشركاء متشاكسين؟!.

نعم: إن أكثر الناس اليوم منحرفون عن التوحيد، ويعيشون في شتات، فتجد قلوبهم معلقة بالمال والزوجة والولد والبشر، فيعيشون مهمومين محزونين مشتتين مضيعين..

ولا يمكن أن يتعلق القلب بالله وحده إلا بأن يكون في قلبك هم واحد: هو طلب رضا الله والاستعانة به، فهمّك وهمتك وتفكيرك دائر في تحصيل رضا الله، ساعتها تكون عبدًا لله وحده.. تكون واحدًا لواحد بحق، ومنها تنطلق على طريق الوصول إلى الله - تعالى.

على طريق واحد:

إذا كنت واحدًا لواحدٍ فلكي تصل لابد من أن يكون لك طريق واحد إلى الله - تعالى - فهما توحيدان: توحيد القصد وتوحيد المعبود.

هو طريق واحد لا يتعدد ولا يتغير، كما قال ربنا - جل وعلا: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣] فوحَّد سبيله لأنه في نفسه واحد

لا تعدد فيه، وجمع السبل المخالفة لأنها كثيرة ومتعددة.

فكن علىٰ طريق واحد تصل وهو الطريق إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ وأصله: الكتاب والسنة قال رسول الله ﷺ: «**أُوصِيكُمْ بِتَقْوَىٰ اللهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَىٰ اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**» (١) وقال ﷺ: «**تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ**».(٢)

وقال ﷺ: «إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا: كِتَابَ اللهِ وَسُنَّتِي».(٣)

فاسلك الطريق الواحد وإذا سلكته فلا تغير ولا تبدل لئلا تطرد.. لا تتلون ولا تتبع الهوىٰ فيضلك عن سبيل الله.. اللهم نجنا من مضلات الفتن.

لما جاء حذيفةَ بن اليمان الموتُ دَخَلَ عليه ابْنُ مَسْعُودٍ فَقَالَ: اعْهَدْ إِلَيَّ، فَقَالَ لَهُ: أَلَمْ يَأْتِكَ الْيَقِينُ؟، قَالَ: بَلَىٰ، وَعِزَّةِ رَبِّي، قَالَ: فَاعْلَمْ أَنَّ الضَّلالَةَ حَقَّ الضَّلالَةِ أَنْ تَعْرِفَ مَا كُنْتَ تُنْكِرُ، وَأَنْ تُنْكِرَ مَا كُنْتَ تَعْرِفُ، وَإِيَّاكَ وَالتَّلَوُّنَ، فَإِنَّ دِينَ اللهِ وَاحِدٌ. (٤)

---

(١) سنن أبي داود: (٤٦٠٧)، سنن الترمذي: (٢٦٧٦)، صحيح الجامع: (١١٨٤).
(٢) موطأ مالك: (٥/ ١٣٢٣)، والسلسلة الصحيحة: (٣/ ١٨).
(٣) سنن الدارقطني (٤٦٠٦)، المستدرك: (٣١٩)، صحيح الجامع: (٢٩٣٧).
(٤) شرح السنة للبغوي: (١/ ٢١٦).

ومن التلون: استحلال الحرام، قال العلماء: الفتنة أن تستحل ما كنت تراه حرامًا.

إن المنهج واحد وهو الصحيح ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس:٣٢]، والحق واحد لا يتعدد، فعلىٰ منهجك فاثبت ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ [فصلت:٦].

كن علىٰ طريق واحد، واعلم أن الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة منهج معصوم، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [التوبة:١٠٠]، وقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ [البقرة:١٣٧].

✍ **سئل أبو علي.. الحسن بن علي بن الجوزجاني**: كيف الطريق إلىٰ الله؟

فقال: الطرق إلىٰ الله كثيرة، وأوضح الطرق وأبعدها عن الشبه: اتباع السنة قولًا وفعلًا وعزمًا وعقدًا ونيةً، لأن الله يقول: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾ [النور:٥٤] فقيل له: كيف الطريق إلىٰ السنة، فقال: مجانبة البدعة، واتباع ما أجمع عليه الصدر الأول من علماء الإسلام، والتباعد عن مجالس الكلام وأهله ولزوم طريقة الاقتداء، وبذلك أمر النبي ﷺ بقوله - سبحانه وتعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل:١٢٣].

✍ **وقال أبو الحسن الوراق:** لا يصل العبد إلىٰ الله إلا بالله وبموافقة حبيبه ﷺ في شرائعه، ومن جعل الطريق إلىٰ الوصول في غير الاقتداء، يضل من حيث يحسب أنه مهتد.

✍ **وقال أبو بكر الطمستاني:** الطريق واضح، والكتاب والسنة بين أظهرنا، وفضل الصحابة معلوم لسبقهم إلىٰ الهجرة ولصحبتهم، فمن صحب منا الكتاب والسنة وتغرب عن نفسه والخلق وهاجر بقلبه إلىٰ الله، فهو الصادق المصيب.

✍ **وعن طريق البدع يقول الحسن:** صاحب البدعة لا يزداد اجتهادًا، صيامًا وصلاة، إلا ازداد من الله بعدًا.

✍ **وعن أبي إدريس الخولاني أنه قال:** لأن أرىٰ في المسجد نارًا لا أستطيع إطْفَاءَهَا أحب إليَّ من أن أرىٰ فيه بدعة لا أستطيع تغييرها.

فتمسك بما كان عليه سلفك الصالح، وابتعد عن البدع وأهلها وكن علىٰ طريق واحد.

✍ **قال بعض العارفين:** لو أقبل عبد علىٰ الله تعالىٰ كذا وكذا سنة ثم أعرض عنه لحظة لكان ما فاته أعظم مما حصله.. (١)

فَسِرْ ولا تلتفت.. انطلق علىٰ طريق واحد.. انطلق وكن واحدًا لواحد علىٰ طريق واحد تصل بإذن الله.

---

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب: (ص: ٣٩).



المبحث الثاني
الرباني طالب للعلم

إن العلم هو سبيل الربانية، ولقد وُصِف الربانيون بتعليم الكتاب والسنة ودلالة الخلق علىٰ ما دلَّهم عليه الأنبياء قال الله: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ (١) ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ٧٩﴾ [آل عمران:٧٩]، فالرباني يتعلم ويعلم، طالب علم وداعية، شيخ وتلميذ، مُرَبّ، أديبٌ ومؤدب، يعيش عمره يطلب العلم. ومن هنا لنا وقفة مع العلم وفضله ومكانته.

العلم لغة:

مصدر قولهم: علم يعلم علما وهو مأخوذ من مادّة (ع ل م) الّتي تدلّ علىٰ أثر بالشّيء يتميّز بها عن غيره، قال الرّاغب: وعلّمته وأعلمته في الأصل واحد، إلّا أنّ الإعلام اختصّ بما كان بإخبار صحيح، والتّعليم اختصّ بما

(١) قرأ الكوفيون وابن عامر: «بِما كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتابَ»، بضم التاء وتحريك العين أي فتحها وكسر اللام التي بعد العين وتشديدها، وقرأ الباقون بفتح التاء وسكون العين وفتح اللام وتخفيفها.

قال الشاطبي:

وضمّ وحرّك تعلمون الكتاب مع ... مشدّدة من بعد بالكسر ذلّلا

قلت: (محمد): وعلىٰ هذا يتضح معنىٰ أن الرباني يتعلم ويعلم ، طالب علم وداعية، شيخ وتلميذ.

يكون بتكرير وتكثير حتّىٰ يحدث منه أثر في نفس المتعلّم، وقول الله تعالىٰ ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف:٧٦] فعليم يصحّ أن يكون إشارة إلىٰ الإنسان العالم الّذي يكون فوق آخر، ويكون تخصيص لفظ العليم الّذي هو للمبالغة تنبيها إلىٰ أنّه بالإضافة إلىٰ الأوّل عليم وإن لم يكن بالإضافة إلىٰ من فوقه كذلك، ويجوز أن يكون قوله: «**عليم**» عبارة عن الله تعالىٰ، وقول الله تعالىٰ: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ...﴾ [الجن:٢٦، ٢٧] فيه إشارة إلىٰ أنّ لله تعالىٰ علمًا يخصّ به أولياءه. والعالم في وصف الله تعالىٰ: هو الّذي لا يخفىٰ عليه شيء. (١)

✍ **وقال ابن منظور**: العلم نقيض الجهل، وعلمت الشّيء أعلمه علما: عرفته. قال ابن برّيّ: وتقول: علم وفقه: أي تعلّم وتفقّه، وعلم وفقه (بالضّمّ) أي ساد العلماء والفقهاء، والعلّام والعلّامة: النّسّابة وهو من العلم. قال ابن جنّي: رجل علّامة، وامرأة علّامة، وفي حديث ابن مسعود: إنّك غليّم معلّم، أي ملهم للصّواب والخير، وعلم بالشّيء: شعر. يقال: ما علمت بخبر قدومه: أي ما شعرت. وعلم الأمر وتعلّمه: أتقنه. وعلم الرّجل: خبره، وأحبّ أن يعلمه أي يخبره (٢).

---

(١) المقاييس: (٤/ ١٠٩)، والمفردات: (٣٤٤).

(٢) لسان العرب: (٥/ ٣٠٨٣- ٣٠٨٤)، وانظر: الصحاح للجوهري: (٥/ ١٩٩٠- ١٩٩١).

واصطلاحًا:

قال الجرجانيّ: العلم هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع (١).

وقال الفيروز اباديّ: العلم ضربان:

الأوّل: إدراك ذات الشّيء.

والثّاني: الحكم علىٰ الشّيء بوجود شيء هو موجود له، أو نفي شيء هو منفيّ عنه، فالأوّل يتعدّىٰ إلىٰ مفعول واحد، والاخر يتعدّىٰ إلىٰ مفعولين، والعلم من وجه آخر ضربان: نظريّ وعمليّ، ومن وجه ثالث: عقليّ وسمعيّ. (٢)

وقال الكفويّ: المعنىٰ الحقيقيّ للفظ العلم هو الإدراك، ولهذا المعنىٰ متعلّق هو المعلوم، وله تابع في الحصول يكون وسيلة إليه في البقاء وهو الملكة، وقد أطلق لفظ العلم علىٰ كلّ منها إمّا حقيقة عرفيّة، أو اصطلاحيّة، أو مجازًا مشهورة. (٣)

الفرق بين العلم والمعرفة:

المعرفة: تقال للإدراك المسبوق بالعدم، ولثاني الإدراكين إذا تخلّلهما عدم. والإدراك الجزئيّ. والإدراك البسيط.

---

(١) التعريفات للجرجاني: (١٩١).

(٢) انظر تفاصيل ذلك في بصائر ذوي التمييز: (٨٨) وما بعدها، والمفردات للراغب: (٣٤٣).

(٣) الكليات للكفوي: (٦١١).

والعلـم: يقـال لحصـول صـورة الشّـيء عنـد العقـل، وللاعتقـاد الجـازم المطابق الثّابت ولإدراك الكلّيّ، ولإدراك المركّب.

والمعرفة قد تقال فيما تدرك آثاره، وإن لم تدرك ذاته.

والعلم لا يقال إلّا فيما أدرك ذاته.

والمعرفة تقال فيما لا يعرف إلّا كونه موجودًا فقط.

والعلم أصله أن يقال فيما يعرف وجوده وجنسه وكيفيّته وعلّته.

والمعرفة تقال فيما يتوصّل إليه بتفكّر وتدبّر.

والعلم قد يقال في ذلك وفي غيره(١).

وأيضًـا يسـتعمل العلـم في المحـلّ الّـذي يحصّـل العلـم فيـه لا بواسـطة الكسب، ولهذا يقال: (الله عـالم) ولا يقـال: (عـارف)، كمـا لا يقـال: (عاقـل) فكذا الدّراية فإنّها لا تطلق علىٰ الله لما فيها من معنىٰ الحيلة.

✍ **وفي «النّجاة»**: كلّ معرفة وعلم فإمّا تصوّر وإمّا تصديق. (٢)

أقسام العلم:

✍ **قال ابن الجوزيّ** - رحمه الله تعالىٰ - في بيان العلم الّـذي هـو فريضـة علىٰ كلّ مسلم: اختلفت عبـارات النّـاس في بيـان العلـم المفـروض، والصّـحيح أن يقال: هو علم معاملة العبد لربّه وهو يدخل في باب الاعتقاد والأفعـال. وهـذا

---

(١) الكليات: (٨٦٨).

(٢) المرجع السابق: (٦١١).

العلم المفروض **ينقسم إلىٰ قسمين**:

- **فرض عين:**

وهـو مـا يتعـيّن وجوبـه علـىٰ الشّـخص مـن توحيـد الله ومعرفـة أوامـره وحدوده في العبادات والمعاملات الّتي يحتاج إليها.

- **وفرض كفاية:**

وهو كلّ علم لا يستغنىٰ عنه في قـوام الـدّنيا. كالطّـبّ والحسـاب وأصـول الصّناعات. كالفلاحة والحياكـة والحجامـة. فلـو خـلا البلـد عمّـن يقـوم بهـذه العلوم والصّناعات أثم أهل البلد جميعا.

وإذا قام بها واحد فقط وكفاهم سقط الإثم عـن البـاقين، والتّعمّـق في مثـل هذه العلوم يعدّ فضلة، لأنّه يستغنىٰ عنه.

ومن العلوم ما يكون مباحًا، كالعلم بالأشعار الّتي لا سـخف فيهـا، ومنهـا مـا يكـون مـذموما، كعلـم السّـحر والطّلسـمات والتّلبيسـات. وأمّـا العلـوم الشّــرعيّة فكلّهــا محمــودة، وتنقســم إلــىٰ أصــول وفــروع ومقــدّمات ومتمّمات(١).

فضل العلم:

قال ابن القيّم: العلم هاد، وهو تركة الأنبياء وتراثهم، وأهله عصبتهم وورّاثهـم، وهـو حيـاة القلـوب، ونـور البصـائر، وشـفاء الصّـدور، وريـاض العقـول، ولـذّة الأرواح، وأنـس المستوحشـين، ودليـل المتحيّـرين، وهـو

(١) مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة: (بتصرف شديد واختصار ١٥ – ١٧).

الميزان الّذي به توزن الأقوال والأعمال والأحوال.

- وهو الحاكم المفرّق بين الشّكّ واليقين، والغيّ والرّشاد، والهدىٰ والضّلال. به يعرف الله ويعبد، ويذكر ويوحّد، ويحمد ويمجّد، وبه اهتدىٰ إليه السّالكون.

- ومن طريقه وصل إليه الواصلون.

- ومنه دخل عليه القاصدون.

- وبه تعرف الشّرائع والأحكام، ويتميّز الحلال والحرام.

- وبه توصل الأرحام، وبه تعرف مراضي الحبيب، وبمعرفتها ومتابعتها يوصل إليه من قريب.

- وهو إمام، والعمل مأموم.

- وهو قائد، والعمل تابع.

- وهو الصّاحب في الغربة، والمحدّث في الخلوة، والأنيس في الوحشة، والكاشف عن الشّبهة، والغنىٰ الّذي لا فقر علىٰ من ظفر بكنزه.

- والكنف الّذي لا ضيعة علىٰ من أوىٰ إلىٰ حرزه.

- مذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد.

- وطلبه قربة.

- وبذله صدقة.

- ومدارسته تعدل بالصّيام والقيام.

- والحاجة إليه أعظم منها إلىٰ الشّراب والطّعام.(١)

العلم النافع:

قال ابن رجب الحنبليّ - رحمه الله تعالىٰ-: قد ذكر الله تعالىٰ في كتابه العلم تارة في مقام المدح وهو العلم النّافع وذكر العلم تارة في مقام الذّمّ وهو العلم الّذي لا ينفع، فأمّا الأوّل فمثل قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩]، وقوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران:١٨]، وقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ١١٤﴾ [طه:١١٤]، وقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨]. وغير ذلك من الآيات.

هذا وقد يكون العلم في نفسه نافعًا لكن صاحبه لم ينتفع به كما قال تعالىٰ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارَۢا﴾ [الجمعة:٥]، وقال سبحانه: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ...﴾ [الأعراف:١٧٥، ١٧٦]، وقال أيضًا: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية:٢٣].(٢)

---

(١) مدارج السالكين: (٢/ ٤٦٩- ٤٧٠).

(٢) فضل علم السلف علىٰ الخلف: (١٢٥- ١٢٦) بتصرف واختصار.

ضابط العلم النافع:

والعلم النّافع هو ما كان ضبط نصوص الكتاب والسّنّة، وفهم معانيها والتّقيّد في ذلك بالمأثور عن الصّحابة والتّابعين وتابعيهم في معاني القرآن والحديث وفيما ورد عنهم من الكلام من مسائل الحلال والحرام والزّهد والرّقائق والمعارف وغير ذلك.

والاجتهاد علىٰ تمييز صحيحه من سقيمه أوّلًا، ثمّ الاجتهاد علىٰ معرفة معانيه وتفهّمه ثانيًا.

وهذا العلم النّافع يدلّ على أمرين:

أحدهما: معرفة الله وما يستحقّه من الأسماء الحسنىٰ والصّفات العلىٰ والأفعال الباهرة، وذلك يستلزم إجلاله وإعظامه، وخشيته ومهابته، ومحبّته ورجاءه، والتّوكّل عليه والرّضا بقضائه والصّبر علىٰ بلائه.

والأمر الثّاني: المعرفة بما يحبّه ويرضاه، وما يكرهه ويسخطه من الاعتقادات، والأعمال الظّاهرة والباطنة والأقوال.(١)

فضل العلم والعلماء:

القرآن الكريم أعظم كتاب أشاد بالعلم وأهله، ورفع قدر «أولي العلم» و«العالمين»، ونوه بمكانة «الذين أوتوا العلم»، كما بين أنه أنزل كتابه وفصل آياته (لقوم يعلمون)، كما بث آياته في الآفاق وفي الأنفس لهؤلاء الذين يعلمون.

---

(١) فضل علم السلف علىٰ الخلف: (١٥٠، ١٥١) باختصار.

* يقـــول تعـــالىٰ: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ [آل عمران:١٨]، فانظر كيف بدأ الله تعالىٰ بنفسه، وثنىٰ بملائكته، وثلث بأولىٰ العلم، واستشهد بهم علىٰ أعظم قضايا الوجود، وهي قضية الوحدانية.

* وقال تعالىٰ: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر:٩]، وهو استفهام إنكاري معناه نفي التسوية بين أهل العلم وأهل الجهل، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ... ﴾ [فاطر: ١٩ – ٢٢]. (١)

منزلة العلم في حياة الأنبياء:

من قرأ قصص الأنبياء في القرآن وجد أن للعلم مكانًا في كل منها، وأن العلم كان وراء كل خير أو فضل أحرزه واحد منهم.

* فآدم عليه السلام ـ أبو البشر ـ إنما فضله الله علىٰ الملائكة، وأظهر تفوقه عليهم، وأنه المرشح الصالح للخلافة في الأرض، بسبب «العلم» الذي علمه الله إياه، ولم يعلمه للملائكة، ولهذا لما سألهم عن أسماء الأشياء ـ والسؤال عن الاسم يتضمن السؤال عن المسمىٰ وخواصه ـ قالوا: ﴿ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ﴾ [البقرة: ٣٢– ٣٣].

---

(١) انظر الحياة الربانية والعلم: (١٣٣) وما بعدها.

* وكذلك استطاع آدم أن يتطهر من ذنبه ـ حين أكل من الشجرة المنهي عنها ـ بما تعلمه من الكلمات التي تلقاها من ربه: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة:٣٧].

* ونوح ـ شيخ المرسلين ـ نجد أثر العلم في حسن دعوته لقومه، وجداله لهم حتىٰ أفحمهم. وقالوا كما حكىٰ القرآن: ﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [هود: ٣٢ – ٣٤].

* وإبراهيم ـ خليل الرحمن ـ آتاه الله الحجة، فحاج نمروذ فأسكته، وحاج قومه فغلبهم، وقال لأبيه: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ ﴾ [مريم:٤٣].

* وقال تعالىٰ في شأنه: ﴿ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُ ... ﴾ [الأنعام:٨٣].

* ويوسف لما بلغ أشده آتاه الله حكما وعلما، وعلمه من تأويل الأحاديث تعبير الرؤىٰ، وكان هذا العلم سببا في إخراجه من السجن، وكذلك كان العلم مؤهلا لتوليه خزائن الأرض: ﴿ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾ ﴾ [يوسف:٥٥]، فالحفظ يمثل العنصر الأخلاقي، والعلم يمثل العنصر المعرفي، وكلاهما يكمل الآخر، وكلاهما ضروري

لكل من يتولىٰ منصبًا قياديًّا.

ولقد برز يوسف في علم التخطيط الزراعي والاقتصادي في أيام الأزمات والمجاعات، ووضع خطة لخمسة عشر عامًا، وتولىٰ هو الإشراف علىٰ تنفيذها بنفسه، فأنقذ الله به مصر وما حولها من محنة كادت تودي بها.

* وقال الله في شأن موسىٰ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: ١٤].

* ولما أعلم الله موسىٰ أن هناك رجلًا عنده من العلم ما ليس عنده، سافر إليه سفرًا طويلًا لقي فيها النصب والعناء، وطلب إليه أن يصحبه، بل أن يتبعه ليتعلم منه مما علمه الله، وهو موسىٰ الذي اصطفاه الله برسالاته وبكلامه، فاشترط عليه أن يصبر علىٰ ما يراه منه، ولا يبادره بالسؤال حتىٰ يبين هو له، وقبل موسىٰ هذا الشرط: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾ [الكهف: ٦٦ - ٧٠].

* وفي قصة داود وسليمان قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ [النمل: ١٥ - ١٦].

فالجهل بمثابة العمىٰ، والعلم بمثابة البصر، والجهل كالظلمة، والعلم

كالنور، والجهل حرارة قاتلة، والعلم ظل ظليل، والجهل موت، والعلم حياة، ولا يمكن أن يستوي الضدان في هذا كله.

* وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ۗ﴾ [فاطر:٢٨]، أي لا يخشىٰ الله إلا العلماء الذين يعرفون مقامه، ويقدرونه حق قدره، والعلم الحقيقي هو الذي يورث الخشية.

وقد جاءت هذه الآية ـ أو هذا الجزء من الآية ـ بعد أن ذكر الله سبحانه بعض آياته في خلقه: في السماء والماء والنبات والجبال، ومن الناس والدواب والأنعام، مما يوحي بأن العلماء المذكورين هم علماء الطبيعة والكون والأرض والنبات والإنسان والحيوان. اقرأ قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ۗ﴾ [فاطر: ٢٧ – ٢٨].

* وقال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ﴾ [الروم:٢٢].

والأوفق بـ «العالمين» هنا: أنهم العلماء بالظواهر الكونية في الفلك وفي الأرض، والعلماء باختلاف الألسنة والألوان، أي علماء الكون، وعلماء الإنسان.

* وقال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:٩٧].

فالأقرب أن القوم الذين يعلمون هنا: هم علماء الفلك والطبيعة الجوية، فهم أقدر الناس علىٰ معرفة أسرار الله تعالىٰ واكتشاف سننه في جعل النجوم للاهتداء.

ومن هنا نرىٰ أن العلم الذي أشاد به القرآن ليس مقصورًا علىٰ علم الدين وحده، وإن كان علم الدين له الصدارة والأولوية، لأنه العلم الذي يتعلق بالمقاصد والغايات، وعلوم الدنيا تتعلق بالوسائل والآلات، ولكنها مهمة أيضًا لنماء الحياة وبقائها كما يريد الله تعالىٰ.

* وقال تعالىٰ: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٣].

* ونجد علم سليمان يتجلىٰ في فهم كلام النملة مع النمل، وفي كلام الهدهد الذي أدل عليه بالعلم، وقال له: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ [النمل:٢٢].

* وفي قصة سليمان مع ملكة سبأ، نجد أن الذي أحضر عرشها من اليمن إلىٰ الشام قبل أن يرتد إليه طرفه إنما هو: ﴿ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [النمل:٤٠].

* كما امتن الله علىٰ داود بتعليمه صناعة الدروع: ﴿وَعَلَّمْنَـٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ﴾ [الأنبياء:٨٠].

* وفي قصة طالوت بين الله تعالىٰ أنه اختاره لزعامة القوم وقيادتهم

بسـبب مؤهلاتـه العلميـة والماديـة: ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةً فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾ [البقرة:٢٤٧].

* وقـال عـن المسـيح عيسـىٰ: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ٤٨﴾ [آل عمران:٤٨].

* وقال عن خاتم رسله محمد ﷺ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾ [النساء:١١٣].

السنة والعلم:

جاءت الأحاديث النبوية فأكدت ما جاء في القرآن من فضل العلم، ومنزلة العلماء، ومن ذلك ما رواه معاوية قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**».(١)

* وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَىٰ الجَنَّةِ**».(٢)

* وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو**

---

(١) صحيح البخاري: (٧١).

(٢) سنن الترمذي: (٤/ ٣٢٥). وانظر صحيح الجامع: (٦٢٩٨).

لَهُ». (١)

- **فمن خصائص العلم:**

أن نفعه مستمر، وأن أجره دائم، وأنه باق للإنسان حتىٰ بعد موته.

✍ **قَالَ الْحَافِظ المنذري:** «وناسخ الْعلم النافع لَهُ أجره وَأجر من قَرَأَهُ أَو نسخه أَو عمل بِهِ من بعده مَا بَقِي خطه وَالْعَمَل بِهِ لهَذَا الحَدِيث وَأَمْثَاله وناسخ غير النافع مِمَّا يُوجب الْإِثْم عَلَيْهِ وزره ووزر من قَرَأَهُ أَو نسخه أَو عمل بِهِ من بعده مَا بَقِي خطه وَالْعَمَل بِهِ لما تقدم من الْأَحَادِيث من سنّ سنة حَسَنَة أَو سَيِّئَة وَالله أعلم». (٢)

* عَنْ كَثِيرِ بْنِ قَيْسٍ، قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا مَعَ أَبِي الدَّرْدَاءِ، فِي مَسْجِدِ دِمَشْقَ فَجَاءَهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ: إِنِّي جِئْتُكَ مِنْ مَدِينَةِ الرَّسُولِ ﷺ لِحَدِيثٍ بَلَغَنِي، أَنَّكَ تُحَدِّثُهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا جِئْتُ لِحَاجَةٍ، قَالَ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَىٰ الْعَابِدِ، كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَىٰ سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا، وَلَا دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**». (٣)

---

(١) صحيح مسلم: (٣/ ١٢٥٥).

(٢) الترغيب والترهيب للمنذري: (١/ ٦٢).

(٣) سنن أبي داود: (٣/ ٣١٧).

✍ **قال المناوي**: واعلم أنه كما لا رتبة فوق رتبة النبوة فلا شرف فوق شرف وارث تلك الرتبة. (١)

✍ **قال الإمام الغزالي**: وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَا رُتْبَةَ فَوْقَ النُّبُوَّةِ وَلَا شَرَفَ فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة! (٢)

ويعلق على استغفار من في السموات ومن في الأرض للعالم فيقول: «وأي منصب يزيد على منصب من تشتغل ملائكة السموات والأرض بالاستغفار له ؟ (٣)

فهو مشغول بنفسه (أي بعلمه)، وهم مشغولون بالاستغفار له»!

✍ **وقال القسطلاني**: وإذا كان لا رتبة فوق النبوّة فلا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة، وغاية العلم العمل لأنه ثمرته وفائدة العمر وزاد الآخرة فمن ظفر به سعد ومن فاته خسر، فإذًا العلم أفضل من العمل به لأن شرفه بشرف معلومه، والعمل بلا علم لا يسمىٰ عملًا بل هو ردّ وباطل، وينقسم العلم بانقسام المعلومات وهي لا تحصىٰ. (٤)

* وعَنْ زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ، قَالَ: أَتَيْتُ صَفْوَانَ بْنَ عَسَّالٍ الْمُرَادِيَّ، فَقَالَ: مَا جَاءَ بِكَ؟ قُلْتُ: أُنْبِطُ الْعِلْمَ (٥). قَالَ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ – ﷺ – يَقُولُ:

---

(١) فيض القدير: (٤/ ٣٨٤).

(٢) إحياء علوم الدين: (١/ ٥).

(٣) إحياء علوم الدي: (١/ ٥).

(٤) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري: (١/ ١٥٣).

(٥) أطلبه وأستخرجه.

«مَا مِنْ خَارِجٍ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ، إِلَّا وَضَعَتْ لَهُ الْمَلَائِكَةُ أَجْنِحَتَهَا، رِضًا بِمَا يَصْنَعُ». (١)

* وعن أَبِي هُرَيْرَةَ، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلاَّ ذِكْرُ اللهِ وَمَا وَالَاهُ وَعَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ». (٢)

والمراد بلعن الدنيا: ذمها، وهي ليست مذمومة لذاتها، فإنها مزرعة الآخرة، وهي دار الإيمان والعبادة والجهاد في سبيل الله، وإنما تذم من حيث أنها دار للكفر والشر وعبادة الطاغوت، ومن حيث أنها تشغل عن الله تعالىٰ وعن الدار الآخرة. ولهذا استثنىٰ الحديث من الذم كل ما يذكر الإنسان بربه، ويصله بحبله، من ذكر الله، وما يحبه ويرضاه، من العلم النافع والعمل الصالح، والمقصود بالعالم والمتعلم: من يجمع بين العلم والعمل، فيخرج الجهلاء الذين لا يعلمون، والذين يعلمون ولا يعملون. (٣)

* وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ خَرَجَ فِي طَلَبِ العِلْمِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ حَتَّىٰ يَرْجِعَ»(٤) والمراد بسبيل الله: هو الجهاد.

* وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ - ﷺ - يَقُولُ: «مَنْ جَاءَ مَسْجِدِي هَذَا، لَمْ يَأْتِهِ إِلَّا لِخَيْرٍ يَتَعَلَّمُهُ أَوْ يُعَلِّمُهُ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْمُجَاهِدِ فِي

(١) سنن ابن ماجه (١/ ١٥٣). وانظر صحيح الجامع: (٢٥٧٠).
(٢) سنن الترمذي (٢٣٢٢). وانظر صحيح الجامع: (١٦٠٩).
(٣) الحياة الربانية والعلم: (ص: ١٣٩).
(٤) سنن الترمذي: (٢٦٤٧). وانظر ضعيف الجامع: (٥٥٧٠).

سَبِيلِ اللهِ(١)، وَمَنْ جَاءَ لِغَيْرِ ذَلِكَ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الرَّجُلِ يَنْظُرُ إِلَىٰ مَتَاعِ غَيْرِهِ»(٢).

كما حثت الأحاديث النبوية علىٰ إكرام أهل العلم وإعطائهم حقهم من الإجلال والتوقير، وحذرت من إضاعتهم وعدم المبالاة بهم.

* فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﭬ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَجْمَعُ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ مِنْ قَتْلَىٰ أُحُدٍ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ يَقُولُ: «**أَيُّهُمْ أَكْثَرُ أَخْذًا لِلْقُرْآنِ**»، فَإِذَا أُشِيرَ لَهُ إِلَىٰ أَحَدِهِمَا قَدَّمَهُ فِي اللَّحْدِ، وَقَالَ: «**أَنَا شَهِيدٌ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ يَوْمَ القِيَامَةِ**»، وَأَمَرَ بِدَفْنِهِمْ فِي دِمَائِهِمْ، وَلَمْ يُغَسَّلُوا، وَلَمْ يُصَلَّ عَلَيْهِمْ. (٣)

* وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَيْسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبِيرَنَا، وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفْ لِعَالِمِنَا**». (٤)

مكانة العلم لدى سلف الأمة:

- **قال المسيح** ؈: من تعلّم وعَلَّم وعَمِل فذاك يُدعىٰ عظيمًا في ملكوت السّماء. (٥)

- **وقال أيضًا** ؈: لا تمنع العلم من أهله فتأثم، ولا تنشره عند غير أهله

---

(١) لأن كلًّا من المتعلم والمجاهد يعمل لتكون كلمة الله هي العليا، هذا بقلمه، وهذا بسيفه.

(٢) سنن ابن ماجه: (٢٢٧). وانظر صحيح الجامع: (٦١٨٤).

(٣) صحيح البخاري: (١٣٤٣).

(٤) مسند أحمد: (٢٢٧٥٥). ومكارم الأخلاق للطبراني (ص: ٣٦٧). وانظر صحيح الجامع: (٥٤٤٣).

(٥) العلم لزهير بن حرب: (٧).

فتجهل، وكن طبيبًا رفيقًا يضع دواءه حيث يعلم أنّه ينفع. (١)

- **قال لقمان لابنه:** يا بنيّ لا تعلّم (٢) العلم لتباهي به العلماء أو لتماري به السّفهاء، أو ترائي به في المجالس، ولا تترك العلم زهدًا فيه ورغبة في الجهالة، يا بنيّ، اختر المجالس على عينك، وإذا رأيت قومًا يذكرون الله فاجلس معهم، فإنّك إن تكن عالمًا ينفعك علمك، وإن تكن جاهلًا يعلّموك، ولعلّ الله أن يطّلع عليهم برحمة فيصيبك بها معهم، وإذا رأيت قومًا لا يذكرون الله فلا تجلس معهم، فإنّك إن تكن عالمًا لا ينفعك علمك، وإن تكن جاهلًا زادوك غيًّا أو عيًّا (٣)، ولعلّ الله يطّلع عليهم بعذاب فيصيبك معهم. (٤)

- **قال عمر بن الخطّاب** رضي الله عنه: تعلّموا العلم، وعلّموه النّاس وتعلّموا له الوقار والسّكينة وتواضعوا لمن تعلّمتم منه ولمن علّمتموه، ولا تكونوا جبابرة العلماء فلا يقوم جهلكم بعلمكم. (٥)

- **قال عليّ بن أبي طالب** رضي الله عنه **لرجل من أصحابه:** يا كميل: العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم حاكم والمال محكوم عليه، والمال تنقصه النّفقة، والعلم يزكو بالإنفاق.(٦)

---

(١) الدارمي: (٣٧٩).

(٢) لا تعلّم: أي لا تتعلم فحذفت إحدىٰ التاءين تخفيفا..

(٣) الغي: الضلال، والعي: العجز..

(٤) الدارمي: (٣٧٧).

(٥) جامع بيان العلم وفضله: (١/ ١٣٥).

(٦) إحياء علوم الدين للغزالي: (١/ ١٧، ١٨).

- **وقال** رضي الله عنه : لا يؤخذ علىٰ الجاهل عهد بطلب العلم حتّىٰ أخذ علىٰ العلماء عهد ببذل العلم للجهّال، لأنّ العلم كان قبل الجهل به. (١)

- **وقال أيضًا** رضي الله عنه : العالم أفضل من الصّائم القائم المجاهد، وإذا مات العالم ثلم من الإسلام ثلمة لا يسدّها إلّا خلف منه. (٢)

- **عن أبي هريرة** رضي الله عنه **قال:** ما من أصحاب النّبيّ صلى الله عليه وسلم أحد أكثر حديثًا عنه منّي، إلّا ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنّه كان يكتب ولا أكتب.(٣)

- **وقال** رضي الله عنه : لا يزال النّاس بخير ما أتاهم العلم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أكابرهم، فإذا جاء العلم من قبل أصاغرهم فذلك حين هلكوا.(٤)

- **قال معاذ بن جبل** رضي الله عنه : «تعلّموا العلم فإنّ تعلّمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح. والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة. لأنّه معالم الحلال والحرام، والأنيس في الوحشة، والصّاحب في الخلوة، والدّليل علىٰ السّرّاء والضّرّاء. والزّين عند الأخلاق، والقرب عند الغرباء. يرفع الله به أقواما فيجعلهم في الخلق قادة يقتدىٰ بهم، وأئمّة في الخلق تقتفىٰ آثارهم.

وينتهي إلىٰ رأيهم. وترغب الملائكة في حبّهم بأجنحتها تمسحهم. حتّىٰ

---

(١) جامع بيان العلم وفضله: (١/ ١٢٣).
(٢) فهارس لسان العرب: (١/ ٣٢٠).
(٣) البخاري: (١١٣).
(٤) جامع بيان العلم وفضله: (١/ ١٥٩).

كلّ رطب ويابس لهم مستغفر. حتّىٰ حيتان البحر وهوامّه. وسباع البرّ وأنعامه. والسّماء ونجومها. لأنّ العلم حياة القلوب من العمىٰ، ونور الأبصار من الظّلم. وقوّة الأبدان من الضّعف، يبلغ به العبد منازل الأحرار، ومجالسة الملوك، والدّرجات العلىٰ في الدّنيا والآخرة، والفكر به يعدل بالصّيام، ومدارسته بالقيام، به يطاع الله- عَزَّ وَجَلَّ- وبه يعبد الله- عَزَّ وَجَلَّ- وبه توصل الأرحام وبه يعرف الحلال من الحرام، إمام العمل والعمل تابعه، يلهمه السّعداء، ويحرمه الأشقياء. (١)

- **وقال أيضًا**: العالم والمتعلّم في الأجر سواء، وسائر النّاس همج لا خير فيهم. (٢)

- **قال أبو الدّرداء** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «مثل العلماء في النّاس كمثل النّجوم في السّماء يهتدىٰ بها. (٣)

- **قال الفضيل بن عياض**- رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ-: «من أوتي علمًا. لا يزداد فيه خوفا وحزنا وبكاء خليق بأن لا يكون أوتي علما ثمّ قرأ: ﴿ **أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾** ﴾ [النجم: ٥٩، ٦٠]. (٤)

- **قال ابن وهب**: كنت بين يدي مالك- رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - فوضعت ألواحي وقمت أصلّي. فقال: ما الّذي قمت إليه بأفضل ممّا قمت عنه- يعني قام لصلاة

(١) أخلاق العلماء، للآجري: (٣٤، ٣٥).
(٢) أخلاق العلماء للآجري: (٤٢).
(٣) المرجع السابق: (٢٩).
(٤) الشعب: (٨/ ٤٢٧) وقال مخرجه: إسناده جيد.

النّافلة.[١]

- **قال الإمام أحمد**- رحمه الله تعالىٰ: النّاس إلىٰ العلم أحوج منهم إلىٰ الطّعام والشّراب. لأنّ الرّجل يحتاج إلىٰ الطّعام والشّراب في اليوم مرّة أو مرّتين، وحاجته إلىٰ العلم بعدد أنفاسه [٢].

- **قال ذو النّون المصريّ**: كان الرّجل من أهل العلم يزداد بعلمه بغضا للدّنيا وتركا لها، فاليوم يزداد الرّجل بعلمه للدّنيا حبّا وطلبا، وكان الرّجل ينفق ماله علىٰ العلم، واليوم يكتسب الرّجل بعلمه مالا، وكان يرىٰ علىٰ طالب العلم زيادة صلاح في باطنه وظاهره فاليوم يرىٰ علىٰ كثير من أهل العلم فساد الباطن والظّاهر.[٣]

- **قال ابن القيّم**- رحمه الله تعالىٰ: استشهد الله ﷻ بأهل العلم علىٰ أجلّ مشهود به وهو التّوحيد وقرن شهادتهم وشهادة ملائكته. وفي ضمن ذلك تعديلهم فإنّه تعالىٰ لا يستشهد بمجروح. [٤]

- **قال بعضهم**: من طلب العلم لوجه الله لم يزل معانا، ومن طلبه لغير الله لم يزل مهانًا. [٥]

- **وقال بعضهم**: الجاهل صغير وإن كان شيخا، والعالم كبير وإن كان

---

(١) مدارج السالكين: (٢/ ٤٧).
(٢) مدارج السالكين: (٢/ ٤٧٠).
(٣) المدخل لابن الحاج: (٢/ ١٢٦).
(٤) مدارج السالكين: (٢/ ٤٧٠).
(٥) المدخل لابن الحاج: (٢/ ١٢٣).

حدثا واستشهدوا بقول القائل:

تعلّم فليس المرء يولد عالما ... وليس أخو علم كمن هو جاهل

وإنّ كبير القوم لا علم عنده ... صغير إذا التفّت إليه المحافل. (١)

العلم والإيمان في رحاب الإسلام:

* إن أول آيات أنزلها الله من كتابه علىٰ رسوله، أشادت بالعلم والتعليم وأداة التعلم «القلم»، لأنها أمرت بالقراءة، والقراءة مفتاح العلم، يقول تعالىٰ: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾ [العلق: ١ – ٥].

* هكذا كان أول أمر من الله في الإسلام: «اقرأ»، وقد كرره مرتين في هذه الآيات تأكيدا لأهميته، ولكنها ليست مجرد قراءة، ولكن قراءة باسم الرب الخالق، ومعنىٰ أنها باسمه: أنها بإذنه وأمره ومباركته، فهي قراءة إيمانية. وهي تشير إلىٰ أن العلم في الإسلام لابد أن يكون في حضانة الإيمان بالله، وبهذا يكون العلم أداة خير، لا معول هدم، يكون للتعمير لا للتدمير.

* ولهذا رأينا سليمان عليه السلام حين جاءه عرش بلقيس ملكة سبأ من اليمن إلىٰ الشام في لمح البصر أو هو أقرب، جاء به (الذي عنده علم من الكتاب)، كان موقفه موقف المؤمن الذي يعتبر العلم وثمراته نعمة من الله يجب أن تقابل بالشكر، يقول تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٤٠].

---

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر: (١/ ١٥٩).

* وكذلك كان موقف ذي القرنين حين بنىٰ سده العظيم، ليحجز شر يأجوج ومأجوج المفسدين في الأرض، ﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ [الكهف:٩٨]. (١)

العلم يهدي إلى الإيمان:

فالعلم والإيمان في الإسلام يسيران جنبا إلىٰ جنب، ولذا جمع القرآن بينهما في قوله تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الروم:٥٦]، ومثل ذلك قوله: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة:١١].

بل يرتب القرآن الإيمان علىٰ العلم، فالمرء يعلم فيؤمن، ومقتضاه أنه لا إيمان قبل العلم. يقول تعالىٰ: ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج:٥٤].

وهكذا عطف القرآن هذه الثلاثة «العلم.. الإيمان.. الإخبات» بالفاء، التي تفيد الترتيب والتعقيب كما يقول علماء العربية، فإذا كان الإخبات ثمرة الإيمان، فإن الإيمان ثمرة العلم. (٢)

---

(١) الحياة الربانية والعلم: (ص: ١٤٦).
(٢) الحياة الربانية والعلم: (ص: ١٤٨).

الإيمان ثمرة العلم:

وفي هذا يقول القرآن أيضًا: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ ﴾ [سبأ:٦].

* وينوه القرآن بالذين «أوتوا العلم» بأنهم هم الذين يعرفون قيمة القرآن ويؤمنون به، ويتأثرون بما فيه: ﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩].

* ويقول عن القرآن أيضًا: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٩]. (١)

العلم إمام العمل:

ومن فضائل العلم: أنه يسبق العلم، ويدل عليه، ويرشد إليه، وهذا ما ذكره الإمام البخاري في كتاب «العلم» من صحيحه، واستدل عليه بالقرآن من مثل قوله تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ ﴾ [محمد:١٩]، فبدأت الآية بالعلم بالتوحيد، وثنَّت بالاستغفار وهو عمل.

وفي حديث معاذ المشهور في فضل العلم الذي ذكره ابن عبد البر وغيره:

---

(١) الحياة الربانية والعلم: (ص: ١٤٩).

«**تعلموا العلم، فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة**».

وفيه قال: «**وهو إمام، والعمل تابعه**».

ومعنىٰ هذا: «أن العلم إمام العمل وقائد له، والعمل تابع له، ومؤتم به، فكل عمل لا يكون خلف العلم مقتديا به، فهو غير نافع لصاحبه، بل مضرة عليه، كما قال بعض السلف: من عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح.

والأعمال إنما تتفاوت في القبول والرد بحسب موافقتها للعلم، ومخالفتها له، فالعمل الموافق للعلم هو المقبول، والمخالف له هو المردود، فالعلم هو الميزان، وهو المحك.

* قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [الملك:٢].

✍ **قال الفضيل بن عياض** في تفسير «أحسن العمل» قال: هو أخلص العمل وأصوبه، قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتىٰ يكون خالصًا صوابًا، فالخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون علىٰ السنة، وقد قال تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف:١١٠].

فهذا هو العمل المقبول الذي لا يقبل الله من الأعمال سواه. وهو أن

يكون موافقا لسنة رسول الله ﷺ، مرادًا به وجه الله، ولا يتمكن العامل من الإتيان بعمل يجمع هذين الوصفين إلا بالعلم، فإنه إن لم يعلم ما جاء به الرسول لم يمكنه قصده، وإن لم يعرف معبوده لم يمكنه إرادته وحده، فلولا العلم لما كان عمله مقبولا، فالعلم هو الدليل على الإخلاص، وهو الدليل على المتابعة.

وقد قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة:٢٧]، وأحسن ما قيل في تفسير الآية: أنه إنما يتقبل الله عمل من اتقاه في ذلك العمل، وتقواه فيه: أن يكون لوجهه علىٰ موافقة أمره، وهذا إنما يحصل بالعلم. وإذا كان هذا منزلة العلم وموقعه، علم أنه أشرف شيء وأجله وأفضله.. والله أعلم.

✍ **ولهذا قال المحققون**: إن العامل بلا علم كالسائر بلا دليل.. ومعلوم أن عطب مثل هذا أقرب من سلامته، وإن قدر سلامته اتفاقًا نادرًا فهو غير محمود، بل مذموم عند العقلاء.

✍ **وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول**: «من فارق الدليل ضل السبيل، ولا دليل إلا بما جاء به الرسول».

✍ **قال الحسن البصري**: العامل علىٰ غير علم كالسالك علىٰ غير طريق، والعامل علىٰ غير علم ما يفسد أكثر مما يصلح، فاطلبوا العلم طلبًا لا تضروا بالعبادة، واطلبوا العبادة طلبًا لا تضروا بالعلم، فإن قومًا طلبوا العبادة، وتركوا العلم، حتىٰ خرجوا بأسيافهم علىٰ أمة محمد ﷺ، ولو طلبوا العلم لم يدلهم علىٰ ما فعلوا».

فمرتبة العلم من وجه: مرتبة المطاع المتبوع المقتدىٰ به المتبع حكمه المطاع أمره، ومرتبته من وجه آخر مرتبة الدليل المرشد إلىٰ المطلوب الموصل إلىٰ الغاية. (١)

فضل العلم على العبادة:

ومن فضائل العلم ما ثبت في الأحاديث: أنه أفضل من العبادة، وأن العالم مقدم علىٰ العابد.

* ففي حديث أبي الدرداء المشهور: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَىٰ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ طَالِبَ الْعِلْمِ يَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ حَتَّىٰ الْحِيتَانِ فِي الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَىٰ الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَىٰ سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، إِنَّ الْعُلَمَاءَ هم وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**» فضل العالم علىٰ العابد كفضل القمر ليلة البدر علىٰ سائر الكواكب». (٢)

* وكذلك جاء في حديث معاذ بن جبل. وفي حديث أبي أمامة: «**فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَىٰ الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَىٰ أُمَّتِي**». (٣)

* وفي حديث حذيفة وسعد: «**فَضْلُ الْعِلْمِ خَيْرٌ مِنْ فَضْلِ الْعِبَادَةِ، وَخَيْرُ**

---

(١) الحياة الربانية والعلم: (ص: ١٥١).

(٢) سنن ابن ماجه: (١/ ١٥٠). وانظر صحيح الجامع: (٦٢٩٧).

(٣) ترتيب الأمالي الخميسية للشجري: (١/ ٧١)، وانظر ضعيف الجامع: (ص: ٥٧٨).

دِينِكُمُ الْوَرَعُ». (١)

وذلك لأن العلم يسبق العمل، ويدل عليه، ويرشد إليه، فهو دليل له من ناحية، وشرط لقبوله من ناحية أخرىٰ، فلا عمل بلا علم، وقد يوجد علم بلا عمل، والمعنىٰ: أنه كلما وجد العمل لزم وجود العلم، بخلاف عكسه، ولهذا قيل: العلم بدون عمل جنون، والعمل بدون علم لا يكون.

ومن ناحية أخرىٰ فضل العلم علىٰ العبادة، لأن نفع العلم متعد، ونفع العبادة قاصر، فالعبادة إنما تنفع صاحبها، والعلم ينفع الكافة.

ثم إن نفع العبادة - غالبا - ينتهي بالفراغ منها، ولكن نفع العلم يبقىٰ إلىٰ ما شاء الله، ولهذا عد في الأمور الباقية للإنسان بعد موته، فإذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من أشياء معروفة منها: علم ينتفع به من بعده.

وعلىٰ قدر المنتفعين بعلمه يكون أجره، فكلما اهتدىٰ به مهتد إلىٰ طريق الخير، واسترشد به مسترشد في معرفة الحلال من الحرام، والهدىٰ من الضلال، كان له أجره، كما جاء في الحديث: «**من دل علىٰ خير فله مثل أجر فاعله**».

ولأن العلم إما فرض عين، وإما فرض كفاية، وكلاهما أفضل من الاشتغال بالنوافل.

ولأن العلم من صفات الله تعالىٰ، والعمل من صفات المخلوقين، فهو هنا يتخلق بخلق من أخلاق الله تعالىٰ، إن صح التعبير، أو يتصف بصفة من

---

(١) المعجم الأوسط: (٤/ ١٩٧). وانظر صحيح الجامع: (٤٢١٤).

صفاته، واسم من أسمائه الحسنىٰ.

ولأن العلم هو الذي يكشف الغوامض من المسائل، ويفصل في دقائق الأمور، كما رأينا في حديث الذي قتل تسعة وتسعين نفسا، فسأل رجلا عابدا هو أعبد أهل الأرض في زمنه: هل له من توبة؟ فقال له: لا توبة لك، فقتله، وأكمل به المائة، ثم سأل رجلا عالما، هو أعلم أهل الأرض في زمنه: هل له من توبة؟ فقال له: نعم، وأمره أن ينتقل من القرية الظالمة الفاسدة إلىٰ قرية أخرىٰ صالحة.

ولأن العلم هو الذي يبين الحق من الباطل في الاعتقادات، والصواب من الخطأ في المقولات، والمسنون من المبتدع في العبادات، والحلال من الحرام في التصرفات، والصحيح من الفاسد في المعاملات، والفضيلة من الرذيلة في السلوكيات، والمقبول من المردود في المعايير، والراجح من المرجوح في الأقوال والأعمال.

وبدون العلم يمكن أن يعتقد المرء الباطل وهو يحسبه حقا، ويرتكب البدعة وهو يظنها سنة، ويتورط في الحرام وهو يتوهمه حلالا، ويسقط في حمأة الرذيلة وهو يتصورها فضيلة، ولهذا كان من الأدعية المأثورة: «اللهم أرنا الحق حقًّا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه». حتىٰ لا يكون المرء ممن زين له سوء عمله فرآه حسنا.

وقد حذرت الأحاديث الصحاح من فئة من الناس «**يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ،**

يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ»[(١)]، ومعنىٰ قوله: «لا يجاوز حناجرهم»: أن القرآن لا تفقهه عقولهم وقلوبهم، لأنه مجرد ألفاظ وأصوات تخرج من حناجرهم، فآفتهم ليست في ضمائرهم ونياتهم، بل في عقولهم وأفهامهم! ولهذا وصفوا بأنهم: «يدعون أهل الأوثان، ويقتلون أهل الإسلام»! وهؤلاء هم الخوارج الذين حاربهم علي بن أبي طالب والصحابة معه. ولهذا جاء في حديث معاذ المشهور في فضل العلم: أنه إمام والعمل تابعه.

ومن المعروف: أن كثيرا من الأئمة صرحوا بأن أفضل الأعمال بعد الفرائض طلب العلم.

✍ **فقال الشافعي**: لَيْسَ شَيْء بعد الْفَرَائِض أفضل من طلب العلم، وهذا الَّذي ذكره أصحابه عنه أنه مذهبه. (٢)

✍ **وكذلك قال سفيان الثوري، حكاه الحنفية عن أبي حنيفة.**

✍ **وأما الإمام أحمد**، فحكي عنه ثلاث روايات، إحداهن: أنه العلم.

فإنه قيل له: أي شيء أحب إليك: أَجْلِسْ بِاللَّيْلِ أنسخ أَوْ أصلي تَطَوّعا؟ قال: نسخك تعلم به أمور دينك، فهو أحب إلي.. وذكر الخلال عنه في كتاب «العلم» نصوصا كثيرة في تفضيل العلم، ومن كلامه فيه: الناس إلىٰ العلم أحوج منهم إلىٰ الطعام والشراب. (٣)

---

(١) صحيح مسلم: (١٠٦٤).

(٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة: (١/ ١١٩).

(٣) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة: (١/ ١١٩).

والرواية الثانية: أن أفضل الأعمال بعد الفرائض صلاة التطوع، واحتج لهذه الرواية بقوله ﷺ: «**واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة**»، وبقوله في حديث أبي ذر وقد سأله عن الصلاة، فقال: «خَيْرٌ مَوْضُوعٌ» (١)، وبأنه أوصىٰ من سأله مرافقته في الجنة بكثرة السجود وهو الصلاة، وكذلك قوله في الحديث الآخر: «**عَلَيْكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ للهِ، فَإِنَّكَ لَا تَسْجُدُ للهِ سَجْدَةً، إِلَّا رَفَعَكَ اللهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْكَ بِهَا خَطِيئَةً**»(٢)، وبالأحاديث الدالة علىٰ تفضيل الصلاة.

والرواية الثالثة: أنه الجهاد، فإنه قال: «**لا أعدل بالجهاد شيئا، ومن ذا يطيقه؟**»

ولا ريب أن أكثر الأحاديث في الصلاة والجهاد.

✍ وأما مالك.. فقال ابن القاسم: سمعت مالكًا يقول: إن أقوامًا ابْتَغوا الْعِبَادَة وأضاعوا الْعلم فَخَرجُوا علىٰ أمة مُحَمَّد بِأَسْيَافِهِمْ وَلَو ابْتَغوا الْعلم لحجزهم عَن ذَلِك. (٣)

✍ **قال مالك**: وَكتب أبو مُوسَىٰ الأشعري إلىٰ عمر بن الْخطاب أنه قرأ الْقُرْآن عندنَا عدد كذا وَكَذَا فَكتب إليه عمر أن افْرِضْ لَهُم من بَيت المَال.

فَلَمَّا كَانَ فِي الْعَام الثَّانِي كتب إليه: إنه قد قرأ الْقُرْآن عندنَا عدد كثير لأكْثر من ذَلِك فَكتب إليه عمر أن امحهم من الدِّيوَان فَانِي أخاف من أن

(١) مسند أحمد: (٣٥/ ٤٣٧). وانظر صحيح الجامع: (٣٨٧٠).
(٢) صحيح مسلم: (١/ ٣٥٣).
(٣) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة: (١/ ١١٩).

يسْرع النَّاس فِي الْقُرْآن أن يتفقهوا فِي الدّين فيتأولوه علىٰ غير تَأْوِيله! (١)

✍ **وقال ابن وهب**: كنت بين يدي مالك بن أنس، فوضعت ألواحي، وقمت إلىٰ الصلاة (يعني النافلة كما يدل السياق) فقال: ما الذي قمت إليه بأفضل من الذي تركته.(٢)

وهذه الأمور الثلاثة التي فضل كل واحد من الأئمة علىٰ بعضها، وهي: الصلاة، والعلم، والجهاد، هي التي قال فيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لولا ثلاث في الدنيا لما أحببت البقاء فيها: لولا أن أحمل أو أجهز جيشا في سبيل الله، ولولا مكابدة هذا الليل، ولولا مجالسة أقوام ينتقمون أطايب الكلام كما ينتقىٰ أطايب التمر، لما أحببت البقاء. (٣)

- **فالأول**: الجهاد.

- **والثاني**: قيام الليل.

- **والثالث**: مذاكرة العلم.

فاجتمعت في الصحابة بكمالها، وتفرقت فيمن بعدهم.

✍ **وقد حكىٰ ابن القيم** ما ذكره أبو نعيم وغيره عن بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**فضل الْعلم خير من نفل الْعَمَل، وخير دينكم الورع**». وقد روىٰ هذا مرفوعا من حديث عائشة رضي الله عنها. وفي رفعه نظر.

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة: (١/ ١٢٠).
(٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة: (١/ ١٢٠).
(٣) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة: (١/ ١٢٠).

قال: «وهذا الكلام هو فصل الخطاب في هذه المسألة، فإنه إذا كان كل من العلم والعمل فرضًا فلابد منهما كالصوم والصلاة، فإذا كانا فضلين ـ وهما النفلان المتطوع بهما ـ ففضل العلم ونفله خير من فضل العبادة ونفلها، لأن العلم يعم نفعه صاحبه والناس معه، والعبادة يختص نفعها بصاحبها، ولأن العلم تبقىٰ فائدته وعلمه بعد موته، والعبادة تنقطع عنه». (١)

ومن وجوه فضل العلم علىٰ العبادة التي ذكرها العلامة ابن القيم في «المفتاح»: أنه يدل صاحبه علىٰ العمل الأفضل عند الله، وإن كان أقل من غيره مشقة، فصاحب العلم أقل تعبا ومعاناة، وهو أكثر مثوبة وأجرا! قال: واعتبر هذا بالشاهد، فإن الصناع والأجراء يعانون الأعمال الشاقة بأنفسهم، والأستاذ المعلم يجلس يأمرهم وينهاهم، ويريهم كيفية العمل، ويأخذ أضعاف ما يأخذونه.

وقد أشار النبي ﷺ إلىٰ هذا المعنىٰ حيث قال: «**أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ إِيمَانٌ بِاللهِ، وَجِهَادٌ فِي سَبِيلِ اللهِ**»(٢)، فالجهاد بذل النفس، وغاية المشقة، والإيمان علم القلب وعمله وتصديقه، وهو أفضل الأعمال، مع أن مشقة الجهاد فوق مشقته بأضعاف مضاعفة، وهذا لأن العلم يعرف مقادير الأعمال ومراتبها، وفاضلها من مفضولها، وراجحها من مرجوحها، فصاحبه لا يختار لنفسه إلا أفضل الأعمال. والعامل بلا علم يظن أن الفضيلة في كثرة المشقة، فهو يتحمل المشاق وإن كان ما يعانيه مفضولا، ورب عمل فاضل، والمفضول

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة: (١/ ١٢٠).
(٢) المعجم الكبير للطبراني: (٢٤/ ٣١٥).

أكثر مشقة منه.

واعتبر هذا بحال الصديق أبي بكر ﷺ فإنه أفضل الأمة، ومعلوم أن فيهم من هو أكثر عملا وحجا وصوما وصلاة وقراءة منه، قال أبو بكر بن عياش: ما سبقكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة، ولكن بشيء وقر في قلبه! وهذا موضوع المثل المشهور: من لي بمثل سيرك المدلل؟ تمشي رويدا وتجي في الأول! (١)

العلم دليل السلوك:

وليس العلم مطلوبًا لمعرفة الأحكام الظاهرة في الفقه فقط، كما قد يظن الكثيرون، بل هو مطلوب لسلوك الطريق إلىٰ الله أيضًا، بل ربما كان طلبه هنا أشد وألزم، لدخول الأوهام والأهواء والتلبيسات علىٰ الإنسان في هذا الجانب أكثر من غيره.

نرىٰ الإمام الغزالي في مقدمة كتاب «الإخلاص» من «الإحياء» بعد أن بين ضرورة تصحيح النية وإخلاص العبادة لله ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ [البينة:٥] يقول ﷺ: «وليت شعري كيف يصحح نيته من لا يعرف حقيقة النية، أو كيف يخلص من صحح النية إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص؟ أو كيف تطالب المخلص نفسه بالصدق إذا لم يتحقق معناه؟ فالوظيفة الأولىٰ علىٰ كل عبد أراد طاعة الله تعالىٰ: أن يتعلم النية أولا لتحصل المعرفة، ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص،

---

(١) الحياة الربانية والعلم: (ص: ١٥٨-١٦٠).

اللذين هما وسيلتا العبد إلىٰ النجاة والخلاص».[(١)]

ثم نرىٰ الغزالي يعود فيتحدث عن أثر النية في أقسام الأعمال من طاعات ومعاص ومباحات، ويبدأ بعلاقتها بقسم المعاصي فيقول: «اعلم أن الأعمال وإن انقسمت أقساما كثيرة من فعل وقول، وحركة وسكون، وجلب ودفع، وفكر وذكر - وغير ذلك مما لا يتصور إحصاؤه واستقصاؤه - فهي ثلاثة أقسام: معاص وطاعات ومباحات.

«القسم الأول» المعاصي: وهي لا تتغير عن موضعها بالنية، فلا ينبغي أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله عليه الصلاة والسلام: «إنما الأعمال بالنيات». فيظن أن المعصية تنقلب طاعة بالنية، كالذي يغتاب إنسانا مراعاة لقلب. أو يطعم فقيرا من مال غيره، أو يبني مدرسة أو مسجدا أو رباطا بمال حرام، وقصده الخير، فهذا كله جهل، والنية لا تؤثر في إخراجه عن كونه ظلما وعدوانا ومعصية. بل قصده الخير والشر - علىٰ خلاف مقتضىٰ الشرع - شر آخر، فإن عرفه فهو معاند للشرع، وإن جهله فهو عاص بجهله، إذ طلب العلم فريضة علىٰ كل مسلم، والخيرات إنما يعرف كونها خيرات بالشرع، فكيف يمكن أن يكون الشر خيرًا؟ هيهات! بل المروج لذلك علىٰ القلب خفي الشهوة وباطن الهوىٰ، فإن القلب إذا كان مائلًا إلىٰ طلب الجاه واستمالة قلوب الناس وسائر حظوظ النفس، توسل الشيطان به إلىٰ التلبيس علىٰ الجاهل، ولذلك قال سهل رحمه الله تعالىٰ: ما عصي الله تعالىٰ بمعصية أعظم من الجهل! قيل: يا أبا محمد، هل تعرف شيئًا أشد من الجهل؟ قال:

---

(١) إحياء علوم الدين: (٤/ ٣٦٢).

نعم، الجهل بالجهل، وهو كما قال، لأن الجهل بالجهل يسد بالكلية باب التعلم، فمن يظن بنفسه أنه عالم فكيف يتعلم؟

وكذلك أفضل ما أطيع الله تعالىٰ به: العلم! ورأس العلم: العلم بالعلم، كما أن رأس الجهل: الجهل بالجهل.

فإن من لا يعلم العلم النافع من العلم الضار، اشتغل بما أكب الناس عليه من العلوم المزخرفة التي هي وسائلهم إلىٰ الدنيا، وذلك هو مادة الجهل ومنبع فساد العالم، والمقصود أن من قصد الخير بمعصية عن جهل فهو غير معذور، إلا إذا كان قريب العهد بالإسلام، ولم يجد بعد مهلة للتعلم، وقد قال الله سبحانه: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل:٤٣]، وقال النبي ﷺ: «**لَا يَنْبَغِي لِلْعَالِمِ أَنْ يَسْكُتَ عَلَىٰ عِلْمِهِ، وَلَا يَنْبَغِي لِلْجَاهِلِ أَنْ يَسْكُتَ عَلَىٰ جَهْلِهِ**».(١)

- ومن العلماء السوء من يقوم بتعليم العلم للسفهاء والأشرار، المشغولين بالفسق والفجور، القاصرين هممهم علىٰ مباراة العلماء، ومباراة السفهاء، واستمالة وجوه الناس، وجمع حطام الدنيا، وأخذ أموال السلاطين واليتامىٰ والمساكين، فإن هؤلاء إذا تعلموا كانوا قطاع طريق الله تعالىٰ! وانتهض كل واحد منهم في بلدته نائبا عن الدجال! يتكالب علىٰ الدنيا، ويتبع الهوىٰ، ويتباعد عن التقوىٰ، ويستجري الناس بسبب مشاهدته علىٰ معاصي

---

(١) المعجم الأوسط (٥/ ٢٩٨). وقال الهيثمي: رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ، وَفِيهِ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي حُمَيْدٍ، وَقَدْ أَجْمَعُوا عَلَىٰ ضَعْفِهِ. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (١/ ١٦٥).

الله تعالىٰ. ثم قد ينتشر ذلك العلم إلىٰ مثله وأمثاله، ويتخذونه أيضًا آلة ووسيلة في الشر واتباع الهوىٰ، ويتسلسل ذلك، ووبال جميعه يرجع إلىٰ المعلم الذي علمه العلم مع علمه بفساد نيته وقصده ومشاهدته أنواع المعاصي من أقواله وأفعاله، ومن مطعمه وملبسه ومسكنه، فيموت هذا العالم وتبقىٰ آثار شره منتشرة في العالم ألف سنة مثلا وألفي سنة، وطوبىٰ لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه! ثم العجب من جهله حيث يقول: «**إنما الأعمال بالنيات**». وقد قصدت بذلك نشر علم الدين، فإن استعمله هو في الفساد فالمعصية منه لا مني، وما قصدت به إلا أن يستعين به علىٰ الخير، وإنما حب الرياسة والاستتباع والتفاخر بعلو العلم يحسن ذلك في قلبه، والشيطان بواسطة حب الرياسة يلبس عليه: وليت شعري ما جوابه عمن وهب سيفا من قاطع طريق، وأعد له خيلا وأسبابا يستعين بها علىٰ مقصوده، ويقول: إنما أردت البذل والسخاء والتخلق بأخلاق الله الجميلة، وقصدت به أن يغزو بهذا السيف والفرس في سبيل الله تعالىٰ، فإن إعداد الخيل والرباط والقوة للغزاة من أفضل القربات، فإن هو صرفه إلىٰ قطع الطريق فهو العاصي. وقد أجمع الفقهاء علىٰ أن ذلك حرام مع أن السخاء هو أحب الأخلاق إلىٰ الله تعالىٰ».(١)

العلم والمال:

لقد بين حديث النبي ﷺ ـ أن للعلم أثره في سلوك صاحبه، وقد قسم الناس إلىٰ أصناف أربعة بالنظر إلىٰ موقعهم من العلم والمال.

---

(١) نقلًا عن الحياة الربانية والعلم ص:١٦٨ ومابعدها. بتصرف.

* عَنْ أَبِي كَبْشَةَ الْأَنْمَارِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**ثَلَاثٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ، وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ**»، قَالَ: «**فَأَمَّا الثَّلَاثُ الَّتِي أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ: فَإِنَّهُ مَا نَقَّصَ مَالَ عَبْدٍ صَدَقَةٌ، وَلَا ظُلِمَ عَبْدٌ بِمَظْلَمَةٍ فَيَصْبِرُ عَلَيْهَا إِلَّا زَادَهُ اللهُ بِهَا عِزًّا، وَلَا يَفْتَحُ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ اللهُ لَهُ بَابَ فَقْرٍ، وَأَمَّا الَّذِي أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ**»، فَإِنَّهُ قَالَ: «**إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ: عَبْدٌ رَزَقَهُ اللهُ مَالًا وَعِلْمًا، فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَيَعْلَمُ للهِ فِيهِ حَقَّهُ**»، قَالَ: «**فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ**» **قَالَ: «وَعَبْدٌ رَزَقَهُ اللهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا؟» قَالَ: «فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ كَانَ لِي مَالٌ عَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ» قَالَ: «فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ»، قَالَ: «وَعَبْدٌ رَزَقَهُ اللهُ مَالًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا، فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَلَا يَعْلَمُ للهِ فِيهِ حَقَّهُ، فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ» قَالَ: «وَعَبْدٌ لَمْ يَرْزُقْهُ اللهُ مَالًا، وَلَا عِلْمًا فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ كَانَ لِي مَالٌ لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ، قَالَ: هِيَ نِيَّتُهُ، فَوِزْرُهُمَا فِيهِ سَوَاءٌ**».(١)

✍ **قسَّم الحديث الناس وحظوظهم في الدنيا إلىٰ أربعة أصناف:**

الصنف الأول ـ وهو أفضلهم ـ من أوتي علمًا ومالًا، والمقصود بالعلم هنا: نور البصيرة، وحسن الإدراك، والمعرفة الراسخة، التي تضيء لصاحبها الطريق، وتبين له العواقب، فنفعه العلم بأن دله علىٰ أن المال وسيلة لا غاية، وأنه مستخلف فيه، وأن لله فيه حقا ثابتا، فاتقىٰ فيه ربه، ووصل فيه رحمه، فأحسن بذلك إلىٰ نفسه، وأحسن إلىٰ الناس بعلمه وماله، فهو كما قال

---

(١) مسند أحمد: (١٨٠٣١)، سنن الترمذي (٢٣٢٥)، وانظر صحيح الجامع: (٣٠٢٤).

الحديث: «بأفضل المنازل».

والصنف الثاني: يلي الأول في المرتبة وهو: من أوتي علمًا، ولم يؤت مالًا، فهو لم ينفق ولم يتصدق ولم يصل الرحم بالفعل، وإنما فعل ذلك بالنية التي علم الله صدقها منه. والنية ليست مجرد خاطرة طائرة تمر بالبال، كشرارة لامعة ثم تنطفئ، بل هي خط نفسي عميق، يجعل صاحبه يعيش بهذا الأمر، حالما به، راغبا فيه، حريصا عليه، فالنية هي عقد القلب علىٰ العمل، لهذا استوىٰ في الأجر هو صاحب العمل ـ كما صرح الحديث: «فهما في الأجر سواء»، وإنما سبب ذلك هو علمه ومعرفته، مما يدل علىٰ أهمية المعرفة في السلوك الأخلاقي، فلا فضيلة بلا معرفة، كما لا عبادة بلا علم.

والصنف الثالث: من أوتي مالًا، ولم يؤت علمًا، أي لم يؤت العلم النافع الذي يورث الخشية، وينير البصائر، ويحرك العزائم لفعل الخير، وإن كان صاحبه يحمل أرقىٰ الشهادات، فهذا أسوأ الناس منزلة، كما جاء في نص الحديث: «فهذا بأخبث المنازل»، وإنما نزل به إلىٰ هذا الدرك جهله وحرمانه من العلم، فلم يعلم الله في ماله حقا، ولم يصل فيه رحمه، ولم يحسن به إلىٰ غيره، ولم يتق فيه ربه، فكان ماله وغناه طريقا إلىٰ هلاكه، فلو عدمه لكان خيرا له، ولكنه للأسف، أعطي ما يتزود به للجنة، فكان زاده إلىٰ النار.

والصنف الرابع والأخير: من لم يؤت مالًا ولا علمًا، ولكنه لجهله وعمىٰ قلبه، عاش وفي نيته أن لو كان له مالا لأنفقه في الشهوات والمعاصي، مثل ذلك الغني الجاهل، فهو يليه في الرتبة، ويساويه في الوزر بنيته الجازمة:

«فوزرهما سواء»، وهذا هو الأحمق حقا، فقد خسر الآخرة، ولم يكسب الدنيا، بخبث نيته، وسوء قصده، وأشقىٰ الناس: من اجتمع عليه فقر الدنيا وعذاب الآخرة.

✍ **قال ابن القيم** معقبًا علىٰ الحديث: «فقسم السعداء قسمين، وجعل العلم والعمل بموجبه سبب سعادتهما، وقسم الأشقياء قسمين، وجعل الجهل وما يترتب عليه سبب شقاوتهما، فعادت السعادة بجملتها إلىٰ العلم وموجبه. والشقاوة بجملتها إلىٰ الجهل وثمرته».

العلم يثمر اليقين والمحبة:

* **ومن فضل العلم**: أنه يثمر اليقين، الذي به حياة القلب وطمأنينته، وبه مدح الله المتقين المهتدين بكتابه، حيث قال: ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٤﴾ [البقرة:٤]، وهم الذين فصل الله لهم الآيات، سواء أكانت آيات تنزيلية مسطورة، أم آيات تكوينية منظورة، يقول تعالىٰ: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٩٧﴾ [الأنعام:٩٧]، ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ٢﴾ [الرعد:٢]، ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ٤﴾ [الجاثية:٤].

* أثنىٰ الله علىٰ خليله إبراهيم بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ٧٥﴾ [الأنعام:٧٥].

* وذم من لا يقين عنده بقوله: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ٨٢﴾ [النمل:٨٢].

* ولقد جعل القرآن اليقين أحد عنصرين يرتقي الإنسان بهما إلىٰ الإمامة في الـدين، كمـا قـال تعـالىٰ: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤].

والإنسان إذا كان إيمانه ويقينه مزعزعا، ناوشته الشبهات من كل جانب، وعرضت له الشكوك عن يمين وشمال، وذلك لضعف علمه، وقلة بصيرته، فيغدو كالريشة في مهب الريح، لا تستقر علىٰ حال.

أما صاحب اليقين، فهو ـ لرسوخه في علمه، وقوة إيمانه ـ كالطود الراسي، لا يتزعزع ولا يتزلزل، ولا تؤثر فيه رياح الشكوك والشبهات، بل هو لو وردت عليه من الشبه بعدد أمواج البحر ـ كما قال ابن القيم ـ ما أزالت يقينه، ولا قدحت فيه شكا، لأنه قد رسخ في العلم، فلا تستفزه الشبهات، بل إذا وردت عليه ردها حرس العلم وجيشه مغلولة مغلوبة.

وإنما سميت الشبهة شبهة، لاشتباه الحق بالباطل فيها، فإنها تلبس ثوب الحق علىٰ جسم الباطل، وأكثر الناس أصحاب حسن ظاهر، فينظر الناظر فيما ألبسته من اللباس، فيعتقد صحتها، وأما صاحب العلم واليقين فإنه لا يغتر بذلك، بل يجاوز نظره إلىٰ باطنها، وما تحت لباسها، فينكشف له حقيقتها.

ومثال هذا: الدرهم الزائف، فإنه يغتر به الجاهل بالنقد، نظرا إلىٰ ما عليه من لباس الفضة، والناقد البصير يجاوز نظره إلىٰ ما وراء ذلك، فيطلع علىٰ زيفه، فاللفظ الحسن الفصيح هو للشبهة بمنزلة اللباس من الفضية علىٰ الدرهم الزائف، والمعنىٰ كالنحاس الذي تحته.

وإذا تأمل العاقل الفطن هذا القدر وتدبره، رأىٰ أكثر الناس يقبل المذهب والمقالة بلفظ، ويردها بعينها بلفظ آخر.. وكم رد من الحق بتشنيعه بلباس من اللفظ قبيح.

إن صاحب العلم واليقين، الذي رزقه الله البصيرة النافذة، والنور الكاشف، لا يلتبس عليه الحق بالباطل، ولا تروج عنده الشبهات، كما لا تغريه الشهوات، فهو مزود بسلاحين قويين يرد بهما جيوش الباطل، فهو يرد جيش الشهوات بسلاح الصبر، وجيش الشبهات بسلاح اليقين، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة:٢٤].

✍ **قال ابن القيم**: «وَالْيَقِين والمحبة هما ركنا الايمان، وعليهما ينبني، وبهما قوامه، وهما يمدان سائر الأعمال القلبية والبدنية، وعنهما تصدر، وبضعفهما يكون ضعف الأعمال، وبقوتهما قوتها، وجميع منازل السائرين، ومقامات العارفين، إنما تفتح بهما، وهما يثمران كل عمل صالح، وعلم نافع، وهدىٰ مستقيم. (١)

✍ **وَقَالَ الْجُنَيْدُ**: الْيَقِينُ هُوَ اسْتِقْرَارُ العِلْـمِ الَّذِي لَا يَنْقَلِبُ وَلَا يُحَوَّلُ، وَلَا يَتَغَيَّرُ فِي الْقَلْبِ.(٢)

✍ **وقال سهل**: حرام علىٰ قلب أن يشم رائحة اليقين، وفيه سكون إلىٰ

(١) مفتاح دار السعادة: (١/ ١٥٤).

(٢) مدارج السالكين: (٢/ ٣٧٥).

غير الله! (١)

وقيل: من علاماته النَّظَرُ إِلَىٰ اللهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ. وَالرُّجُوعُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ أَمْرٍ. وَالِاسْتِعَانَةُ بِهِ فِي كُلِّ حَالٍ.. (٢)

وقيل: إِذا اسْتكْمل العَبْد حَقِيقَة الْيَقِين صَار الْبلَاء عِنْده نعْمَة والمحنة منحة فالعلمُ أَوَّلُ دَرَجَات الْيَقِين وَلِهَذَا قيل الْعلم يستعملك وَالْيَقِين يحملك فاليقين أفضلُ مواهبِ الرَّبِّ لعَبْدِهِ وَلَا تثبت قَدم الرِّضَاء إلاَّ عَلَىٰ دَرَجَة الْيَقِين». (٣)

واليقين إنما هو علم راسخ في القلب لا يعتريه شك ولا وهم، وهو قابل للزيادة والترقي في علم اليقين، إلىٰ عين اليقين، ثم إلىٰ حق اليقين.

فأنت إذا أخبرك جماعة من الثقات بأن صديقك رجع من سفره، وهو قادم إليك، فخبرهم هذا يورث عندك علم يقين بقدومه. فإذا كلمك بالهاتف (التليفون) وقال: أنا قادم إليك، فقد أصبح عندك عين اليقين، فإذا قدم عليك بالفعل، وتلاقت الوجوه وتصافحت الأيدي، فهذا هو حق اليقين.

ومن هنا وجدنا خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام يسأل ربه أن يريه كيف يحيي الموتىٰ، لينتقل من علم اليقين إلىٰ عين اليقين، أو إلىٰ حق اليقين: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين: (ص: ٤٣٩).

(٢) مدارج السالكين: (٢/ ٣٧٥).

(٣) مفتاح دار السعادة: (١/ ١٥٥).

قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾ [البقرة:٢٦٠].

ولقد أسرىٰ الله بعبده محمد ﷺ من المسجد الحرام إلىٰ المسجد الأقصىٰ، ثم عرج به إلىٰ السموات العلا، ليريه من آياته، ويشهده من ملكوته ما آمن به يقينا من طريق الوحي، فيزداد يقينا مع يقين، كما قال تعالىٰ: ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء:١].

﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾ [النجم: ١١ – ١٨].

يؤكد ما ذكرناه: أن الله سبحانه وتعالىٰ خلق الخلق لعبادته، الجامعة لمحبته، وإيثار مرضاته، المستلزمة لمعرفته، ونصب للعباد علما لا كمال لهم إلا به، وهو أن تكون حركاتهم كلها موافقة مرضاته ومحبته. ولذلك أرسل رسله، وأنزل كتبه، وشرع شرائعه، فكمال العبد ـ الذي لا كمال له إلا به ـ أن تكون حركاته موافقة لما يحبه الله منه ويرضاه له. ولهذا جعل اتباع رسوله دليلا علىٰ محبته. قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران:٣١].

فالمحب الصادق يرىٰ خيانة منه لمحبوبه: أن يتحرك بحركة اختيارية في غير مرضاته، وإذا فعل فعلا مما أبيح له بموجب طبيعته وشهوته تاب منه،

كما يتوب من الذنب، ولا يزال هذا الأمر يقوىٰ عنده حتىٰ تنقلب مباحاته كلها طاعات، فيحتسب نومه وفطره وراحته، كما يحتسب قومته وصومه واجتهاده.

وهو دائمًا بين سراء يشكر الله عليها وضراء يصبر عليها، فهو سائر إلىٰ الله دائما في نومه ويقظته.

✍ **قال بعض العلماء**: الأكياس عاداتهم عبادات الحمقىٰ، والحمقىٰ عباداتهم عادات.(١)

✍ **وقال بعض السلف**: حبذا نوم الأكياس وفطرهم، يغبنون به سهر الحمقىٰ وصومهم، فالمحب الصادق إن نطق لله وبالله، وإن سكت سكت لله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فسكونه استعانة علىٰ مرضاة الله، فهو لله وبالله ومع الله. (٢)

ومعلوم أن صاحب هذا المقام أحوج خلق الله إلىٰ العلم، فإنه لا تتميز له الحركة المحبوبة لله من غيرها، ولا السكون المحبب له من غيره، إلا بالعلم، فليست حاجته إلىٰ العلم كحاجة من طلب العلم ذاته، ولأنه في نفسه صفة كمال، بل حاجته إليه كحاجته إلىٰ ما به قوام نفسه وذاته.

ولهذا اشتدت وصاة شيوخ العارفين لمريديهم بالعلم وطلبه، وأنه من لم يطلب العلم لم يفلح. حتىٰ كانوا يعدون من لا علم له من السفلة.

---

(١) مفتاح دار السعادة: (١/ ١٦٠).

(٢) مفتاح دار السعادة: (١/ ١٦٠).

✍ **قال ذو النون**، وقد سئل: من السفلة؟ فقال: من لا يعرف الطريق إلىٰ الله تعالىٰ ولا يتعرفه! (١)

✍ **وقال أبو يزيد**: لو نظرتم إلىٰ الرجل، وقد أعطي من الكرامات حتىٰ يتربع في الهواء، فلا تغتروا به، حتىٰ تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود ومعرفة الشريعة. (٢)

✍ **وقال أبو حمزة البزاز**: من علم طريق الحق سهل عليه سلوكه، ولا دليل علىٰ الطريق إلا متابعة الرسول في أقواله وأفعاله وأحواله. (٣)

✍ **وقال محمد بن الفضل الصوفي الزاهد**: ذهاب الإسلام علىٰ أيدي أربعة أصناف من الناس: صنف لا يعملون بما يعلمون، وصنف يعملون بما لا يعلمون، وصنف لا يعملون ولا يعلمون، وصنف يمنعون الناس من التعلم. (٤)

قلت: (القائل ابن القيم):

الصنف الأول: من له علم بلا عمل، فهو أضر شيء علىٰ العامة، فإنه حجة لهم في كل نقيصة ومنحسة.

والصنف الثاني: العابد الجاهل، فإن الناس يحسنون الظن به لعبادته

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة: (١/ ١٦٠).

(٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة: (١/ ١٦٠).

(٣) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة: (١/ ١٦٠).

(٤) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة: (١/ ١٦٠).

وصلاحه، فيتقدون به علىٰ جهله، وهذان الصنفان هما اللذان ذكرهما بعض السلف في قوله: احذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون! فإن الناس إنما يقتدون بعلمائهم وعبادهم، فإذا كان العلماء فجرة، والعباد جهلة، عمت المصيبة بهما، وعظمت الفتنة علىٰ الخاصة والعامة.

والصنف الثالث: الذين لا علم لهم ولا عمل، وإنما هم كالأنعام السائمة.

والصنف الرابع: نواب إبليس في الأرض، وهم الذين يثبطون الناس عن طلب العلم والتفقه في الدين، فهؤلاء أضر عليهم من شياطين الجن، فإنهم يحولون بين القلوب وبين هدىٰ الله وطريقه. (١)

فهؤلاء الأربعة أصناف هم الذين ذكرهم هذا العارف رحمة الله عليه، وهؤلاء كلهم علىٰ شفا جرف هار، وعلىٰ سبيل الهلكة، وما يلقىٰ العالم الداعي إلىٰ الله ورسوله ما يلقاه من الأذىٰ والمحاربة إلا علىٰ أيديهم، والله يستعمل من يشاء في سخطه، كما يستعمل من يحب في مرضاته، إنه بعباده خبير بصير. ولا ينكشف سر هذه الطوائف وطريقتهم إلا بالعلم، فعاد الخير بحذافيره إلىٰ العلم بموجبه، والشر بحذافيره إلىٰ الجهل بموجبه».(٢)

وبعد أن تكلمنا عن العلم وفضله لا يفوتنا أن نقف مع أمر اهتم به السلف الصالح فمنهم من كتب فيه مستقلًا كالإمام الآجري لمّا كتب أخلاق

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة: (١/ ١٦٠)

(٢) الحياة الربانية والعلم: (ص: ١٧٧)

العلماء، وابن عبد البر له كتاب جامع بيان العلم وفضله، والخطيب البغدادي له كتاب الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع.

ومنهم من صدّر به بعض كتبه كما فعل الإمام النووي في مقدمة المجموع فإذا كانت هذه عنايةَ أهل العلم بآداب طالب العلم(١) فلا يجوز لنا ونحن نتكلم عن العلم أن نغفل هذا الجانب الخطير وهو أخلاق وآداب طالب العلم لنذكر أنفسنا أولا ثم نذكر إخواننا طلبة العلم.

ذم التعالم والتحذير من القول على الله بغير علم:

قال الله تعالىٰ: ﴿ **فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ** ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الأنعام:١٤٤]، وقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حَتَّىٰ إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**».(٢)

إن التعالم الكاذب هو عتبة الدخول علىٰ جريمة القول علىٰ الله بغير علم، المحرمة لذاتها تحريمًا أبديًّا في جميع الشرائع، وهذا مما علم من الدين بالضرورة، وهو مما حَذَّرَناه رسول الله - ﷺ - أشد التحذير.

* فعن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله - ﷺ

(١) لقد تكلمت عن آداب طالب العلم في كتابي: (الكليم يسأل والكريم يجيب) فراجعه هناك.

(٢) صحيح البخاري: (١٠٠).

-: «**يظهر الإسلام حتىٰ تختلف التجار في البحر، وحتىٰ تخوض الخيل في سبيل الله، ثم يظهر قوم يقرأون القرآن، يقولون: من أقرأ منا؟ من أعلم منا؟ من أفقه منا؟**» ثم قال - ﷺ - لأصحابه: «**هل في أولئك من خير؟**» قالوا: «الله ورسوله أعلم»، قال: «**أولئك منكم من هذه الأمة، وأولئك هم وقود النار**». (١)

* وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله - ﷺ -: أنه قام ليلة بمكة من الليل، فقال: «**اللهم هل بَلَّغت؟**» ثلاث مرات، فقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه - وكان أَوَّاهًا (٢) - فقال: «اللهم نعم، وحَرَّضتَ، وجَهَدْتَ، ونصحتَ»، فقال - ﷺ -: «**ليَظهرنَّ الإيمان حتىٰ يُرَدَّ الكفر إلىٰ مواطنه، ولَتُخَاضَنَّ البحار بالإسلام، ولَيأتين علىٰ الناس زمان يتعلمون فيه القرآن، يتعلمونه ويقرءونه، ثم يقولون: قد قرأنا وعلمنا، فمن ذا الذي هو خير منا؟ فهل في أولئك من خير؟**» قالوا: «يا رسول الله، من أولئك؟» قال: «**أولئك منكم، وأولئك هم وقود النار**». (٣)

* وعن عبد الله وأبي موسىٰ رضي الله عنهما قالا: قال - ﷺ -: «**إن بين يدي الساعة لأيامًا ينزل فيها الجهل، ويُرْفَع فيها العلم، ويكثر فيها الهرج**» (٤) الحديث.

(١) قال المنذري: (رواه الطبراني في «الأوسط»، والبزار بإسناد لا بأس به) كما في «الترغيب» (١/ ١٢٩ - ١٣٠)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (١/ ٥٨).
(٢) الأواه: المتأوه المتضرع، وقيل: الكثير البكاء، وقيل: الكثير الدعاء.
(٣) قال المنذري: (رواه الطبراني في «الكبير» وإسناده حسن إن شاء الله تعالىٰ). اهـ (١/ ١٣٠)، وحسن الألباني في «صحيح الترغيب» (١/ ٥٨).
(٤) رواه البخاري (١٣/ ١٣).

* وعن أنس رضي الله عنه قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «**من أشراط الساعة أن يقل العلم، ويظهر الجهل**». (١)

✍ **قال بعض الفضلاء**: «وجدت جميع العلوم في ازدياد إلا علم الدين، فعلمت أنه المقصود في الحديث».

وصدق رحمه الله؛

فها هو العلم في زماننا قد استدبر. وها هو البغاث بأرضنا قد استنسر. (٢)

قد أعْوَزَ الماءُ الطهُور وما بقي ... غيرُ التيممِ لو يَطيب صعيدُ

✍ **ذكر أبو عمر عن مالك قال**: أخبرني رجل أنه دخل علىٰ ربيعة فوجده يبكي، فقال: «ما يبكيك؟ أمصيبة دخلت عليك؟»، وارتاع لبكائه، فقال: «لا، ولكن اسُتفتي من لا علم له، وظهر في الإسلام أمر عظيم»، قال ربيعة: «ولَبعض من يفتي ها هنا أحق بالحبس من السُرَّاق». (٣)

وأفضح ما يكون للمرء: دعواه بما لا يقوم به، وقد عاب العلماء ذلك قديمًا وحديثًا:

✍ **قال الإمام ابن حزم** رحمه الله: «لا آفة علىٰ العلوم وأهلها أضرّ من الدُخَلاء فيها، وهم من غير أهلها، فإنهم يجهلون، ويظنون أنهم يعلمون، ويُفسدون، ويقدرون أنهم يُصلحون».

---

(١) رواه البخاري (١/ ١٧٨).

(٢) البُغاث: طائر أغبر، واستنسر: صار عزيزًا كالنسر بعد أن كان من ضعاف الطير.

(٣) بدائع الفوائد (٣/ ٢٧٧).

✍ **وقال الإمام ابن الجوزي** رحمه الله: «يلزم ولي الأمر منعهم -أي من الفتيا- كما فعل بنو أمية» إلىٰ أن قال: «وإذا تعيَّن علىٰ ولي الأمر منعُ من لم يُحسن التطبيب ومداواة المرضىٰ، فكيف بمن لم يعرف الكتاب والسنة، ولم يتفقه في الدين؟!». (١)

✍ **وقال الخطيب البغدادي** رحمه الله: «ينبغي للإمام أن يتصفح أحوال المفتين، فمن صلح للفتيا أقرَّه، ومن لا يصلح منعه، ونهاه أن يعود، وتواعده بالعقوبة إن عاد». (٢)

✍ **وقال الإمام المحقق ابن قيم الجوزية** رحمه الله: «من أقرهم من ولاة الأمور؛ فهو آثم». (٣)

✍ **وكان شيخ الإسلام ابن تيمية** رحمه الله يرىٰ أنه ينبغي أن يكون علىٰ المفتين محتسب، وقال: «يكون علىٰ الخبازين والطباخين محتسب، ولا يكون علىٰ الفتوىٰ محتسب؟!». (٤)

✍ **وقال الإمام الماوردي** رحمه الله: «وإذا وجد - المحتسب- من يتصدىٰ لعلم الشرع وليس من أهله من فقيه أو واعظ، ولم يأمن اغترار الناس به في سوء تأويل أو تحريف أنكر عليه التصدي لما هو ليس من أهله، وأظهر أمره

---

(١) إعلام الموقعين «(٤/ ٢٧٦).

(٢) المجموع شرح المهذب (١/ ٧٣).

(٣) إعلام الموقعين (٤/ ٢٧٦).

(٤) السابق (٤/ ٢٧٧).

لئلا يُغترَّ به» (١) اهـ.

فينبغي لمن تصدىٰ للتعليم والإفتاء أن يكون أهلًا لذلك، وإلا فهو خائن للأمانة، ينطبق عليه قول رسول الله - ﷺ -: «**إِذا ضيِّعت الأمانة، فانتظر الساعة**»، قيل: «كيف إضاعتها؟» قال: «**إِذا أُسند الأمر إِلىٰ غير أهله فانتظر الساعة**». (٢)

✍ **قال ابن الحاج** رحمه الله في كتابه «المدخل» بعد أن حكىٰ من حال بعض المنتسبين إلىٰ العلم ما لا يليق بهم: ولهذا المعنىٰ كان سيدي أبو محمد -ابنُ أبي جمرة - رحمه الله إذا ذُكِر له واحد من علماء وقته ممن يُنسَب إلىٰ طَرَف مما ذُكِر، ويُثْنَىٰ عليه إذ ذاك بفضيلة العلم، يقول: «ناقل، ناقل» خوفا منه -رحمه الله- علىٰ منصب العلم أن يُنسب إلىٰ غير أهله، وخوفًا من أن يكون ذلك كذبا أيضًا، لأن الناقل ليس بعالم في الحقيقة، وإنما هو صانع من الصناع، كالخياط والحداد والقصار... (٣) اهـ. وعن معاوية بن عمرو بن المهلب الأزدي قال: كان زائدة لا يحدِّث أحدًا حتىٰ يمتحنه، فإن كان غريبًا قال له:

«من أين أنت؟»، فإن كان من أهل البلد، قال: «أين مصلاك؟»، ويسأل كما يسألُ القاضي عن البينة.

فإذا قال له، سأل عنه، فإن كان صاحب بدعة، قال: «لا تعودنَّ إلىٰ هذا المجلس»، فإن بلغه عنه خير أدناه وحدثه، فقيل له: «يا أبا الصلت، لم تفعل

(١) الأحكام السلطانية ص (٢٤٨).
(٢) البخاري: (٦٤٩٦).
(٣) المدخل (١/ ١٧).

هذا؟» قال: «أكره أن يكون العلم عنده، فيصيروا أئمة يُحتاج إليهم، فيبدِّلوا كيف شاءوا»).(١)

وقال مغيرة: «إني لأحتسب في منعي الحديث، كما يحتسبون في بذله».

من العالم؟

العالم هو: من يخشىٰ الله ﷻ، ويعمل بمقتضىٰ علمه.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «ليس العلم عن كثرة الحديث، إنما العلم خشية الله» (٢)، وعنه رضي الله عنه قال: «كونوا للعلم رُعاةً، ولا تكونوا له رواة؛ فإنه قد يرْعَوي ولا يَروي، وقد يروي ولا يرعوي». (٣)

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «لا تكون تقيًّا حتىٰ تكون عالمًا، ولا تكون بالعلم جميلًا حتىٰ تكون به عاملًا». (٤)

وعن الحسن قال: «العالم: الذي وافق علمَه عملُه، ومن خالف علمَه عملُه فذلك راويةُ حديث، سمع شيئًا فقاله». (٥)

---

(١) المحدث الفاصل للرامهرمزي ص (٨٠٣).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» (١٨٥)، وأبو داود في «الزهد» رقم (١٨٢)، والطبراني في «الكبير» رقم (٨٥٣٤).

(٣) رواه ابن عيد البر في «الجامع» (١٢٣٨).

(٤) رواه الدارمي في «السنن» (١/ ٨٨).

(٥) رواه ابن عبد البر في «الجامع» رقم (١٢٤١)

✍ **وعنه** -رحمه الله- قال: «الذي يفوق الناسَ في العلم جدير أن يفوقهم في العمل» (١)، وعنه في قوله تعالىٰ: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ [الأنعام:٩١] قال: «عُلِّمتم فعلِمْتُم ولم تعملوا، فوالله ما ذالكم بعلم». (٢)

✍ **وعن سفيان الثوري قال**: «العلم يهتف بالعمل، فإن أجابه؛ وإلا ارتحل» (٣)،

✍ **وعنه** رحمه الله قال: «العلماء إذا علموا عملوا، فإذا عملوا شُغلوا، فإذا شُغلوا فُقدوا، فإذا فُقدوا طلبوا، فإذا طُلبوا هربوا». (٤)

وقد ختم الله كثيرًا من الآيات الداعية إلىٰ الفضائل بقوله تعالىٰ: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾ [البقرة:١٨٤]، ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾ [نوح:٤] إشارة إلىٰ أن العلم باعث علىٰ العمل بها، ومثله قوله - صلى الله عليه وسلم -: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا**» الحديث. (٥)

ويُعرف العالم:

- **بجده في طلب العلم**، واجتهاده في التفقه في الدين، والتلقي عن المشايخ وملازمتهم زمنًا طويلًا معتبرًا، قال إبراهيم بن الأشعث: «إذا

---

(١) السابق رقم (١٢٧٠).

(٢) السابق رقم (١٢٧٣).

(٣) السابق رقم (١٢٧٤).

(٤) السابق رقم (١٢٤٩).

(٥) رواه البخاري (٨/ ٢١٠ - ٢١١)، ومسلم رقم (٢٣٥٩).

وجدتم الرجل معروفًا بشدة الطلب، ومجالسة الرجال؛ فاكتبوا عنه». (١)

- **بشيوخه؛** من هم، وكيف هم؟ ثم بشهادتهم له، أو إجازتهم إياه. قال الإمام مالك ﵀: لا ينبغي للرجل يرىٰ نفسه أهلًا لشيء حتىٰ يسأل من كان أعلم منه، وما أفتيت حتىٰ سألت ربيعة ويحيىٰ بن سعيد فأمراني بذلك، ولو نهياني لانتهيت (٢)، وقال أيضًا: ليس كل من أحب أن يجلس في المسجد للتحديث والفتيا جلس، حتىٰ يشاور فيه أهل الصلاح والفضل، وأهل الجهة من المسجد، فإن رأوه أهلًا لذلك جلس، وما جلست حتىٰ شهد لي سبعون شيخًا من أهل العلم أني موضع لذلك (٣)اهـ.

- **باستقامته علىٰ منهج أهل السنة والجماعة**، وهدي السلف الصالح، وبراءته من البدع الضالة.

- **بآثاره من الإنتاج العلمي والتصنيف**، والدروس والفتاوىٰ، وكذا تلاميذه.

- **بتميزه بالعبادة والتنسك والتورع والخشوع**، والمروءة ومحاسن الأخلاق.

- **برسوخ قدمه في مواطن الشبهات حين تضل الأفهام**، وتتزلزل الأقدام، قال الإمام ابن القيم: إن الراسخ في العلم لو وردت عليه من الشبه بعدد أمواج البحر؛ ما أزالت يقينه، ولا قدحت فيه شكًا، لأنه قد رسخ في العلم فلا

---

(١) الرحلة في طلب الحديث ص (٩١).

(٢) انظر: «حلية الأولياء» (٦/ ٣١٦)، و «الفقيه والمتفقه» (٢/ ١٥٤).

(٣) «الديباج المذهَّب في علماء المذهب» لابن فرحون ص (٢١).

تستفزه الشبهات، بل إذا وردت عليه ردَّها حرسُ العلم مغلولة مغلوبة(١)اهـ.

- **بمواقفه العلمية والعملية**، وثباته في الفتن والابتلاءات، وأخذه بحظ وافر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومعايشته لأحوال مصره، وتفاعله مع أحداث عصره، فهؤلاء العلماء المحتسبون الذين وصفهم الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد بأنهم:

لم يتخلفوا في كهوف «القَعَدة» الذين صرفوا وجوههم عن آلام أمتهم، وقالوا: «هذا مغتسل بارد وشراب»، وكأنما عناهم -أي القعدة- شوقي بقوله:

وقد يموت كثير لا تُحِسَّهُم ... كأنهم من هوان الخطب ما وُجدوا

بل نزلوا ميدان الكفاح، وساحة التبصير بالدين) اهـ.

- **بأن يوضع له القبول في الأرض**: فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «**إن الله إذا أحب عبدًا دعا جبريل، فقال: «إني أحب فلانًا فأحِبَّه»**، قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء، فيقول: «**إن الله يحب فلانًا فأحبوه**»، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبولُ في الأرض» (٢) الحديث.

* وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: مَروا بجنازة فأثنوا عليها خيرًا، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: «**وجبت**»، ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شرًّا، فقال:

---

(١) مفتاح دار السعادة: (١/ ١٤٠).

(٢) رواه البخاري (١٣/ ٤٦١) في التوحيد، ومسلم رقم (٢٦٣٧)، والترمذي رقم (٣١٦٠)، وزاد: فذلك قول الله: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا} [مريم: ٩٦].

«**وجبت**»، فقال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: ما وجبت؟ قال: «**هذا أثنيتم عليه خيرًا، فوجبت له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شرًّا، فوجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض**» (١)، وفي رواية: «**المؤمنون شهداء الله في الأرض**»(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:.. ومن له في الأمة لسانُ صدق عام بحيث يُثْنَىٰ عليه، ويُحمد في جماهير أجناس الأمة، فهؤلاء أئمة الهدىٰ، ومصابيح الدجىٰ(٣) اهـ.

حتى لا يشتبه العلماء بغيرهم:

لقد أفرز الواقع الأليم - الذي أطلَّت فيه الفتن برأسها، وشهرت العلمانية سيفها، وغُيِّب فيه كثير من العلماء الربانيين، وحيل بينهم وبين الشباب- ظاهرة جديرة بالحذر، وهي بروز طائفة من الشباب المتحمسين للذبِّ عن دينهم، ونشر سنة نبيهم - صلى الله عليه وسلم -، وتأدية فرض الكفاية بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإحياء الدعوة إلىٰ الله، وتجديد شباب الإسلام.

وقد أثمرت جهودهم بالفعل ثمارًا مباركة لا ينكرها إلا جاحد، منها:

- التصدي لشبهات الزنادقة والمنافقين وسائر أعداء الدين.

- انتعاش مهمة «البلاغ العام» بدعوة عموم المسلمين من خلال

---

(١) رواه البخاري (٣/ ١٨١)، ومسلم رقم (٩٤٩)، وأحمد (٣/ ١٧٩)، والترمذي رقم (١٠٥٨)، والنسائي (٤/ ٤٩ - ٥٠).

(٢) رواه البخاري (٥/ ١٨٥).

(٣) مجموع الفتاوىٰ (١١/ ٤٣).

الخطابة، والمحاضرات وغيرها.

- تذكير الفاسقين بالله، وحثهم علىٰ التوبة إليه ﷿، وضمهم إلىٰ صفوف المستقيمين.

- إحياء العلم الشرعي، وازدهار حلق العلم، وتنشيط الحركة العلمية الإسلامية.

- الرد علىٰ أهل البدع المنحرفين عن منهج السلف الصالح.

- تناول القضايا الواقعية التي تمس واقع الحياة من حولهم بطريقة مباشرة من خلال المنظور الإسلامي.

إن من الظلم البين أن يوصف هؤلاء الدعاة بالتمرد والعقوق لأهل العلم، لأنهم سدوا ثغرات كثير من الفروض الكفائية، ورفعوا كثيرًا من الحرج عن سائر الأمة:

أقلوا عليهم -لا أبا لأبيكم من اللوم... أو سُدّوا المكان الذي سَدُّوا

وكثير منهم نشأ في مواقع نضب فيها العلم، وغاب العلماء، لا أنهم وجدوا العلماء فزهدوا في الجثو بين أيديهم، والنَّهَل من علمهم، فلسان حالهم يخاطب العلماء:

لا تظنوا بنا العقوق ولكن... أرشدونا إن ضللنا الرشادا

فكان من الطبيعي والمتوقع أن يتلبسوا -خلال الممارسة الدعوية- بأخطاء نتيجة عدم تدرجهم في سُلَّم التعلم والتفقه، بل التأدب بكثير مما مرّ ذكره، فظهرت نتوءات شاذة في فكر وسلوك بعضهم تحتاج إلىٰ أن يعالجها

العلماء بالتهذيب والإصلاح، من أخطرها:

- انتزاع حقوق ليست لهم في الحقيقة كحق الفُتْيا، بل الاستبداد بها في بعض الأحيان، بل محاكمة العلماء والجرأة عليهم كما مرّ ذكره، والاستغناء عن الاستهداء باجتهادهم في قضايا محورية.

وزاد الطين بلة أنهم خُدعوا بالتفاف الجماهير حولهم، فتصرفوا «كمراكز قوىٰ» تضغط علىٰ العلماء، وتستمد مصداقيتها من الواقع المفروض لا من المؤهلات الشرعية المعتبرة.

وهذا الواقع هو الذي يُحْوِجنا الآن إلىٰ ضبط الأمور، وإعادة ترتيبها، وإعطاء كل ذي حقٍ حقه، وذلك: بدعوة الجميع إلىٰ ضرورة التفريق بين «العالم» الحقيقي، وبين كل من: طالب العلم، والناقل، والداعية، والواعظ، والعابد، والخطيب، والقارئ، والمثقف، والمفكر، والمجاهد... إلخ.

فلكلٍ وجهة هو موليها، ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة:١٤٨]، دون أن يتسوَّر غير العالم علىٰ العلم، ودون أن ينازع الأمر أهله، ودون أن يحقر من فُتح عليه في باب من أبواب البر مَن فُتح عليه في غيره، علىٰ أن يبقىٰ «العلم» هو الحَكَم، فيكون أسعد المذكورين حظًّا أشدهم التحامًا بالعلم والعلماء، وبذلك نوفِّي حاجة الأمة إلىٰ تجارب الشيوخ وعلومهم، وطاقة الشباب وجهودهم. (١)

✍ **قال الحافظ ابن عبد البَر في** «التمهيد»: هَذَا كَتَبْتُهُ مِنْ حِفْظِي، وَغَابَ

---

(١) الإعلام بحرمة أهل العلم والإسلام: (ص: ٤٠٢).

عَنِّي أَصْلِي: إِنَّ عَبْدَ اللهِ العُمَرِيَّ العَابِدَ كَتَبَ إِلَىٰ مَالِكٍ يَحُضُّهُ عَلَىٰ الانْفِرَادِ وَالعَمَلِ. فَكَتَبَ إِلَيْهِ مَالِكٌ: إِنَّ اللهَ قَسَمَ الأَعْمَالَ كَمَا قَسَمَ الأَرْزَاقَ، فَرُبَّ رَجُلٍ فُتِحَ لَهُ فِي الصَّلاَةِ، وَلَمْ يُفتَحْ لَهُ فِي الصَّوْمِ، وَآخَرَ فُتِحَ لَهُ فِي الصَّدَقَةِ وَلَمْ يُفتَحْ لَهُ فِي الصَّوْمِ، وَآخَرَ فُتِحَ لَهُ فِي الجِهَادِ. فَنَشْرُ العِلْمِ مِنْ أَفْضَلِ أَعْمَالِ البِرِّ، وَقَدْ رَضِيْتُ بِمَا فُتِحَ لِي فِيْهِ، وَمَا أَظُنُّ مَا أَنَا فِيْهِ بِدُوْنِ مَا أَنْتَ فِيْهِ، وَأَرْجُو أَنْ يَكُوْنَ كِلاَنَا عَلَىٰ خَيْرٍ وَبِرٍّ». (١)

من فوائد (العلم):

- به يعرف الله ويعبد ويوحّد.
- هو أساس صحّة الاعتقادات والعبادات.
- طلب العلم عبادة.
- هو طريق الوصول إلىٰ الجنّة.
- يكسب صاحبه الخشية لله.
- يكسب صاحبه التّواضع للخلق.
- ينتفع به صاحبه وينتفع به غيره ممّن علّمه
- يبقىٰ أجره بعد انقطاع أجل صاحبه.
- يورث صاحبه أعلىٰ المراتب بعد الأنبياء.

(١) نقله الذهبي في «السير» (٨/ ١١٤).نقلًا عن الإعلام بحرمة أهل العلم والإسلام (ص: ٤٠٣).

- يرفع الوضيع ويعزّ الذّليل ويجبر الكسير.

- هو دليل حبّ الخير للآخرين لحرص صاحبه علىٰ إخراج النّاس من ظلمات الجهل إلىٰ نور العلم.

؀



المبحث الثالث
الرباني ثابت

لقد وصف الله سبحانه وتعالىٰ الربانيين بالثبات فقال تعالىٰ: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ﴾ [آل عمران:١٤٦].

فالرباني لا ييأس، والرباني لا يقنط، والرباني لا يتراجع، والرباني واثقٌ بالله ثابت علىٰ دين الله.

وفي الصفحات التالية لنا وقفات مع الثبات، ونسأل الله تعالىٰ أن نكون من الثابتين علىٰ منهج الله.

الثبات لغة:

مصدر ثبت، وهو مأخوذ من مادّة (ث ب ت) الّتي تدلّ علىٰ دوام الشّيء يقال ثبت ثباتًا وثبوتًا (أي دام واستقرّ) فهو ثابت ويقال رجل ثبت وثبيت أي متثبّت في الأمور، وقال الرّاغب: الثّبات ضدّ الزّوال ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ ﴾ [الأنفال:٤٥] ويقال ذلك للموجود (الثّابت) بالبصر أو البصيرة فيقال: فلان ثابت عندي، ونبوّة المصطفىٰ ﷺ ثابتة، والإثبات والتّثبيت يقالان تارة بالفعل لما يخرج من العدم إلىٰ الوجود نحو أثبت الله كذا، وتارة لما يثبت بالحكم نحو أثبت

الحاكم علىٰ فلان كذا. وثبّته وتارة لما يكون بالقول مثل أثبت التّوحيد وصدق النّبوّة، وقول الله تعالىٰ ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ [الأنفال:٣٠] أي ليثبّطوك ويحيّروك، وقال الجوهريّ معناه ليجرحوك جراحة لا تقوم معها، ويقال تثبّت الرّجل في الأمر، واستثبت بمعنىٰ (واحد) هو التّأنّي وعدم العجلة.

ورجل ثبت أي ثابت القلب، قال الشّاعر:

ثبت إذا ما صيح بالقوم وقر

ويقال أيضًا: فلان ثبت الغدر إذا كان لا يزلّ لسانه عند الخصومات، أمّا قولهم رجل ثبت فمعناه أنّه متثبّت في الأمور، ويقال رجل ثبت الجنان أي ثابت القلب، ورجل له ثبت عند الحملة أي ثبات، وتقول أيضًا لا أحكم بكذا إلّا بثبت أي بحجّة، ويطلق الثّبت كذلك علىٰ الرّجل إذا كان عدلا ضابطا والجمع منه أثبات، والثّبت: الثّابت العقل، تقول منه: ثبت (بالضّمّ) أي صار ثبيتا. (١)

الثّبات اصطلاحًا:

الثّبات هو عدم احتمال الزّوال بتشكيك المشكّك، والثّابت هو الموجود الّذي لا يزول بتشكيك المشكّك، والإثبات عند القرّاء ضدّ الحذف. (٢)

---

(١) انظر مقاييس اللغة (١/ ٣٩٩)، والمفردات للراغب (٧٨) بإيجاز وتصرف يسير، والصحاح (١/ ٢٤٥)، ولسان العرب (٤٦٧) وما بعدها.

(٢) كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي: (١/ ٢٦٤).

حديث القرآن عن «الثبات»:

* قال تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩ – ٢٥١].

* وقال تعالىٰ: ﴿وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ [البقرة:٢٦٥].

* وقال تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [آل عمران:١٤٧].

* وقال تعالىٰ: ﴿وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ﴿١١﴾﴾ [الأنفال:١١].

* وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال:٤٥].

* وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴿٧﴾﴾ [محمد:٧].

* وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران:١٧٣].

حديث السنة عن الثبات:

* عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي صَلَاتِهِ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَىٰ الرُّشْدِ، وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ، وَحُسْنَ عِبَادَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا، وَلِسَانًا صَادِقًا، وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا تَعْلَمُ**». (١)

* وعن النّوّاس بن سمعان الكلابيّ - رضي الله عنه - أنّه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، إِنْ شَاءَ أَقَامَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَزَاغَهُ**» وَكانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**يَا مُثَبِّتَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَىٰ دِينِكَ. قَالَ: وَالْمِيزَانُ بِيَدِ الرَّحْمَنِ، يَرْفَعُ أَقْوَامًا وَيَخْفِضُ آخَرِينَ، إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ**». (٢)

* وعَنِ البَرَاءِ رضي الله عنه، قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَوْمَ الأَحْزَابِ يَنْقُلُ التُّرَابَ، وَقَدْ وَارَىٰ التُّرَابُ بَيَاضَ بَطْنِهِ، وَهُوَ يَقُولُ: «**لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا، وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا، فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا، وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا، إِنَّ الأُلَىٰ قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا**». (٣)

---

(١) النسائي (٣/ ٥٤) وهذا لفظه. والترمذي (٣٤٠٧). وأحمد- المسند ٤/ ١٢٥، وللحديث طريق أخرىٰ رواها الطبراني (٧١٣٥) رجالها ثقات سوىٰ محمد بن يزيد الذي وثقه ابن حبان، وذكره الهيثمي عن البراء بن عازب، مجمع الزوائد ١٠/ ١٧٣، والحديث بذلك له طرق عديدة يتقوّىٰ بها.

(٢) ابن ماجه: (١٩٩)، وقال في الزوائد: إسناده صحيح.

(٣) صحيح البخاري: (٢٨٣٧).

* وعن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - أنّه قال: أَوْصَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ بِعَشْرِ كَلِمَاتٍ قَالَ: «**لَا تُشْرِكْ بِاللهِ شَيْئًا وَإِنْ قُتِلْتَ وَحُرِّقْتَ، وَلَا تَعُقَّنَّ وَالِدَيْكَ، وَإِنْ أَمَرَاكَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ، وَلَا تَتْرُكَنَّ صَلَاةً مَكْتُوبَةً مُتَعَمِّدًا؛ فَإِنَّ مَنْ تَرَكَ صَلَاةً مَكْتُوبَةً مُتَعَمِّدًا فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ اللهِ، وَلَا تَشْرَبَنَّ خَمْرًا؛ فَإِنَّهُ رَأْسُ كُلِّ فَاحِشَةٍ، وَإِيَّاكَ وَالْمَعْصِيَةَ؛ فَإِنَّ بِالْمَعْصِيَةِ حَلَّ سَخَطُ اللهِ ﷻ، وَإِيَّاكَ وَالْفِرَارَ مِنَ الزَّحْفِ وَإِنْ هَلَكَ النَّاسُ، وَإِذَا أَصَابَ النَّاسَ مُوتَانٌ**[1] **وَأَنْتَ فِيهِمْ فَاثْبُتْ، وَأَنْفِقْ عَلَىٰ عِيَالِكَ مِنْ طَوْلِكَ، وَلَا تَرْفَعْ عَنْهُمْ عَصَاكَ أَدَبًا وَأَخِفْهُمْ فِي اللهِ**».[2]

* وعَنْ أَبِي النَّضْرِ، عَنْ كِتَابِ رَجُلٍ مِنْ أَسْلَمَ، مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يُقَالُ لَهُ: عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أَوْفَىٰ، فَكَتَبَ إِلَىٰ عُمَرَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ حِينَ سَارَ إِلَىٰ الْحَرُورِيَّةِ، يُخْبِرُهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ فِي بَعْضِ أَيَّامِهِ الَّتِي لَقِيَ فِيهَا الْعَدُوَّ، يَنْتَظِرُ حَتَّىٰ إِذَا مَالَتِ الشَّمْسُ قَامَ فِيهِمْ، فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَاسْأَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ**»، ثُمَّ قَامَ النَّبِيُّ ﷺ، وَقَالَ: «**اللهُمَّ، مُنْزِلَ الْكِتَابِ، وَمُجْرِيَ السَّحَابِ، وَهَازِمَ الْأَحْزَابِ، اهْزِمْهُمْ، وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ**».[3]

* ولفظه عند الدّارميّ من حديث ابن عمرو: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَاسْأَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ، فَإِنْ لَقِيتُمُوهُمْ، فَاثْبُتُوا، وَأَكْثِرُوا ذِكْرَ**

---

(١) الموت، والموتان- محركة- ضد الحياة.

(٢) مسند أحمد: (٢٢٠٧٥).

(٣) مسلم: (١٧٤٢).

اللهِ، فَإِنْ أَجْلَبُوا وَضَجُّوا، فَعَلَيْكُمْ بِالصَّمْتِ». (١)

وسائل الثبات على دين الله:

١ - الاعتصام بكتاب الله:

إن القرآن أعظم مثبِّت يقول الله ﷻ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان:٣٢] فهو مثبت لفؤاد النبي ﷺ، ومثبت لفؤاد كل مسلم من بعده إلىٰ يوم القيامة، ويقول تعالىٰ: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الزخرف:٤٣ - ٤٤] فاعتصم بالقرآن والله ﷻ يحميك من الضلال، و اعتصم بالقرآن تثبت علىٰ الإيمان حتىٰ تلقىٰ الله تبارك وتعالىٰ.

والاعتصام بكتاب الله يكون بالتالي:

أولًا: تلاوةً، **ثانيًا:** تدبرًا، **ثالثًا:** عملًا وتطبيقًا.

٢ - الدعاء:

من أعظم وسائل تثبيت الإيمان في القلب الدعاء، يحافظ الإنسان علىٰ ورد ثابت من الدعاء يخلو فيه بربه، ويكثر من دعاء الله ﷻ، خاصة الأدعية التي فيها سؤال التثبيت علىٰ الدين، فالدعاء من أنفع الأسباب في حصول

---

(١) سنن الدارمي: (٢٤٨٤)، وأصل الحديث عند البخاري رقم (٢٩٦٦) ومسلم رقم: (١٧٤٢).

هذه الثمرات، كمثل قوله تبارك وتعالىٰ حين علمنا: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ [آل عمران:٨]، ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾ [البقرة:٢٥٠].

وكان ﷺ يكثر من الدعاء: يا مقلب القلوب! ثبت قلبي علىٰ دينك.

* عَنْ أَنَسٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «**يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَىٰ دِينِكَ**»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ: «**نَعَمْ، إِنَّ القُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ**».(١)

٣ - قراءة قصص الأنبياء وأخذ العبرة من القصص القرآني:

يقول الله ﷻ: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [هود:١٢٠]، ويقول الله ﷻ: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [يوسف:١١١]، ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾ [يوسف:١١١] يعني: ما كانت روايات كاذبة، وقال: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [يوسف:٣] فهذا القصص القرآني يجب أن نقرأه باعتبار وبتدبر وبتأمل ويجب أن نأخذ منه الفائدة حتىٰ نثبت علىٰ دين الله تبارك وتعالىٰ.

٤ - ممارسة الدعوة إلى الله تعالى:

كذلك من أعظم وسائل زيادة الإيمان والثبات عليه أن تمارس الدعوة

---

(١) سنن الترمذي: (٢١٤٠)، صحيح الجامع: (٣٠٨١).

إلىٰ الله تبارك وتعالىٰ، ولا تقصر في ذلك، فإن الارتباط بالدعوة وسيلة من وسائل تثبيت الإيمان وزيادته باستمرار، فتحمد الله ﷻ أنه لم يخلقك جمادًا ولا خشبة ولا شجرة ولا حيوانًا بهيميًا، وإنما كرمك وجعلك إنسانًا، ثم بعد ذلك كرمك بأن جعلك مسلمًا وامتن عليك بأعظم نعمة وهي نعمة الإسلام، وليس هذا فحسب، بل إنه عصمك من البدع والضلالات التي اشتهر بها بعض المسلمين، ودلك علىٰ طريق أهل السنة والجماعة، ثم جعلك داعيًا إلىٰ الله تبارك وتعالىٰ، فتستحضر هذه النعمة وتشكر الله حتىٰ يعينك بالثبات عليها.

٥ - الثقة بنصر الله تعالى:

كذلك من هذه الأسباب أن تكون واثقًا بنصر الله، وأن المستقبل للإسلام، كان النبي ﷺ إذا شكا له أصحابه ما يعانون من أعداء الله يثبتهم بأن المستقبل للإسلام، وهذا في أشد أوقات المحنة، كما يقول خباب بن الأرت ﷺ: شَكَوْنَا إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الكَعْبَةِ فَقُلْنَا: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلَا تَدْعُو لَنَا؟ فَقَالَ: «**قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ، يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَىٰ رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ، مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرُ، حَتَّىٰ يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَىٰ حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ، وَالذِّئْبَ عَلَىٰ غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ**»[١]، فلابد من تبشير الناس باستمرار بأن الإسلام سوف يصل إلىٰ كل ما طلعت عليه الشمس كما

---

(١) صحيح البخاري: (٦٩٤٣).

أخبرنا بذلك النبي ﷺ، ولا شك أن هذا التبشير وتلاوة هذه النصوص تثبت الناس خصوصًا في وقت المحن والغربة وتزيل وحشة هذه الغربة، ولقد بشر النبي ﷺ أن القسطنطينية ستفتح، وأن روما أيضًا ستفتح، ووقعت البشارة الأولىٰ بعد ما يزيد علىٰ سبعمائة سنة من نطق النبي ﷺ بها، أما الثانية – وهي فتح روما– فهي حادثة بلا شك في ذلك: ﴿ وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ﴿٨٨﴾ ﴾ [ص:٨٨]، وقال تبارك وتعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [التوبة:٣٣].

٦ - الثقة بالطريق التي يسلكها العبد:

كذلك من هذه الوسائل أن تكون واثقًا من الطريق الذي تسلكه، وأن تعرف أنك لست وحدك في هذا الطريق، فقد سلكه من قبلك أُناس كثيرون منهم الأنبياء والرسل والصالحون والعلماء، لا في الأمة المحمدية فقط ولكن في كل الأمم، فإن في كل أمة من الزمان فرقة ناجية وفيها فرق ضالة ﴿ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ ﴾ [آل عمران:١١٣] إلىٰ آخر الآيات، أن تستشعر أن الله ﷻ من عليك واصطفاك بأن وفقك ودلك علىٰ هذا الطريق: ﴿ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ ﴾ [فاطر:٣٢].

٧ - استحضار الغاية التي من أجلها خلقنا:

كذلك من هذه الأسباب استحضار الهدف، ما هو الهدف؟ الجنة هي الهدف، فلا تطلب الالتزام بالدين لأن تنال الراحة في الدنيا، ولا تطلب الدنيا نفسها، فالصحابة لما بايعوا النبي عليه الصلاة والسلام ما بايعهم علىٰ أن

يقسم عليهم المناصب، أنت ستكون وزيرًا، وأنت رئيس وزراء، وأنت سنعطيك كذا.

كان الثمن الجنة، بايعوه على أن يبنوا له هذا الدين ويكون الثمن الجنة، قالوا: (وما لنا إن نحن فعلنا ذلك؟ قال: الجنة قالوا: ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل.[1])، لن نطلب منك أن ترفض هذا العهد، ولن نقبل منك إذا طلبت أن نقيلك، فربح البيع.

٨ - عدم الاغترار بما عليه الكفار:

كذلك من هذه الأسباب أن الإنسان لا يغتر بما عليه الكفار: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ١٩٦﴾ [آل عمران:١٩٦]، لا يغتر بما عليه الكفار من الزينة والبغي في الأرض والعلو فيها، ينبغي أن يستحضر دائمًا أن العاقبة للتقوىٰ وللمتقين ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الرعد:١٧].

٩ - مجالسة الصالحين:

كذلك من هذه الأسباب أن تبحث عمن يعينك علىٰ هذا الطريق وهذا

---

(١) والقصة كما ذكرها ابن كثير في تفسيره أن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه قال لرسول الله ﷺ - يعني ليلة العقبة -: اشترط لربك ولنفسك ما شئت. فقال: «أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم». قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ قال: «**الجنة**». قالوا: ربح البيع، لا نقيل ولا نستقيل. فنزلت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ﴾ [التوبة:١١١] الآية. وانظر تفسير ابن جرير: (٧/ ٣٥ - ٣٦).

الدين وتستمسك بغرزه، عن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ: كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ؛ فَحَامِلُ الْمِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً؛ وَنَافِخُ الْكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً**» (١).

* وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**الرَّجُلُ عَلَىٰ دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**» (٢).

قال الشاعر:

عَنِ المرْءِ لَا تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ ... فَكُلُّ قَرِينٍ بِالمُقَارَنِ يَقْتَدِي

والإنسان مجبول علىٰ التأثر بصاحبه وجليسه، والأرواح جنود مجندة؛ روىٰ البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ**» (٣)، وتألفها هو ما خلقها الله عليه من السعادة أو الشقاوة في المبتدأ، وكانت الأرواح قسمين متقابلين، فإذا تلاقت الأجساد في الدنيا ائتلفت واختلفت بحسب ما خلقت عليه، فيميل الأخيار إلىٰ الأخيار، والأشرار إلىٰ الأشرار (٤)، فابحث عن أهل الخير، وتمسك بهم والتف حولهم.

---

(١) صحيح مسلم: (٢٦٢٨).
(٢) سنن أبي داود: (٤٨٣٣)، وحسنه الألباني في الصحيحة: (٩٢٧).
(٣) صحيح مسلم: (٢٦٣٨).
(٤) عون المعبود شرح سنن أبي داود: (١٣/ ١٢٤).

١٠ - الحرص على وصية الرجل الصالح:

كذلك من هذه الأسباب الحرص علىٰ وصية الرجل الصالح حتىٰ تنتفع بها وقت المحنة:

وها هو الإمام أحمد يساق إلىٰ المأمون مقيدًا بالأغلال، وقد توعده وعيدًا شديدًا قبل أن يصل إليه حتىٰ قال خادمه: يَعِزُّ عَلَيَّ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ أَنَّ الْمَأْمُونُ قَدْ سَلَّ سَيْفًا لَمْ يَسُلَّهُ قَبْلَ ذَلِكَ، وَأَنَّهُ يُقْسِمُ بِقَرَابَتِهِ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَئِنْ لَمْ تُجِبْهُ إِلَىٰ الْقَوْلِ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ لَيَقْتُلَنَّكَ بِذَلِكَ السَّيْفِ.(١)

وهنا يأتي الصالحون، أهل البصيرة لينتهزوا الفرصة ليلقوا بالوصايا التي تثبت في المواقف الحرجة.

* **ففي السير**: أن أبا جعفر الأنباري قال: لَمَّا حُمِلَ أَحْمَدُ إِلَىٰ المَأْمُوْنِ، أُخبرتُ، فَعَبَرْتُ الفُرَاتَ، فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ فِي الخَانِ، فَسَلَّمتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: يَا أَبَا جَعْفَرٍ، تَعَنَّيْتَ.

فَقُلْتُ: يَا هَذَا، أَنْتَ اليَوْمَ رَأْسٌ، وَالنَّاسُ يَقتدُوْنَ بِكَ، فَوَ اللهِ لَئِنْ أَجبتَ إِلَىٰ خَلقِ القُرْآنِ، لَيُجِيْبَنَّ خَلقٌ، وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تُجِبْ، لَيَمْتَنِعَنَّ خَلْقٌ مِنَ النَّاسِ كَثِيْرٌ، وَمَعَ هَذَا فَإِنَّ الرَّجُلَ إِنْ لَمْ يَقْتُلْكَ فَإِنَّك تَمُوتُ، لَابُدَّ مِنَ المَوْتِ، فَاتَّقِ اللهَ وَلَا تُجِبْ.

فَجَعَلَ أَحْمَدُ يَبْكِي، وَيَقُوْلُ: مَا شَاءَ اللهُ.

ثُمَّ قَالَ: يَا أَبَا جَعْفَرٍ، أَعِدْ عَلَيَّ.

---

(١) البداية والنهاية: (١٠/ ٣٦٦).

فَأَعَدْتُ عَلَيْهِ، وَهُوَ يَقُوْلُ: مَا شَاءَ اللهُ. (١)

✍ **وقَالَ صَالِحُ بنُ أَحْمَدَ:** حُمِلَ أَبِي وَمُحَمَّدُ بنُ نُوْحٍ مِنْ بَغْدَادَ مُقَيَّدَيْنِ، فَصِرنَا مَعَهُمَا إِلَىٰ الأَنْبَارِ.

فَسَأَلَ أَبُو بَكْرٍ الأَحْوَلُ أَبِي: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، إِنْ عُرِضتَ عَلَىٰ السَّيْفِ، تُجيبُ؟

قَالَ: لاَ.

ثُمَّ سُيِّرَا، فَسَمِعْتُ أَبِي يَقُوْلُ: صِرنَا إِلَىٰ الرَّحْبَةِ (٢)، وَرَحَلنَا مِنْهَا فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، فعَرَضَ لَنَا رَجُلٌ، فَقَالَ: أَيُّكُم أَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ؟

فَقِيْلَ لَهُ: هَذَا.

فَقَالَ لِلْجمَّالِ: عَلَىٰ رِسْلكَ.

ثُمَّ قَالَ: يَا هَذَا، مَا عَلَيْكَ أَنْ تُقتلَ هَا هُنَا، وَتَدْخُلَ الجَنَّةَ؟

ثُمَّ قَالَ: أَسْتودِعُكَ اللهَ، وَمَضَىٰ.

فَسَأَلْتُ عَنْهُ، فَقِيْلَ لِي: هَذَا رَجُلٌ مِن العَرَبِ مِنْ رَبِيْعَةَ يَعْمَلُ الشَّعْرَ فِي البَادِيَةِ، يُقَالُ لَهُ: جَابِرُ بنُ عَامِرٍ، يُذكَرُ بِخَيْرٍ. (٣)

- واعترضه أعرابي يُقَالُ لَهُ جَابِرُ بْنُ عَامِرٍ، فَسَلَّمَ عَلَىٰ الإِمَامِ أَحْمَدَ وَقَالَ

---

(١) سير أعلام النبلاء: (١١/ ٢٣٩).

(٢) وهي رحبة مالك بن طوق، تقع بين الرقة وبغداد، علىٰ شاطئ الفرات، تبعد عن بغداد مئة فرسخ، وعن الرقة نيفا وعشرين فرسخا.

(٣) سير أعلام النبلاء: (١١/ ٢٤١).

لَهُ: يَا هَذَا إِنَّكَ وَافِدُ النَّاسِ فلا تكن شؤما عَلَيْهِمْ، وَإِنَّكَ رَأْسُ النَّاسِ الْيَوْمَ فَإِيَّاكَ أَنْ تجيبهم إلىٰ ما يدعونك إليه فيجيبوا، فتحمل أوزارهم يوم القيامة، وَإِنْ كُنْتَ تُحِبُّ اللهَ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أنت فيه، فإنه مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إِلَّا أَنْ تُقْتَلَ، وَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تُقْتَلْ تَمُتْ، وَإِنْ عِشْتَ عشتَ حميدًا.(١)

✍ **ويقول الإمام أحمد**: ما سمعتُ كلمة منذ وقعت في هذا الأمر أقوىٰ من كلمة أعرابيّ كلَّمني بها في رَحْبة طَوْق، قال: يا أحمد، إن يَقْتُلُكَ الحقُّ مُتَّ شَهِيدًا، وإن عشْتَ عشتَ حميدًا. فقوي قلبي.(٢)

فعلىٰ الإنسان أن يحرص علىٰ طلب الوصية من الصالحين ومن أهل العلم والصلاح حتىٰ ينتفع بها خصوصًا في وقت المحن إذا خشي أن يقع منه تفريط في دينه أثناء الابتلاء.

١١ - كثرة ذكر الموت:

كذلك كثرة ذكر الموت من أعظم ما يعين علىٰ ذلك، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هَادِمِ اللَّذَّاتِ، فَمَا ذَكَرَهُ عَبْدٌ قَطُّ وَهُوَ فِي ضِيقٍ إِلَّا وَسَّعَهُ عَلَيْهِ، وَلَا ذَكَرَهُ وَهُوَ فِي سَعَةٍ إِلَّا ضَيَّقَهُ عَلَيْهِ**».(٣)

---

(١) البداية والنهاية: (١٠/ ٣٣٢).

(٢) تاريخ الإسلام: (١٨/ ٩٨).

(٣) مسند الشهاب القضاعي: (٦٦٨).

مواقف في الثبات على الدين والتضحية لأجله:

- **ثبات رسول الله ﷺ:**

* عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، قَالَ: سَمِعْتُ الْبَرَاءَ، وَسَأَلَهُ رَجُلٌ مِنْ قَيْسٍ، أَفَرَرْتُمْ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ؟ فَقَالَ الْبَرَاءُ: وَلَكِنْ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَمْ يَفِرَّ، وَكَانَتْ هَوَازِنُ يَوْمَئِذٍ رُمَاةً، وَإِنَّا لَمَّا حَمَلْنَا عَلَيْهِم انْكَشَفُوا، فَأَكْبَبْنَا عَلَىٰ الْغَنَائِمِ، فَاسْتَقْبَلُونَا بِالسِّهَامِ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَىٰ بَغْلَتِهِ الْبَيْضَاءِ، وَإِنَّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ الْحَارِثِ آخِذٌ بِلِجَامِهَا، وَهُوَ يَقُولُ: «**أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ**». (١)

- **ثبات أبي بكر رضي الله عنه:**

* وعن عائشة - رضي الله عنها - قَالَتْ: لَمْ أَعْقِلْ أَبَوَيَّ قَطُّ إِلَّا وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ، وَلَمْ يَمُرَّ عَلَيْنَا يَوْمٌ إِلَّا يَأْتِينَا فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ طَرَفَيِ النَّهَارِ، بُكْرَةً وَعَشِيَّةً، فَلَمَّا ابْتُلِيَ الْمُسْلِمُونَ، خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مُهَاجِرًا قِبَلَ الحَبَشَةِ، حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَرْكَ الغِمَادِ لَقِيَهُ ابْنُ الدَّغِنَةِ، وَهُوَ سَيِّدُ القَارَةِ، فَقَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ يَا أَبَا بَكْرٍ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَخْرَجَنِي قَوْمِي، فَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَسِيحَ فِي الأَرْضِ، فَأَعْبُدَ رَبِّي، قَالَ ابْنُ الدَّغِنَةِ: إِنَّ مِثْلَكَ لَا يَخْرُجُ وَلَا يُخْرَجُ، فَإِنَّكَ تَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَىٰ نَوَائِبِ الحَقِّ، وَأَنَا لَكَ جَارٌ، فَارْجِعْ فَاعْبُدْ رَبَّكَ بِبِلَادِكَ، فَارْتَحَلَ ابْنُ الدَّغِنَةِ، فَرَجَعَ مَعَ أَبِي بَكْرٍ، فَطَافَ فِي أَشْرَافِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ لَا يَخْرُجُ مِثْلُهُ وَلَا يُخْرَجُ،

---

(١) البخاري: (٤٣١٥)، ومسلم (١٧٧٦) واللفظ له.

أَتُخْرِجُونَ رَجُلًا يُكْسِبُ المَعْدُومَ، وَيَصِلُ الرَّحِمَ، وَيَحْمِلُ الكَلَّ، وَيَقْرِي الضَّيْفَ، وَيُعِينُ عَلَىٰ نَوَائِبِ الحَقِّ، فَأَنْفَذَتْ قُرَيْشٌ جِوَارَ ابْنِ الدَّغِنَةِ، وَآمَنُوا أَبَا بَكْرٍ، وَقَالُوا لِابْنِ الدَّغِنَةِ: مُرْ أَبَا بَكْرٍ، فَلْيَعْبُدْ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، فَلْيُصَلِّ، وَلْيَقْرَأْ مَا شَاءَ، وَلَا يُؤْذِينَا بِذَلِكَ، وَلَا يَسْتَعْلِنْ بِهِ، فَإِنَّا قَدْ خَشِينَا أَنْ يَفْتِنَ أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا، قَالَ ذَلِكَ ابْنُ الدَّغِنَةِ لِأَبِي بَكْرٍ، فَطَفِقَ أَبُو بَكْرٍ يَعْبُدُ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، وَلَا يَسْتَعْلِنُ بِالصَّلَاةِ، وَلَا القِرَاءَةِ فِي غَيْرِ دَارِهِ، ثُمَّ بَدَا لِأَبِي بَكْرٍ، فَابْتَنَىٰ مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ وَبَرَزَ، فَكَانَ يُصَلِّي فِيهِ، وَيَقْرَأُ القُرْآنَ، فَيَتَقَصَّفُ عَلَيْهِ نِسَاءُ المُشْرِكِينَ وَأَبْنَاؤُهُمْ، يَعْجَبُونَ وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلًا بَكَّاءً، لَا يَمْلِكُ دَمْعَهُ حِينَ يَقْرَأُ القُرْآنَ، فَأَفْزَعَ ذَلِكَ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ مِنَ المُشْرِكِينَ، فَأَرْسَلُوا إِلَىٰ ابْنِ الدَّغِنَةِ، فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ فَقَالُوا لَهُ: إِنَّا كُنَّا أَجَرْنَا أَبَا بَكْرٍ عَلَىٰ أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، وَإِنَّهُ جَاوَزَ ذَلِكَ، فَابْتَنَىٰ مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ، وَأَعْلَنَ الصَّلَاةَ وَالقِرَاءَةَ، وَقَدْ خَشِينَا أَنْ يَفْتِنَ أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا، فَأْتِهِ، فَإِنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَىٰ أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ فَعَلَ، وَإِنْ أَبَىٰ إِلَّا أَنْ يُعْلِنَ ذَلِكَ، فَسَلْهُ أَنْ يَرُدَّ إِلَيْكَ ذِمَّتَكَ، فَإِنَّا كَرِهْنَا أَنْ نُخْفِرَكَ، وَلَسْنَا مُقِرِّينَ لِأَبِي بَكْرٍ الِاسْتِعْلَانَ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَأَتَىٰ ابْنُ الدَّغِنَةِ أَبَا بَكْرٍ، فَقَالَ: قَدْ عَلِمْتَ الَّذِي عَقَدْتُ لَكَ عَلَيْهِ، فَإِمَّا أَنْ تَقْتَصِرَ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَإِمَّا أَنْ تَرُدَّ إِلَيَّ ذِمَّتِي، فَإِنِّي لَا أُحِبُّ أَنْ تَسْمَعَ العَرَبُ، أَنِّي أُخْفِرْتُ فِي رَجُلٍ عَقَدْتُ لَهُ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنِّي أَرُدُّ إِلَيْكَ جِوَارَكَ، وَأَرْضَىٰ بِجِوَارِ اللهِ[1]، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ بِمَكَّةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قَدْ أُرِيتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ، رَأَيْتُ سَبْخَةً ذَاتَ نَخْلٍ بَيْنَ لَابَتَيْنِ**»، وَهُمَا الحَرَّتَانِ، فَهَاجَرَ مَنْ

(١) وانظر إلىٰ ثباته رضي الله عنه، وتأمل قوله: إِنِّي أَرُدُّ إِلَيْكَ جِوَارَكَ، وَأَرْضَىٰ بِجِوَارِ اللهِ.

هَاجَرَ قِبَلَ المَدِينَةِ حِينَ ذَكَرَ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَرَجَعَ إِلَىٰ المَدِينَةِ بَعْضُ مَنْ كَانَ هَاجَرَ إِلَىٰ أَرْضِ الحَبَشَةِ، وَتَجَهَّزَ أَبُو بَكْرٍ مُهَاجِرًا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**عَلَىٰ رِسْلِكَ، فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُؤْذَنَ لِي**»، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: هَلْ تَرْجُو ذَلِكَ بِأَبِي أَنْتَ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**»، فَحَبَسَ أَبُو بَكْرٍ نَفْسَهُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِيَصْحَبَهُ، وَعَلَفَ رَاحِلَتَيْنِ كَانَتَا عِنْدَهُ وَرَقَ السَّمُرِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ. (١)

• وصية الرسول ﷺ للأنصار بالثبات:

* وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قَالَ: قَالَ نَاسٌ مِنَ الأَنْصَارِ، حِينَ أَفَاءَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﷺ مَا أَفَاءَ مِنْ أَمْوَالِ هَوَازِنَ، فَطَفِقَ النَّبِيُّ ﷺ يُعْطِي رِجَالًا المِائَةَ مِنَ الإِبِلِ، فَقَالُوا: يَغْفِرُ اللهُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ يُعْطِي قُرَيْشًا وَيَتْرُكُنَا، وَسُيُوفُنَا تَقْطُرُ مِنْ دِمَائِهِمْ، قَالَ أَنَسٌ: فَحُدِّثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَقَالَتِهِمْ، فَأَرْسَلَ إِلَىٰ الأَنْصَارِ فَجَمَعَهُمْ فِي قُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ، وَلَمْ يَدْعُ مَعَهُمْ غَيْرَهُمْ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا قَامَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «**مَا حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكُمْ**»، فَقَالَ فُقَهَاءُ الأَنْصَارِ: أَمَّا رُؤَسَاؤُنَا يَا رَسُولَ اللهِ فَلَمْ يَقُولُوا شَيْئًا، وَأَمَّا نَاسٌ مِنَّا حَدِيثَةٌ أَسْنَانُهُمْ فَقَالُوا: يَغْفِرُ اللهُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ يُعْطِي قُرَيْشًا وَيَتْرُكُنَا، وَسُيُوفُنَا تَقْطُرُ مِنْ دِمَائِهِمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**فَإِنِّي أُعْطِي رِجَالًا حَدِيثِي عَهْدٍ بِكُفْرٍ أَتَأَلَّفُهُمْ، أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالأَمْوَالِ، وَتَذْهَبُونَ بِالنَّبِيِّ ﷺ إِلَىٰ رِحَالِكُمْ، فَوَاللهِ لَمَا تَنْقَلِبُونَ بِهِ خَيْرٌ مِمَّا يَنْقَلِبُونَ بِهِ**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ قَدْ رَضِينَا، فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: «**سَتَجِدُونَ أُثْرَةً شَدِيدَةً (٢)، فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ تَلْقَوُا اللهَ وَرَسُولَهُ ﷺ**

---

(١) البخاري: (٢٢٩٧).

(٢) أثرة شديدة: فيها لغتان ضم الهمزة وإسكان الثاء وأصحهما وأشهرهما بفتحهما =

فَإِنِّي عَلَىٰ الحَوْضِ» قَالَ أَنَسٌ: «فَلَمْ يَصْبِرُوا». (١)

• **ثبات المِقْدَادِ بْنِ الأَسْوَدِ:**

* وعن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه - أنّه قال: شَهِدْتُ مِنَ المِقْدَادِ بْنِ الأَسْوَدِ مَشْهَدًا، لَأَنْ أَكُونَ صَاحِبَهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا عُدِلَ بِهِ، أَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَدْعُو عَلَىٰ المُشْرِكِينَ، فَقَالَ: لَا نَقُولُ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَىٰ: اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا، وَلَكِنَّا نُقَاتِلُ عَنْ يَمِينِكَ، وَعَنْ شِمَالِكَ، وَبَيْنَ يَدَيْكَ وَخَلْفَكَ «فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَشْرَقَ وَجْهُهُ وَسَرَّهُ» يَعْنِي: قَوْلَهُ. (٢)

• **ثبات أنس بن النضر:**

قَالَ أَنَسُ بن مالك رضي الله عنه: «عَمِّي الَّذِي سُمِّيتُ بِهِ لَمْ يَشْهَدْ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَدْرًا»، قَالَ: «فَشَقَّ عَلَيْهِ، قَالَ: أَوَّلُ مَشْهَدٍ شَهِدَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ غُيِّبْتُ عَنْهُ، وَإِنْ أَرَانِيَ اللهُ مَشْهَدًا فِيمَا بَعْدُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيَرَانِي اللهُ مَا أَصْنَعُ،» قَالَ: «فَهَابَ أَنْ يَقُولَ غَيْرَهَا»، قَالَ: «فَشَهِدَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ»، قَالَ: فَاسْتَقْبَلَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، فَقَالَ لَهُ أَنَسٌ: يَا أَبَا عَمْرٍو، أَيْنَ؟ فَقَالَ: وَاهًا لِرِيحِ الْجَنَّةِ أَجِدُهُ دُونَ أُحُدٍ، قَالَ: «فَقَاتَلَهُمْ حَتَّىٰ قُتِلَ»، قَالَ: «فَوُجِدَ فِي جَسَدِهِ بِضْعٌ وَثَمَانُونَ مِنْ بَيْنِ ضَرْبَةٍ وَطَعْنَةٍ وَرَمْيَةٍ»، قَالَ: «فَقَالَتْ أُخْتُهُ - عَمَّتِي الرُّبَيِّعُ بِنْتُ النَّضْرِ - فَمَا عَرَفْتُ أَخِي إِلَّا بِبَنَانِهِ، وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ:

= جميعًا والأثرة الاستئثار بالمشترك، أي يستأثر عليكم ويفضل عليكم غيركم بغير حق.

(١) صحيح البخاري: (٤٣٣١) واللفظ له، ومسلم (١٠٥٩).

(٢) البخاري- الفتح ٧ (٣٩٥٢).

﴿ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلًا ﴾ [الأحزاب:٢٣]»، قَالَ: «فَكَانُوا يُرَوْنَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَصْحَابِهِ».(١)

- **قصة خباب في طريق الثبات:**

* رُوِيَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَشَرَةَ رَهْطٍ عَيْنًا، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَاصِمَ بْنَ ثَابِتٍ مِنْ بَنِي الْأَفْلَحِ جَدَّ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه، فَانْطَلَقُوا حَتَّىٰ إِذَا كَانُوا بِالْهَدْأَةِ بَيْنَ عُسْفَانَ وَمَكَّةَ ذُكِرُوا لِحَيٍّ مِنْ هُذَيْلٍ يُقَالُ لَهُمْ: بَنُو لَحْيَانَ، فَنَفَرُوا إِلَيْهِمْ بِقَرِيبٍ مِنْ مِائَةِ رَجُلٍ رَامٍ فَاقْتَصُّوا آثَارَهُمْ، فَلَمَّا أَحَسَّ بِهِمْ عَاصِمٌ وَأَصْحَابُهُ لَجَأُوا إِلَىٰ فَدْفَدٍ، فَأَحَاطَ بِهِمُ الْقَوْمُ وَقَالُوا لَهُمْ: انْزِلُوا، وَأَعْطُونَا أَيْدِيَكُمْ، وَلَكُمُ الْعَهْدُ وَالْمِيثَاقُ أَنْ لَا نَقْتُلَ مِنْكُمْ أَحَدًا، فَقَالَ عَاصِمٌ أَمِيرُ الْقَوْمِ: وَاللهِ لَمَا أَنْزِلُ فِي ذِمَّةِ كَافِرٍ، اللَّهُمَّ أَخْبِرْ عَنَّا نَبِيَّكَ، فَرَمَوْهُ بِالنَّبْلِ فَقَتَلُوا عَاصِمًا فِي سَبْعَةٍ، وَنَزَلَ إِلَيْهِمْ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ عَلَىٰ الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ مِنْهُمْ خُبَيْبٌ، وَزَيْدُ بْنُ الدَّثْنَةَ، وَرَجُلٌ آخَرَ، فَلَمَّا اسْتَمْكَنُوا مِنْهُمْ أَطْلَقُوا أَوْتَارَ قِسِيِّهِمْ فَرَبَطُوهُمْ بِهَا، فَقَالَ الرَّجُلُ الثَّالِثُ: هَذَا أَوَّلُ الْغَدْرِ، وَاللهِ لَا أَصْحَبُكُمْ، إِنَّ لِي بِهَؤُلَاءِ أُسْوَةً يُرِيدُ الْقَتْلَىٰ فَعَالَجُوهُ، فَأَبَىٰ أَنْ يَصْحَبَهُمْ فَقَتَلُوهُ، وَانْطَلَقُوا بِخُبَيْبٍ، وَزَيْدٍ، وَبَاعُوهُمَا بِمَكَّةَ، وَذَلِكَ بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ، فَابْتَاعَ بَنُو الْحَارِثِ بْنِ عَامِرِ بْنِ نَوْفَلٍ خُبَيْبًا، وَكَانَ خُبَيْبٌ قَتَلَ الْحَارِثَ بْنَ عَامِرٍ يَوْمَ بَدْرٍ، فَلَبِثَ خُبَيْبٌ عِنْدَهُمْ أَسِيرًا.... (٢)

---

(١) مسلم: (١٩٠٣).

(٢) سير السلف الصالحين لإسماعيل بن محمد الأصبهاني: (ص: ٣٩٧: ٣٩٩).

أسلم خبيب قلبه، وأمره، ومصيره لله رب العالمين، وأقبل علىٰ نسكه ثابت النفس، رابط الجأش، معه من سكينة الله التي أفاءها عليه ما يذيب الصخر، ويلاشي الهول. كان الله معه.. وكان هو مع الله..

دخلت عليه يومًا إحدىٰ بنات الحارث الذي كان أسيرًا في داره، فغادرت مكانه مسرعة إلىٰ الناس تناديهم لكي يبصروا عجبًا..

«والله لقد رأيته يحمل قطفا كبيرا من عنب يأكل منه..

وانه لموثق في الحديد.. وما بمكة كلها ثمرة عنب واحدة..

ما أظنه الا رزقا رزقه الله خبيبا»..!!

أجل آتاه الله عبده الصالح، كما آتىٰ من قبل مريم بنت عمران، يوم كانت: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران:٣٧]، وحمل المشركون إلىٰ خبيب نبأ مصرع زميله وأخيه زيد رضي الله عنه، ظانين أنهم بهذا يسحقون أعصابه، ويذيقونه ضعف الممات وما كانوا يعلمون أن الله الرحيم قد استضافه، وأنزل عليه سكينته ورحمته.

وراحوا يساومونه علىٰ إيمانه، ويلوحون له بالنجاة إذا ما هو كفر بمحمد، ومن قبل بربه الذي آمن به.. لكنهم كانوا كمن يحاول اقتناص الشمس برمية نبل..!!

أجل، كان إيمان خبيب كالشمس قوة، وبعدًا، ونارًا ونورًا..

كان يضيء كل من التمس منه الضوء، ويدفئ كل من التمس منه الدفء،

أمَّا الذي يقترب منه ويتحدّاه فإنه يحرقه ويسحقه..

وإذا يئسوا مما يرجون، قادوا البطل إلىٰ مصيره، وخرجوا به إلىٰ مكان يسمىٰ التنعيم حيث يكون هناك مصرعه..

وما أن بلغوه حتىٰ استأذنهم خبيب في أن يصلي ركعتين، وأذنوا له ظانين أنه قد يجري مع نفسه حديثا ينتهي باستسلامه وإعلان الكفران بالله وبرسوله وبدينه..

وصلىٰ خبيب ركعتين في خشوع وسلام وإخبات...

وتدفقت في روحه حلاوة الايمان، فودّ لو يظل يصلي، ويصلي ويصلي..

ولكنه التفت صوب قاتليه وقال لهم: «والله لا تحسبوا أن بي جزعًا من الموت، لازددت صلاة»..!!

ثم شهر ذراعه نحو السماء وقال: «اللهم احصهم عددًا.. واقتلهم بددًا»..

ثم تصفح وجوههم في عزم وراح ينشد:

لَقَدْ جَمَّعَ الْأَحْزَابُ حَوْلِي وَأَلَّبُوا...قَبَائِلَهُمْ وَاستَجْمَعُوا كُلَّ مَجْمَعِ

وَقَدْ جَمَعُوا أَبْنَاءَهُمْ وَنِسَاءَهمْ...وَقُرِّبْتُ مِنْ جِذْعٍ طَوِيلٍ مُمَنَّعِ

إِلَىٰ اللهِ أَشْكُو كُرْبَتِي بَعْدَ غُرْبَتِي...وَمَا جَمَعَ الْأَحْزَابُ لِي حَوْلَ مَصْرَعِي

فَذَا الْعَرْشِ صَبِّرْنِي عَلَىٰ مَا يُرَادُ بِي...فَقَدْ بَضَّعُوا لَحْمِي وَقَدْ يَاسَ مَطْمَعِي

وَقَدْ خَيَّرُونِي الْكُفْرَ وَالْمَوْتُ دُونَهُ...وَقَدْ ذَرَفَتْ عَيْنَايَ مِنْ غَيْرِ مَجْزَعِ

وَمَا بِي حِذَارُ الْمَوْتِ إِنِّي لَمَيِّتٌ...وَلَكِنْ حِذَارِي جَحْمُ نَارٍ مُلَفَّعِ

وَلَسْتُ أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا...عَلَىٰ أَيِّ جَنْبٍ كَانَ فِي اللهِ مَضْجَعِي

وَذَلِـكَ فِـي ذَاتِ الْإِلَـهِ وَإِنْ يَشَـأْ.. يُبَـارِكْ عَلَـىٰ أَوْصَـالِ شِـلْوٍ مُمَـزَّعِ

ولعلـه لأول مـرة في تـاريخ العـرب يصـلبون رجـلًا ثـم يقتلونـه فـوق الصليب..

ولقد أعدّوا من جذوع النخل صليبًا كبيرًا أثبتوا فوقه خبيبًا.. وشدّوا فوق أطرافه وثاقه.. واحتشد المشركون في شماتة ظاهرة.. ووقف الرماة يشحذون رماحهم.

وجرت هذه الوحشية كلها في بطء مقصود أمام البطل المصلوب..!!

لم يغمض عينيه، ولم تزايل السكينة العجيبة المضيئة وجهه.

وبدأت الرماح تنوشه، والسيوف تنهش لحمه.

وهنا اقترب منه أحد زعماء قريش وقال له: «أتحب أن محمدًا مكانك، وأنت سليم معافىٰ في أهلك»..؟؟

وهنا لا غير انتفض خبيب كالإعصار وصاح، في قاتليه: «والله ما أحبّ أني في أهلي وولدي، معي عافية الدنيا ونعيمها، ويصاب رسول الله بشوكة»..(١)

• **ثبات صهيب الرومي:**

- وعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ، قَالَ: «لَمَّا أَقْبَلَ صُهَيْبٌ مُهَاجِرًا نَحْوَ النَّبِيِّ ﷺ، فَاتَّبَعَهُ نَفَرٌ مِنْ قُرَيْشٍ نَزَلَ عَنْ رَاحِلَتِهِ وَانْتَثَلَ مَا فِي كِنَانَتِهِ ثُمَّ قَالَ: يَا

(١) رجال حول الرسول: (ص: ٢٧٦: ٢٧٧). بتصرف.

مَعْشَرَ قُرَيْشٍ لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي مِنْ أَرْمَاكُمْ رَجُلًا، وَايْمُ اللهِ لَا تَصِلُونَ إِلَيَّ حَتَّىٰ أَرْمِيَ بِكُلِّ سَهْمٍ مَعِي فِي كِنَانَتِي، ثُمَّ أَضْرِبُ بِسَيْفِي مَا بَقِيَ فِي يَدِي مِنْهُ شَيْءٌ، افْعَلُوا مَا شِئْتُمْ، دَلَلْتُكُمْ عَلَىٰ مَالِي وَثِيَابِي بِمَكَّةَ وَخَلَّيْتُمْ سَبِيلِي، قَالُوا: نَعَمْ، فَلَمَّا قَدِمَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ قَالَ: «رَبِحَ الْبَيْعُ أَبَا يَحْيَىٰ رَبِحَ الْبَيْعُ أَبَا يَحْيَىٰ»، قَالَ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾ [البقرة:٢٠٧]. (١)

✍ **وقال محمد بن إسحاق:** كان أمية بن خلف يخرج بلالًا - رضي الله عنه - إذا حميت الظهيرة، فيطرحه علىٰ ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة، فتوضع علىٰ صدره، ثم يقول له: لا تزال هكذا حتىٰ تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزّىٰ، فيقول وهو في ذلك البلاء: أحد أحد.(٢)

✍ **وعن عون بن عمير بن إسحاق قال:** كان بلال - رضي الله عنه - إذا اشتدوا عليه في العذاب قال: أحدٌ أحدٌ. قال: فيقولون له: قل كما نقول. فيقول: إن لساني لا يحسنه. (٣)

✍ **وعن الشعبي قال:** سأل عمر بلالًا عما لقي من المشركين، فقال خباب - رضي الله عنه -: يا أمير المؤمنين انظر إلىٰ ظهري. فقال عمر: ما رأيت كاليوم. قال: أوقدوا لي نارًا فما أطفأها إلا ودك ظهري. (٤)

---

(١) حلية الأولياء: (١/ ١٥١).

(٢) صفة الصفوة ١/ ١٩٩.

(٣) المنتظم ٤/ ٢٩٧.

(٤) الحلية (تهذيبه) ١/ ١٢٨.

✍ **وعن ميمون بن الأصبغ قال:** كنت ببغداد، فسمعتُ ضجّةً، فقلت: ما هذا؟ فقالوا: أحمد بن حنبل رحمه الله يُمتحن. فدخلت، فلما ضُرِب سوطًا قال: بسم الله. فلما ضُرب الثاني قال: لا حول ولا قوّة إلا بالله. فلما ضُرب الثالث قال: القرآن كلام الله غيرُ مخلوق. فلما ضُرب الرابع قال: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ [التوبة:٥١]، فضُرب تسعة وعشرين سوطًا.(١)

✍ **وعن الربيع بن سليمان قال:** رأيت البويطي رحمه الله علىٰ بغل، وفي عنقه غِل، وفي رجليه قيد، وبين الغل والقيد سلسلة حديد، وفيها طوبة وزنها أربعون رطلًا، وهو يقول: إنما خلق الله الخلق بكُنْ، فإذا كانت كُنْ مخلوقة، فكان مخلوقًا خلق مخلوقًا، فوالله لأموتن في حديدي هذا حتىٰ يأتي من بعدي قوم يعلمون أنه قد مات في هذا الشأن قوم في حديدهم، ولئن أدخلت إليه لأصدقنه - يعني الواثق، قال الربيع: وكتب إليَّ من السجن يقول: إنه ليأتي علي أوقات لا أحس بالحديد أنه علىٰ بدني حتىٰ تمسه يدي.(٢)

✍ **وقال شيخ الإسلام الهروي** رحمه الله: عُرضتُ علىٰ السيف خمسَ مرات لا يقال لي: ارجعْ عن مذهبك. لكن يقال لي: اسكت عمّن خالفك. فأقول: لا أسكُتُ. (٣)

---

(١) صفة الصفوة ٢/ ٦١١.

(٢) المنتظم ١١/ ١٧٥.

(٣) السير (تهذيبه) ٣/ ١٤٣٧.

من فوائد (الثبات):

(١) دليل كمال الإيمان وحسن التّوكّل علىٰ الله- عَزَّوَجَلَّ-.

(٢) دليل قوّة النّفس ورباطة الجأش.

(٣) لا ينتشر الحقّ إلّا به ولا يزهق الباطل إلّا بالثّبات علىٰ الحقّ.

(٤) دليل علىٰ تمكّن حبّ العقيدة والصّبر عليها وعلىٰ تكاليفها حتّىٰ الممات.

(٥) يكسب المسلم قوّة في الجهاد.

(٦) الثّبات من السّبل الهادية إلىٰ الجنّة.

(٧) في الثّبات تأسّ بالرّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



المبحث الرابع
الرباني صابر

لقد وصف الله سبحانه وتعالىٰ الربانيين بالصبر علىٰ البلاء فقال تعالىٰ: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٦]، فالرباني صابر صبور يواجه المكايد والمناكد، وهو كالجبل الراسخ.

وفي الصفحات التالية لنا وقفات مع الصبر، ونسأل الله تعالىٰ أن نكون من الصابرين.

الصبر لغة:

مصدر صبر يصبر وهو مأخوذ من مادّة (ص ب ر) الّتي تدلّ بحسب وضع اللّغة علىٰ معان ثلاثة: الأوّل الحبس، والثّاني: أعالي الشّيء، والثّالث: جنس من الحجارة، وقد اشتقّ الصّبر المراد هنا من المعنىٰ الأوّل وهو الحبس، يقال: صبرت نفسي علىٰ ذلك الأمر أي حبستها، والمصبورة المحبوسة علىٰ الموت، ومن الباب ما ورد من نهيه ﷺ عن قتل شيء من الدّوابّ صبراً.

وقال الرّاغب: الصّبر: الإمساك في ضيق، يقال صبرت الدّابّة بمعنىٰ حبستها بلا علف، ويقال صبر فلان عند المصيبة صبراً وصبّرته أنا حبسته.

قــال تعــالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الكهف:٢٨] أي احبس نفسك معهم. وقال عنترة يذكر حربا كان فيها:

فصــبرت عارفــة لــذلك حــرّة... ترســو إذا نفــس الجبــان تطلّــع

يقول: حبست نفسا صابرة. (١)

وقيل: أصل الكلمة من الشّدّة والقوّة، ومنه الصّبر للدّواء المعروف بشدّة مرارته وكراهته.

قال الأصمعيّ: إذا لقي الرّجل الشّدّة بكمالها قيل لقيها بأصبارها، وقيل مأخوذ من الجمع والضّمّ، فالصّابر يجمع نفسه، ويضمّها عن الهلع. والتّصبّر: تكلّف الصّبر.(٢)

أمّا الصّبر الجميل في قوله تعالىٰ علىٰ لسان يعقوب عليه السلام- ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف:١٨]، فالمراد به الصّبر الّذي لا جزع فيه ولا شكوىٰ(٣)، وقال ابن جريج عن مجاهد إنّ المعنىٰ: لا أشكو ذلك لأحد. (٤)

---

(١) لسان العرب: (٤/ ٤٣٨).

(٢) الصحاح للجوهري (٢/ ٧٠٦، ٧٠٧) ، ولسان العرب، لابن منظور «ص ب ر» (٤/ ٤٣٨) ، والمقاييس (٣/ ٣٢٩).

(٣) تفسير القرطبي ٩/ ، ١٥٢.

(٤) تفسير القرطبي ٩/ ، ٢٤٧.

✍ **وقال مجاهد أيضًا:** «الصّبر الجميل: الّذي لا جزع فيه»(١) وقال أبو حيّان: المعنىٰ: أتجمّل لكم في صبري فلا أعاشركم علىٰ كآبة الوجه، وعبوس الجبين، بل علىٰ ما كنت عليه معكم (من قبل) (٢) وقال ابن تيميّة: الصّبر الجميل هو الّذي لا شكوىٰ فيه ولا معه».

من معاني الصبر:

✍ **قال الفيروز ابادي:** وربّما خولف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه، فإن كان حبس النّفس لمصيبة سمّي صبرًا، وإن كان في محاربة سمّي شجاعة، وإن كان في إمساك الكلام سمّي كتمانًا، وإن كان عن فضول العيش سمّي زهدًا (٣)، وإن كان عن شهوة الفرج سمّي عفّة، وإن كان عن شهوة طعام سمّي شرف نفس، وإن كان عن إجابة داعي الغضب سمّي حلمًا. (٤)

✍ **قال ابن القيّم:** والاسم الجامع لذلك كلّه «الصّبر» وهذا يدلّك علىٰ ارتباط مقامات الدّين كلّها بالصّبر. (٥)

---

(١) تفسير ابن كثير مجلد ٢ ص، ٤٨٩.

(٢) تفسير البحر المحيط ٥/ ، ٢٩٠

(٣) في الكليات للكفوي (٥٦٠) ، والصبر في إمساك النفس عن الفضول قناعة.

(٤) بصائر ذوي التمييز (٣/ ٣٨٣) ، وانظر: التعريفات للجرجاني (ص ١٣١) ، وفي المفردات للراغب (ص ٢٧٣): الصبر لفظ عام وربما خولف بين أسمائه باختلاف مواقعه وزاد علىٰ ما هنا: وإن كان في نائبة مضجرة سمي رحابة صدر ويضاده الضجر.

(٥) مدارج السالكين: (٣/ ١٦٥).

الصبر اصطلاحًا:

قال الرّاغب: هو حبس النّفس علىٰ ما يقتضيه العقل والشّرع أو عمّا يقتضيان حبسها عنه. وقال الجاحظ: الصّبر عن الشّدائد خلق مركّب من الوقار والشّجاعة. وقال المناويّ: الصّبر: قوّة مقاومة الأهوال والآلام الحسّيّة والعقليّة. (١)

وقيل: هو حبس النّفس عن الجزع والتّسخّط، وحبس اللّسان عن الشّكوىٰ، وحبس الجوارح عن التّشويش.

وقيل: هو ترك الشّكوىٰ من ألم البلوىٰ لغير الله إلّا إلىٰ الله؛ لأنّ الله تعالىٰ أثنىٰ علىٰ أيّوب- عليه السلام- بالصّبر بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ﴾ [ص:٤٤] مع دعائه في دفع الضّرّ عنه بقوله: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣﴾ [الأنبياء:٨٣] فعلم أنّ العبد إذا دعا الله تعالىٰ في كشف الضّرّ عنه لا يقدح في صبره.

وقيل: هو خلق فاضل من أخلاق النّفس يمتنع به من فعل ما لا يحسن ولا يجمل، وهو قوّة من قوىٰ النّفس الّتي بها صلاح شأنها وقوام أمرها.

وقيل: هو الثّبات علىٰ أحكام الكتاب والسّنّة.

وقيل: هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب.

وقيل: هو الثّبات مع الله، وتلقّي بلائه بالرّحب والسّعة. وقيل: هو ثبات

(١) مفردات الراغب: (٥٢٧٣)، والتوقيف علىٰ مهمات التعاريف: (٢١٢).

القلب عند موارد الاضطراب. (١)

مراتب الصبر:

قال الفيروز اباديّ: مراتب الصّبر خمسة: صابر ومصطبر، ومتصبّر، وصبور، وصبّار. فالصّابر أعمّها، والمصطبر: المكتسب للصّبر، المبتلىٰ به، والمتصبّر:

متكلّف الصّبر حامل نفسه عليه، والصّبور: العظيم الصّبر الّذي صبره أشدّ من صبر غيره، والصّبّار: الشّديد الصّبر فهذا في القدر والكمّ والّذي قبله في الوصف والكيف. (٢)

أهمية الصبر:

إن الإيمان نصفان نصف صبر، ونصف شكر، ومدار سعادة الدنيا والآخرة عليهما.

فلله علىٰ كل عبد عبودية في حال العافية، وعبودية في حال البلاء، فعليه أن يحسن صحبة العافية بالشكر، وصحبة البلاء بالصبر.

وساحة العافية أوسع للصبر من ساحة البلاء، لكن بعد نزول البلاء فليس للعبد أوسع من الصبر، وأما قبله فالعافية أوسع له كما قال النبي - ﷺ: «**مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ**

(١) مدارج السالكين: (١/ ١٦٢، ١٦٣)، والتوقيف: (٢١٢).
(٢) بصائر ذوي التمييز: (٣/ ٣٧٨)، ومدارج السالكين: (٢/ ١٦٥).

الصَّبْرِ». (١)

✍ **قال ابن تيميّة:** «قد ذكر الله الصّبر في كتابه في أكثر من تسعين موضعا. وقرنه بالصّلاة في قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [البقرة:٤٥]، وجعل الإمامة في الدّين موروثة عن الصّبر واليقين بقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [السجدة:٢٤]. فإنّ الدّين كلّه علم بالحقّ وعمل به، والعمل به لا بدّ فيه من الصّبر. بل وطلب علمه يحتاج إلىٰ الصّبر. كما قال معاذ بن جبل - رضي الله عنه -: عليكم بالعلم فإن طلبه لله عبادة، ومعرفته خشية، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، ومذاكرته تسبيح، به يعرف الله ويعبد، وبه يمجّد الله ويوحّد، يرفع الله بالعلم أقواما يجعلهم للنّاس قادة وأئمّة يهتدون بهم وينتمون إلىٰ رأيهم.

فجعل البحث عن العلم من الجهاد، ولا بدّ في الجهاد من الصّبر، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ [العصر: ١ - ٣]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [ص:٤٥].

فالعلم النّافع هو أصل الهدىٰ، والعمل بالحقّ هو الرّشاد، وضدّ الأوّل الضّلال، وضدّ الثّاني الغيّ.

---

(١) البخاري: (١٤٦٩)، واللفظ له ، ومسلم: (١٠٥٣).

فالضّلال العمل بغير علم، والغيّ اتّباع الهوىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ [النجم:١، ٢] فلا ينال الهدىٰ إلّا بالعلم ولا ينال الرّشاد إلّا بالصّبر. ولهذا قال عليّ: «ألا إنّ الصّبر من الإيمان بمنزلة الرّأس من الجسد، فإذا انقطع الرّأس بان الجسد، ثمّ رفع صوته فقال ألا لا إيمان لمن لا صبر له».(١)

حقيقة الصبر:

هو خلق فاضل من أخلاق النفس، يمتنع به الإنسان من فعل ما لا يحسن فعله، والوقوف مع البلاء بحسن الأدب، والثبات علىٰ أحكام الكتاب والسنة.

وحدُّ الصبر: أن لا يعترض علىٰ التقدير، فأما إظهار البلاء علىٰ غير وجه الشكوىٰ فلا ينافي الصبر.

الصبر نوعان محمود ومذموم:

فالمذموم كالصبر علىٰ التعب والألم والشدائد للوصول إلىٰ ما حرم الله من الفواحش، والكبائر، وسائر المحرمات.

والمحمود كالصبر علىٰ أنواع الطاعات، والصبر عن ما نهىٰ الله عنه من الأقوال والأعمال، والصبر علىٰ أقدار الله.

---

(١) البصائر (٣/ ٣٧٦).

أنواع الصبر:

✍ **قال أبو عمر**: سألت الحليميّ عن الصّبر، قال: ثلاثة أنواع: الصّبر علىٰ طاعة الجبّار، والصّبر عن معاصي الجبّار، والصّبر علىٰ الصّبر علىٰ طاعته وترك معصيته. (١)

✍ **وقال ابن القيّم**: الصّبر باعتبار متعلّقه ثلاثة أقسام: صبر الأوامر والطّاعات حتّىٰ يؤدّيها، وصبر عن المناهي والمخالفات حتّىٰ لا يقع فيها، وصبر علىٰ الأقدار والأقضية حتّىٰ لا يتسخّطها. (٢)

ويمكن أن نقول: صبر علىٰ طاعة الله.. وصبر عن معصية الله(٣).. وصبر علىٰ أقدار الله المؤلمة.

فالأولان صبر علىٰ ما يتعلق بكسب الإنسان، والثالث صبر علىٰ ما لا كسب للعبد فيه، فصبر يوسف - ﷺ - عن مطاوعة امرأة العزيز علىٰ ما تريد منه أكمل من صبره علىٰ إلقاء إخوته له في الجب، وبيعه، وتفريقهم بينه وبين أبيه.

فهذه أمور جرت عليه بغير اختياره، لا كسب له فيها، وليس للعبد فيها حيلة غير الصبر.

وأما صبره عن المعصية فصبر اختيار ورضىٰ، ومحاربة للنفس

---

(١) ذكر في بصائر ذوي التمييز (٣/ ٣٧٥) النوعين الأوّلين وعبر عن الثالث بقوله: صبر علىٰ امتحان الله.

(٢) مدارج السالكين: (١/ ١٦٥)، ودليل الفالحين: (١/ ١٣٧).

(٣) سأذكر بعد قليل أسباب الصبر عن المعاصي بأمر الله تعالىٰ.

وشهواتها، لا سيما مع الأسباب التي تقوىٰ معها دواعي الموافقة.

فإنه كان شابًّا عزبًا غريبًا مملوكًا، والمرأة جميلة، وذات منصب وهي سيدته، وقد غاب الرقيب، وهي الداعية له إلىٰ نفسها، ومع هذه الدواعي صبر اختيارًا وإيثارًا لما عند الله: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف:٢٤].

والصبر علىٰ أداء الطاعات أكمل من الصبر علىٰ اجتناب المحرمات وأفضل، فإنّ فعل الطاعة أحب إلىٰ الله من ترك المعصية، وعدم الطاعة أبغض إليه وأكره من وجود المعصية.

والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، وهو علىٰ ثلاثة أنواع:

١- صبر بالله

٢- صبر لله.

٣- صبر مع الله. (١)

فالأول: الاستعانة بالله ورؤيته أنه هو المصبر، وأن صبر العبد بربه لا بنفسه كما قال سبحانه: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ ﴾ [النحل:١٢٧].

والثاني: الصبر لله وهو أن يكون الباعث له علىٰ الصبر محبة الله، وإرادة

---

(١) كما قال الفيروز اباديّ: الصّبر علىٰ ثلاثة أنواع: صبر بالله، صبر مع الله، صبر لله. انظر: البصائر (٣/ ٣٧٦).

وجهه، والتقرب إليه، لا لإظهار قوة النفس، أو طلب حمد الخلق ونحو ذلك، فإن الصبر عمل، والعمل لا بدَّ أن يكون خالصًا لله.

والثالث: الصبر مع الله، وهو دوران العبد مع مراد الله الديني منه، ومع أحكامه الدينية، صابرًا نفسه معها، سائرًا بسيرها، مقيمًا بإقامتها، يتوجه معها أينما توجهت، وينزل معها حيث نزلت، قد جعل نفسه وقفًا علىٰ محاب ربه وأوامره.

وهذا أشد أنواع الصبر وأصعبها، وهو صبر الصديقين، فالصبر من النفس إلىٰ الله صعب شديد، والصبر مع الله أشد وهو الثبات مع الله، وتلاقي بلائه بالرحب والسعة، والثبات علىٰ أحكام الكتاب والسنة حتىٰ يلقىٰ ربه.

والصبر أكبر عون للعباد علىٰ جميع الأمور كما قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [البقرة:١٥٣].

درجات الصبر:

والصبر علىٰ ثلاث درجات:

- **الدرجة الأولىٰ**: الصبر عن المعصية بمطالعة الوعيد، إبقاء علىٰ الإيمان، وحذرًا من الحرام، وأحسن منها الصبر عن المعصية حياءً.

فالإبقاء علىٰ الإيمان يبعث علىٰ ترك المعصية؛ لأنها لا بدَّ أن تنقصه أو تذهب بهجته، أو تطفئ نوره، أو تضعف قوته.

وأما الحذر من الحرام فهو الصبر عن كثير من المباح حذرًا من أن يسوقه إلىٰ الحرام والشبهات.

والحيـاء يبعـث عليـه قـوة المعرفـة بـالله، ومشـاهدة معـاني الأسـماء والصفات.

وأحسن من ذلك أن يكون الباعث عليه وازع الحب، فيترك معصيته محبة له، وصاحب الحياء أحسن حالًا من أهل الخوف؛ لأن في الحياء من الله ما يدل على مراقبته، وحضور القلب معه، ولأن فيه من تعظيم الله وإجلاله سبحانه ما ليس في وازع الخوف.

فَمَنْ وازعه الخوف قلبه حاضر مع العقوبة، ومن وازعه الحياء قلبه حاضر مع الله، والخائف مراع جانب نفسه وحمايتها، والمستحي مراع جانب ربه، وملاحظة عظمته، وكلا المقامين من مقامات أهل الإيمان.

- **الدرجة الثانية:** الصبر على طاعة الله، بالمحافظة عليها دومًا، ورعايتها إخلاصًا، وتحسينها علمًا وعملًا.

وفعل الطاعة أكبر من ترك المعصية، فيكون الصبر عليها آكد، وفوق الصبر عن ترك المعصية، فإن ترك المعصية إنما كان لتكميل الطاعة، والمنهي عنه لما كان يُضعف المأمور به ويُنقصه نهي عنه؛ حماية وصيانة لجانب الأمر. (١)

---

(١) والصبر في هذه الدرجة بثلاثة أشياء:
دوام الطاعة.. والإخلاص فيه.. ووقوعها على مقتضى العلم.
والطاعة تتخلف من فوات واحد من هذه الثلاثة.
فالعبد إن لم يحافظ عليها دومًا عطلها، وإن حافظ عليها دومًا عرض لها آفتان:
الأولى: ترك الإخلاص، وحفظها من هذه الآفة برعاية الإخلاص.
والثانية: أن لا تكون مطابقة للعلم، فحفظها من هذه الآفة بتجريد المتابعة.

- **الدرجة الثالثة**: الصبر في البلاء بملاحظة حسن الجزاء، وانتظار روح الفرج، وتهوين البلية بعد أيادي المنن، وبذكر سوالف النعم، فيعد العبد نعم الله عليه، وأياديه عنده، فإذا عجز عن عدها هان عليه ما هو فيه من البلاء، ورآه بالنسبة إلىٰ أيادي الله ونعمه كقطرة من بحر.

وبذكر سوالف النعم التي أنعم الله بها عليه، فهذا يتعلق بالماضي، وتعداد أيادي المنن يتعلق بالحال، وملاحظة حسن الجزاء وانتظار روح الفرج يتعلق بالمستقبل.

والصبر علىٰ طاعة الله والصبر عن معصيته أكمل من الصبر علىٰ أقداره والصبر لله أكمل من الصبر بالله، والصبر علىٰ طاعة الله والصبر عن معصيته أكمل من الصبر علىٰ قضائه وقدره.

فصبر نوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ عليهم الصلاة والسلام علىٰ ما نالهم في الله باختيارهم وفعلهم ومقاومة قومهم أكمل من صبر أيوب علىٰ ما ناله في الله من ابتلائه وامتحانه بما ليس مسببًا عن فعله.

وكذلك صبر إسماعيل الذبيح، وصبر أبيه إبراهيم عليهما الصلاة والسلام علىٰ تنفيذ أمر الله أكمل من صبر يعقوب علىٰ فقد يوسف عليهما الصلاة والسلام.

الأمور التي تعين على الصبر:

الذي يعين علىٰ الصبر أمور أهمها:

الأول: معرفة العبد ما في الطاعات من زيادة الإيمان وصلاح القلوب.

الثاني: معرفة العبد ما في المحرمات والمعاصي من الضرر والرذائل، وما توجبه من العقوبات في الدنيا والآخرة.

الثالث: معرفة العبد ما في أقدار الله من البركة والحكمة والرحمة، وما لمن قام بالصبر عليها من الأجور كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٖ ١٠﴾ [الزمر:١٠].

الرابع: معرفة العبد أن محبة الله معه كلما اتقىٰ وصبر كما قال سبحانه: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦﴾ [الأنفال:٤٦].

ومن كان الله معه فكل شيء معه، فكيف لا يجاهد المسلم نفسه علىٰ الصبر وهذه أجوره وبركاته ومنافعه؟

فبالصبر يسهل علىٰ العبد القيام بالطاعات، وأداء حقوق الله، وأداء حقوق عباده، وترك ما تنهاه نفسه من المحرمات، وبذلك يهون عليه الصبر عن جميع الشهوات، وجميع الشدائد في الأقدار والأوامر.

مراتب الصبر من حيث القوة والضعف:

ومراتب الصبر أربع:

- **الأولىٰ**: مرتبة الكمال، وهي مرتبة أولي العزائم، وهي الصبر لله وبالله، فيكون العبد في صبره مبتغيًا وجه الله، صابرًا به، متبرئًا من حوله وقوته، فهذه أقوىٰ المراتب وأرفعها وأفضلها، وفي ذروتها الأنبياء.

- **الثانية**: أن لا يكون فيه صبر لله، ولا صبر بالله، فهذا في أخس المراتب،

وهو أردأ الخلق، وهو جدير بكل خذلان، وبكل حرمان.

- **الثالثة**: مرتبة من فيه صبر بالله، فهو مستعين ومتوكل علىٰ حول الله وقوته، متبرئ من حوله هو وقوته، ولكن صبره ليس لله فيما هو مراد الله الديني منه.

فهذا ينال مطلوبه ويظفر به ولكن لا عاقبة له، وإنما كانت عاقبته شر العواقب، وفي هذا المقام خفراء الكفار، وأرباب الأحوال الشيطانية، فإن صبرهم بالله لا لله ولا في الله.

وهم من جنس الملوك والرؤساء الظلمة، فإن الحال كالملك يعطاه البر والفاجر، والمؤمن والكافر.

- **الرابعة**: من فيه صبر لله، لكنه ضعيف النصيب من الصبر به، والتوكل عليه، والثقة به، والاعتماد عليه.

فهذا له عاقبة حميدة، ولكنه ضعيف عاجز مخذول في كثير من مطالبه، ونصيبه من الله أقوىٰ من نصيبه بالله.

فهذا حال المؤمن الضعيف، وصابر بالله لا لله حال الفاجر القوي، وصابر لله وبالله حال المؤمن القوي، وهو أحب إلىٰ الله من المؤمن الضعيف.

الصبر نوعان صبر على المقدور وصبر على المشروع:

فالأول وهو: الصبر علىٰ المقدور كالمصائب.

والثاني: صبر علىٰ المشروع وهو نوعان:

صبر علىٰ الأوامر... وصبر عن النواهي.

فذاك صبر علىٰ الإرادة والفعل.. وهذا صبر عن الإرادة والفعل.

فأما النوع الأول فمشترك بين المؤمن والكافر، لا يثاب عليه بمجرده إن لم يقترن به إيمان واحتساب كما قال - ﷺ - لابنته: «**مُرْهَا فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ**». (١)

ومن قل يقينه قل صبره.. ومن قل صبره خف واستخف، ولعبت به الأهواء كما تلعب الريح بكل خفيف.

وأشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلىٰ الرجل علىٰ حسب دينه.

فإبراهيم - ﷺ - ابتلي بالنار، ومفارقة الأهل والأولاد والدار، فصبر ابتغاء وجه ربه، فأنجاه الله من النار، وجعل في ذريته النبوة والكتاب.

ومن أراد الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة فليوطن نفسه علىٰ الصبر علىٰ البلاء، والصبر علىٰ طاعة الله، والصبر عن معصية الله، ومن أراد أن يقتدي في دينه فليتبع الأنبياء؛ لأنهم بالله أعرف وله أطوع.

وقد أمرنا الله باتباع رسوله محمد - ﷺ -، وأمر رسوله باتباع ملة إبراهيم، وملة إبراهيم - ﷺ - البذل والتضحية بكل شيء من أجل التوحيد والإيمان وإعلاء كلمة الله.

فإبراهيم - ﷺ - من أجل الدين بذل نفسه حين سلمها للنيران.. وبذل

---

(١) البخاري: (٢٢٨٤)، ومسلم: (٩٢٣)، واللفظ له.

ماله حين سلمه للضيفان.. وضحىٰ بولده حين بذله للقربان.. وأسكن وترك بواد غير ذي زرع طاعة للرحمن.

فإن لم تقدر علىٰ متابعة إبراهيم - ﷺ - فاجتهد في متابعة ولده الصبي.. كيف انقاد لحكم ربه، مع صغر سنه، فمد عنقه للذبح امتثالًا لأمر ربه.

وأنه لابتلاء عظيم، وبلاء مبين للوالد والولد، يحتاج إلىٰ صبر كالجبال، إنه ابتلاء يهز القلوب، ويرجف له الفؤاد، ولكنه أمر الله، ولا بدَّ من امتثاله.

فمن يطيق أن يذبح ابنه؟ ومن يتحمل مباشرة الذبح؟ ولكن الله يريد صفاء إبراهيم، وهو خليل الرحمن، وقد تعلقت شعبة من شعب قلبه بابنه إسماعيل، فأمره الله أن يذبح من زاحم حبه حب ربه: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ (١٠٢) ﴾ [الصافات:١٠٢].

فلما قدَّم إبراهيم طاعة ربه وعزمه علىٰ ذبح إسماعيل، وزال ما في القلب من المزاحم بقي الذبح لا فائدة فيه فلهذا قال: ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ (١٠٨) سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ (١١١) ﴾ [الصافات: ١٠٣ - ١١١].

وإن كنت دون الرجل، فاتبع الموسوم بنقصان العقل والدين، وهي أم

الذبيح إسماعيل، هاجر المملوكة امرأة إبراهيم.. وانظر كيف أطاعت ربها وصبرت، فتحملت المحنة في ولادتها، ثم صبرت حين تركها الخليل مع ولدها في مكة، حيث لا ماء ولا زاد ولا أنيس، ثم توجهت إلىٰ ربها ليغيثها، فلما تربت علىٰ اليقين علىٰ الله، جعل الله خطواتها عبادة إلىٰ يوم القيامة، وهي السعي بين الصفا والمروة.

كما قال إبراهيم - ﷺ: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم:٣٧].

الأمور المنافية للصبر:

١- الشكوىٰ إلىٰ المخلوق، فإذا شكىٰ العبد ربه إلىٰ مخلوق مثله فقد شكىٰ من يرحمه إلىٰ من لا يرحمه. (١)

٢- شق الثياب عند المصيبة، ولطم الوجه، وحلق الشعر، وضرب

---

(١) أما الشكوىٰ إلىٰ الله فهي محمودة مشروعة كما قال أيوب - ﷺ: ﴿وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣﴾ [الأنبياء:٨٣].

وأما إخبار المخلوق بالحال فإن كان للاستعانة به فيما يقدر عليه، والتوصل إلىٰ زوال ضرره، لم يقدح ذلك في الصبر، كإخبار المريض للطبيب بما يؤلمه ويشكو منه، وإخبار المظلوم لمن ينتصر به، وإخبار المبتلىٰ ببلائه لمن كان يرجو أن يكون فرجه علىٰ يديه.

إحدىٰ اليدين بالأخرىٰ، والدعاء بالويل. (١)

٣- إظهار المصيبة، والتحدث بها.(٢)

أسباب الصبر عن المعاصي:

١- الحياء من الله سبحانه عند المعصية، فهو يراه ويسمعه، فكيف يتعرض لمساخطه؟.

٢- علم العبد بقبحها ورذالتها ودناءتها، وأن الله إنما حرمها ونهىٰ عنها صيانة وحماية عن الدنايا والرذائل، وهذا كاف في تركها، ولو لم يعلِّق عليها وعيد العذاب.

٣- مراعاة العاقل نعم الله عليه، وإحسانه إليه.

٤- محبة الله، وهي من أقوىٰ الأسباب في الصبر عن مخالفته ومعاصيه، فإن المحب لمن يحب مطيع.

---

(١) ولا ينافي الصبر والبكاء، والحزن عند المصيبة كما قال الله عن يعقوب ﷺ: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ [يوسف:٨٤]. وَاشْتَكَىٰ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ شَكْوَىٰ لَهُ فَأَتَىٰ رَسُولُ اللهِ - ﷺ - يَعُودُهُ مَعَ عَبْدِالرَّحْمَنِ بنِ عَوْفٍ وَسَعْدِ بنِ أَبِي وَقَّاصٍ وَعَبْدِاللهِ بنِ مَسْعُودٍ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ وَجَدَهُ فِي غَشِيَّةٍ، فَقَالَ: «**أَقَدْ قَضَىٰ؟**» قَالُوا: لا، يَا رَسُولَ اللهِ! فَبَكَىٰ رَسُولُ الله - ﷺ. فَلَمَّا رَأَىٰ الْقَوْمُ بُكَاءَ رَسُولِ اللهِ - ﷺ -، بَكَوْا. فَقَالَ: «**ألا تَسْمَعُونَ؟ إِنَّ اللهَ لا يُعَذِّبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ، وَلا بِحُزْنِ الْقَلْبِ، وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بِهَذَا** (وَأَشَارَ إِلَىٰ لِسَانِهِ) **أَوْ يَرْحَمُ**». البخاري: (١٣٠٤)، ومسلم: (٩٢٤) واللفظ له

(٢) أما كتمان المصيبة فهو رأس الصبر.

وفرق بين من يحمله علىٰ ترك المعصية خوفه من سوط سيده وعقوبته، وبين من يحمله علىٰ ذلك حبه لسيده.

٥- خوف الله وخشية عقابه الذي توعد به من عصاه كما قال سبحانه: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٤﴾ [النساء:١٤].

وإذا امتلأ قلب المؤمن من محبة الله وإجلاله وتعظيمه منعه ذلك من معصيته حياء وطاعة لربه، وما عمر القلب شيء كالمحبة المقترنة بإجلال الله وتعظيمه.

٦- شرف النفس وفضلها وأنفتها أن تختار ما يحطها ويضع من قدرها، ويسوي بينها وبين السفلة.

٧- قوة العلم بسوء عاقبة المعصية، وقبح أثرها، والضرر الناشئ منها من سواد الوجه، وظلمة القلب، وشدة قلقه واضطرابه، وضعفه عن مقاومة عدوه، وتعريته من زينته، وتخلي وليه وناصره عنه، وتولي عدوه المبين له.

٨- أن العبد بسبب المعصية يصير أسيرًا بيد أعدائه، بعد أن كان ملكًا متصرفًا يخافه أعداؤه.

٩- زوال أمنه، وتبدله به مخافة، فأخوف الناس أشدهم إساءة.

١٠- زوال الأنس، فكلما ازداد العبد إساءة ازداد وحشة.

١١- زوال الطمأنينة بالله، والسكون إليه، وزوال الرضا، واستبداله بالسخط ومنها وقوع العاصي في بئر الحسرات، فلا يزال في حسرة دائمة،

كلما نال لذة نازعته نفسه إلىٰ نظيرها أو غيرها إن قضىٰ وطره منها.

وكلما اشتد نزوعه.. وعرف عجزه اشتدت حسرته وحزنه.

١٢- فقره بعد غناه، فإنه كان غنيًا بما معه من رأس مال الإيمان، وهو يَتَّجِرُ به ويربح الأرباح الكثيرة من الأعمال الصالحة.

١٣- نقصان رزقه، فإن العبد يحرم الرزق بالذنب يصيبه.

١٤- زوال المهابة التي لبسها بالطاعة.

١٥- حصول النفرة منه، والبغض له في قلوب الناس، فكما جعل الله المودة لكل مؤمن، وكل مطيع فكذلك جعل الكراهية لكل كافر وكل عاصٍ.

١٦- ضياع أعز الأشياء عليه وأنفسها وأغلاها وهو الوقت الذي لا عوض منه.

١٧- الطبع والرَّين علىٰ قلبه، ومنها أنه يحرم حلاوة الطاعة، فإذا فعلها لم يجد أثرها في قلبه من الحلاوة والقوة ومزيد الإيمان، والرغبة في الآخرة.

١٨- إعراض الله وملائكته وعباده عنه، فإن العبد إذا أعرض عن طاعة الله واشتغل بمعاصيه أعرض الله عنه، فأعرضت عنه ملائكته وعباده.

١٩- أن الذنب يستدعي ذنبًا آخر حتىٰ تهلكه ذنوبه.

٢٠- علمه بفوات ما هو أحب إليه منها.

٢١- علمه بأن أعماله هي زاده ووسيلته إلىٰ دار إقامته، فإن تزود من معصية الله أوصله ذلك الزاد إلىٰ دار العصاة والجناة، وإن تزود من طاعة الله

أوصله ذلك إلىٰ دار أهل طاعته وولايته.

٢٢- علمه أن عمله هو وليه في قبره وأنيسه فيه، فإن شاء جعله له، وإن شاء جعله عليه.

٢٣- علمه أن أعمال البر والطاعات تنهض بالعبد وتقوم به، وتصعد إلىٰ الله به، وأعمال الفجور تهوي به، وتجذبه إلىٰ الهاوية، وتجره إلىٰ أسفل سافلين.

* كما قال سبحانه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾ [فاطر: ١٠].

* وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الأعراف: ٤٠].

فلما لم تفتح أبواب السماء لأعمالهم، بل أغلقت عنها، لم تفتح لأرواحهم عند الموت، بل أغلقت عنها.

وأهل الإيمان والعمل الصالح لما كانت أبواب السماء مفتوحة لأعمالهم حتىٰ وصلت إلىٰ الله، فتحت كذلك لأرواحهم حتىٰ وصلت إلىٰ ربها وقامت بين يديه، فرحمها وأمر بكتابة اسمها في عليين.

٢٤- علم العبد أنه متىٰ عصىٰ الله فقد خرج من حصنه الذي لا ضيعة علىٰ من دخله، فإذا خرج بمعصيته منه صار نهبًا للصوص وقطاع الطريق.

٢٥- علم العبد بقصر الأمل، وعلمه بسرعة انتقاله، وأنه كمسافر دخل قرية وهو مزمع علىٰ الخروج منها، أو كراكب قال تحت ظل شجرة ثم سار وتركها.

٢٦- تجنب الفضول في طعامه وشرابه، ولباسه ومنامه، واجتماعه بالناس، فإن قوة الداعي إلىٰ المعاصي إنما تنشأ من هذه الفضلات.

فإنها تطلب مصرفًا، فيضيق عليها المباح، فتتعداه إلىٰ الحرام.

٢٧- ثبات شجرة الإيمان في القلب، وهو أعظمها، فصبر العبد عن المعاصي إنما هو بحسب قوة إيمانه، فإن من باشر قلبه الإيمان بالله، وباشر قلبه الإيمان بالثواب والعقاب، والجنة والنار، حجزه ذلك عن المعاصي، ومنعه من أن لا يعمل بموجب هذا العلم.

ومن ظن أنه يقوىٰ علىٰ ترك المعاصي بدون الإيمان الراسخ الثابت فقد غلط، فإن سراج الإيمان إذا قوي في القلب، وأضاءت جهاته كلها به، سرىٰ ذلك النور إلىٰ الأعضاء، وانبعث إليها، فأسرعت الإجابة لداعي الإيمان، وانقادت له طائعة مذللة، غير متثاقلة ولا كارهة.

بل تفرح بدعوته حين يدعوها كما يفرح الرجل بدعوة حبيبه المحسن إليه إلىٰ محل كرامته: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [البقرة:١٠٥].

وبالجملة فآثار المعاصي أكثر من أن يحيط بها العبد علمًا، وآثار الطاعة الحسنة أكثر من أن يحيط العبد بها علمًا.

فخير الدنيا والآخرة كله بحذافيره في طاعة الله ورسوله، وشر الدنيا والآخرة كله بحذافيره في معصية الله ورسوله.

والصبر على الطاعة ينشأ من معرفة تلك الأسباب، ومن معرفة ما تجلبه الطاعة من العواقب الحميدة، والآثار الجميلة.

ومن أقوى أسبابها الإيمان ومحبة الله، فكلما قوي داعي الإيمان والمحبة في القلب كانت استجابته للطاعة بحسبه.

مواقف لأهل الصبر على البلاء:

- **النبي ﷺ يعلم الأمة الصبر:**

* عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي عُرْوَةُ، أَنَّ عَائِشَةَ رضي الله عنها، زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ، حَدَّثَتْهُ أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ: هَلْ أَتَىٰ عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ، قَالَ: **«لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ العَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَىٰ ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَىٰ مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَىٰ وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ (١) فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ، ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ؟ فَقَالَ**

---

(١) قرن الثعالب: هو قرن المنازل، وهو ميقات أهل نجد، وهو على مرحلتين من مكة، وأصل القرن كل جبل صغير ينقطع من جبل كبير.

النَّبِيُّ ﷺ: **بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**». (١)

* وعَنْ عَبْدِ اللهِ مَسْعُودٍ قال: دَخَلْتُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا، فَمَسِسْتُهُ بِيَدِي فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّكَ لَتُوعَكُ(٢) وَعْكًا شَدِيدًا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَجَلْ، إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ**» فَقُلْتُ: ذَلِكَ أَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَجَلْ**» ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًىٰ، مَرَضٌ فَمَا سِوَاهُ، إِلَّا حَطَّ اللهُ لَهُ سَيِّئَاتِهِ، كَمَا تَحُطُّ(٣) الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا**». (٤)

* وعَنْ جُنْدَبِ بْنِ سُفْيَانَ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ فِي بَعْضِ المَشَاهِدِ وَقَدْ دَمِيَتْ(٥) إِصْبَعُهُ، فَقَالَ: «**هَلْ أَنْتِ إِلَّا إِصْبَعٌ دَمِيتِ، وَفِي سَبِيلِ اللهِ مَا لَقِيتِ**». (٦)

* وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: دَخَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَىٰ أَبِي سَيْفٍ القَيْنِ(٧)، وَكَانَ ظِئْرًا (٨) لِإِبْرَاهِيمَ عليه السلام، فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِبْرَاهِيمَ،

---

(١) البخاري- الفتح ٦ (٣٢٣١) واللفظ له، مسلم (١٧٩٥).

(٢) توعك: الوعك قيل الحمىٰ وقيل ألمها.

(٣) تحط: تلقيه منتشرا.

(٤) البخاري: (٥٦٦٠) واللفظ له، مسلم (٢٥٧١).

(٥) دميت: أي جرحت وخرج منها الدم

(٦) البخاري- الفتح ١٠ (٦١٤٦)، ومسلم (١٧٩٦) واللفظ له.

(٧) القين: الحدّاد.

(٨) الظئر: المرضعة ولد غيرها واللفظ له. وزوجها ظئر لذلك الرضيع.

فَقَبَّلَهُ، وَشَمَّهُ، ثُمَّ دَخَلْنَا عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِبْرَاهِيمُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ، فَجَعَلَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللهِ ﷺ تَذْرِفَانِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رضي الله عنه: وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ: يَا ابْنَ عَوْفٍ إِنَّهَا رَحْمَةٌ، ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَىٰ، فَقَالَ ﷺ: «**إِنَّ العَيْنَ تَدْمَعُ، وَالقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَىٰ رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ**».(١)

● **موقف أيوب عليه السلام في الصبر على البلاء والرضا بالقضاء:**

إن أيوب عليه السلام ابتلي في جسده بأنواع من البلاء، فما زاده ذلك إلا صبرًا واحتسابًا، وحمدًا وشكرًا، حتىٰ أن المثل ليضرب بصبره عليه السلام.

* قال تعالىٰ: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿٤٤﴾ ﴾ [ص:٤١ - ٤٤].

يقول ابن كثير: يُذَكِّر تبارك وتعالىٰ عبده ورسوله أيوب عليه الصلاة والسلام وَمَا كَانَ ابْتَلَاهُ تَعَالَىٰ بِهِ مِنَ الضُّرِّ فِي جَسَدِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ حَتَّىٰ لَمْ يَبْقَ في جسده مغرز إبرة سليمان سِوَىٰ قَلْبِهِ، وَلَمْ يَبْقَ لَهُ مَنْ حَالِ الدُّنْيَا شَيْءٌ يَسْتَعِينُ بِهِ عَلَىٰ مَرَضِهِ وَمَا هُوَ فِيهِ غَيْرَ أَنَّ زَوْجَتَهُ حَفِظَتْ وِدَّهُ لإيمانها بالله تعالىٰ وَرَسُولِهِ فَكَانَتْ تَخْدُمُ النَّاسَ بِالْأُجْرَةِ وَتُطْعِمُهُ وَتَخْدُمُهُ نَحْوًا مِنْ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةٍ، وَقَدْ كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ فِي مَالٍ جَزِيلٍ وَأَوْلَادٍ وَسَعَةٍ طائلة في الدُّنْيَا،

---

(١) البخاري- الفتح ٣ (١٣٠٣) واللفظ له، ومسلم (٢٣١٥).

فَسُلِبَ جَمِيعَ ذَلِكَ حَتَّىٰ آلَ بِهِ الْحَالُ إِلَىٰ أَنْ أُلْقِيَ عَلَىٰ مَزْبَلَةٍ مِنْ مَزَابِلِ الْبَلْدَةِ هَذِهِ الْمُدَّةَ بِكَمَالِهَا وَرَفَضَهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ سِوَىٰ زَوْجَتِهِ رضي الله عنها فَإِنَّهَا كانت لا تفارقه صباحا ومساء إِلَّا بِسَبَبِ خِدْمَةِ النَّاسِ ثُمَّ تَعُودُ إِلَيْهِ قَرِيبًا، فَلَمَّا طَالَ الْمَطَالُ، وَاشْتَدَّ الْحَالُ، وَانْتَهَىٰ الْقَدَرُ الْمَقْدُورُ، وَتَمَّ الْأَجَلُ الْمُقَدَّرُ تَضَرَّعَ إِلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَإِلَهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ ﴿**أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ** ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء:٨٣] وفي هذه الآية الكريمة قال: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾ [ص:٤١] فِي مَالِي وَوَلَدِي فَعِنْدَ ذَلِكَ اسْتَجَابَ لَهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ وَأَمَرَهُ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَقَامِهِ وَأَنْ يَرْكُضَ الْأَرْضَ بِرِجْلِهِ فَفَعَلَ فأنبع الله تعالىٰ عينا وأمره أن يغتسل منها فأذهبت جَمِيعَ مَا كَانَ فِي بَدَنِهِ مِنَ الْأَذَىٰ، ثُمَّ أَمَرَهُ فَضَرَبَ الْأَرْضَ فِي مَكَانٍ آخَرَ فَأَنْبَعَ لَهُ عَيْنًا أُخْرَىٰ وَأَمَرَهُ أَنْ يَشْرَبَ منها فأذهبت جميع مَا كَانَ فِي بَاطِنِهِ مِنَ السُّوءِ وَتَكَامَلَتِ العافية ظاهرًا وباطنًا، ولهذا قال تبارك وتعالىٰ: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص:٤٢].

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ جَمِيعًا حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَىٰ أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ أَخْبَرَنِي نَافِعُ بْنُ يَزِيدَ عَنْ عُقَيْلٍ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «**إِنَّ نَبِيَّ اللهِ أيوب عليه الصلاة والسلام لَبِثَ بِهِ بَلَاؤُهُ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ سَنَةً فَرَفَضَهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ إِلَّا رَجُلَيْنِ كَانَا مِنْ أَخَصِّ إِخْوَانِهِ بِهِ كَانَا يَغْدُوَانِ إِلَيْهِ وَيَرُوحَانِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ تَعَلَّمْ وَاللهِ لَقَدْ أَذْنَبَ أَيُّوبُ ذَنْبًا مَا أَذْنَبَهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ مُنْذُ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ سَنَةً لَمْ يرحمه الله فَيَكْشِفَ مَا بِهِ فَلَمَّا رَاحَا إِلَيْهِ لَمْ يَصْبِرِ**

الرَّجُلُ حَتَّىٰ ذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ أَيُّوبُ عَلَيْهِ الصلاة والسلام لَا أَدْرِي مَا تَقُولُ غَيْرَ أَنَّ اللهَ ﷻ يَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أَمُرُّ عَلَىٰ الرَّجُلَيْنِ يَتَنَازَعَانِ فيذكران الله تعالىٰ فَأَرْجِعُ إِلَىٰ بَيْتِي فَأُكَفِّرُ عَنْهُمَا كَرَاهِيَةَ أَنْ يذكر الله تعالىٰ إِلَّا فِي حَقٍّ، قَالَ وَكَانَ يَخْرُجُ إِلَىٰ حَاجَتِهِ فَإِذَا قَضَاهَا أَمْسَكَتِ امْرَأَتُهُ بِيَدِهِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَبْطَأَ عَلَيْهَا فأوحىٰ الله تبارك وتعالىٰ إلىٰ أيوب عليه الصلاة والسلام أَنِ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَشَرابٌ فاستبطأته فالتفتت تنظر فأقبل عليها وقد أَذْهَبَ اللهُ مَا بِهِ مِنَ الْبَلَاءِ وَهُوَ عَلَىٰ أَحْسَنِ مَا كَانَ فَلَمَّا رَأَتْهُ قَالَتْ أَيْ بَارَكَ اللهُ فِيكَ هَلْ رَأَيْتَ نَبِيَّ الله هذا المبتلىٰ، فو الله عَلَىٰ ذَلِكَ مَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَشْبَهَ بِهِ مِنْكَ إِذْ كَانَ صَحِيحًا قَالَ فَإِنِّي أَنَا هُوَ، قَالَ وَكَانَ لَهُ أَنْدَرَانِ [1] أَنْدَرُ لِلْقَمْحِ وَأَنْدَرُ لِلشَّعِيرِ فَبَعَثَ اللهُ تعالىٰ سَحَابَتَيْنِ فَلَمَّا كَانَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَىٰ أَنْدَرِ الْقَمْحِ أَفْرَغَتْ فِيهِ الذَّهَبَ حَتَّىٰ فَاضَ وَأَفْرَغَتِ الْأُخْرَىٰ فِي أَنْدَرِ الشَّعِيرِ حَتَّىٰ فَاضَ.[2]

✍ **قال الحافظ ابن حجر**: وَأَصَحُّ مَا وَرَدَ فِي قصَّته مَا أخرجه بن أبي حَاتِم وبن جريج وَصَححهُ بن حِبَّانَ وَالْحَاكِمُ مِنْ طَرِيقِ نَافِعِ بْنِ يَزِيدَ عَنْ عُقَيْلٍ عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ أَيُّوبَ عليه السلام ابْتُلِيَ فَلَبِثَ فِي بَلَائِهِ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً فَرَفَضَهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ إِلَّا رَجُلَيْنِ مِنْ إِخْوَانِهِ فَكَانَا يَغْدُوَانِ إِلَيْهِ وَيَرُوحَانِ فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِلْآخَرِ لَقَدْ أَذْنَبَ أَيُّوبُ ذَنْبًا عَظِيمًا وَإِلَّا لَكُشِفَ عَنْهُ هَذَا الْبَلَاءُ فَذَكَرَهُ الْآخَرُ لِأَيُّوبَ يَعْنِي فَحَزِنَ وَدَعَا اللهَ حِينَئِذٍ فَخَرَجَ لِحَاجَتِهِ وَأَمْسَكَتِ

---

(١) الأندر: بيت يجمع فيه الطعام.

(٢) تفسير الطبري ١٠/ ٥٨٩- ٥٩٠، وتفسير ابن كثير: (٧/ ٦٥/ ٦٦).

امْرَأَتُهُ بِيَدِهِ فَلَمَّا فَرَغَ أَبْطَأَتْ عَلَيْهِ فَأَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِ أَنِ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ فَضَرَبَ بِرِجْلِهِ الْأَرْضَ فَنَبَعَتْ عَيْنٌ فَاغْتَسَلَ مِنْهَا فَرَجَعَ صَحِيحًا فَجَاءَتِ امْرَأَتُهُ فَلَمْ تَعْرِفْهُ فَسَأَلَتْهُ عَنْ أَيُّوبَ فَقَالَ إِنِّي أَنَا هُوَ وَكَانَ لَهُ أَنْدَرَانِ أَحَدُهُمَا لِلْقَمْحِ وَالْآخَرُ لِلشَّعِيرِ فَبَعَثَ اللهُ لَهُ سَحَابَةً فَأَفْرَغَتْ فِي أَنْدَرِ الْقَمْحِ الذَّهَبَ حَتَّىٰ فَاضَ وَفِي أَنْدَرِ الشَّعِيرِ الْفضة حَتَّىٰ فاض وروىٰ بن أبي حَاتِم نَحوه من حَدِيث بن عَبَّاسٍ وَفِيهِ فَكَسَاهُ اللهُ حُلَّةً مِنْ حُلَلِ الْجَنَّةِ فَجَاءَتِ امْرَأَتُهُ فَلَمْ تَعْرِفْهُ فَقَالَتْ يَا عَبْدَ اللهِ هَلْ أَبْصَرْتَ الْمُبْتَلَىٰ الَّذِي كَانَ هُنَا فَلَعَلَّ الذِّئَابَ ذَهَبَتْ بِهِ فَقَالَ وَيْحَكِ أَنا هُوَ وروىٰ بن أَبِي حَاتِمٍ مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُبَيْدِ ابْنِ عُمَيْرٍ نَحْوَ حَدِيثِ أَنَسٍ وَفِي آخِرِهِ قَالَ فَسَجَدَ وَقَالَ وَعِزَّتِكَ لَا أَرْفَعُ رَأْسِي حَتَّىٰ تَكْشِفَ عَنِّي فَكَشَفَ عَنْهُ وَعَنِ الضَّحَّاكِ عَن بن عَبَّاسٍ رَدَّ اللهُ عَلَىٰ امْرَأَتِهِ شَبَابَهَا حَتَّىٰ وَلَدَتْ لَهُ سِتَّةً وَعِشْرِينَ وَلَدًا ذَكَرًا وَذَكَرَ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ فِي الْمُبْتَدَإِ قِصَّةً مُطَوَّلَةً جِدًّا وَحَاصِلُهَا أَنَّهُ كَانَ بِحُورَانَ وَكَانَ لَهُ الْبَثْنِيَّةُ سَهْلُهَا وَجَبَلُهَا وَلَهُ أَهْلٌ وَمَالٌ كَثِيرٌ وَوَلَدٌ فَسُلِبَ ذَلِكَ كُلُّهُ شَيْئًا فَشَيْئًا وَهُوَ يَصْبِرُ وَيَحْتَسِبُ ثُمَّ ابْتُلِيَ فِي جَسَدِهِ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْبَلَاءِ حَتَّىٰ أُلْقِيَ خَارِجًا مِنَ الْبَلَدِ فَرَفَضَهُ النَّاسُ إِلَّا امْرَأَتَهُ فَبَلَغَ مِنْ أَمْرِهَا أَنَّهَا كَانَتْ تَخْدُمُ بِالْأُجْرَةِ وَتُطْعِمُهُ إِلَىٰ أَنْ تَجَنَّبَهَا النَّاسُ خَشْيَةَ الْعَدْوَىٰ فَبَاعَتْ إِحْدَىٰ ضَفِيرَتَيْهَا مِنْ بَعْضِ بَنَاتِ الْأَشْرَافِ وَكَانَتْ طَوِيلَةً حَسَنَةً فَاشْتَرَتْ لَهُ بِهِ طَعَامًا طَيِّبًا فَلَمَّا أَحْضَرَتْهُ لَهُ حَلَفَ أَنْ لَا يَأْكُلَهُ حَتَّىٰ تُخْبِرَهُ مِنْ أَيْنَ لَهَا ذَلِكَ فَكَشَفَتْ عَنْ رَأْسِهَا فَاشْتَدَّ حُزْنُهُ وَقَالَ حِينَئِذٍ رَبِّ إِنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فعافاه الله تَعَالَىٰ وروىٰ بن أَبِي حَاتِمٍ عَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّ أَيُّوبَ أَوَّلُ مَنْ أَصَابَهُ الْجُدَرِيُّ وَمِنْ طَرِيقِ الْحَسَنِ أَنَّ إِبْلِيسَ أَتَىٰ امْرَأَتَهُ فَقَالَ لَهَا إِنْ أَكَلَ أَيُّوبُ وَلَمْ

يُسَمِّ عُوفِيَ فَعَرَضَتْ ذَلِكَ عَلَىٰ أَيُّوبَ فَحَلَفَ لَيَضْرِبَنَّهَا مِائَةً فَلَمَّا عُوفِيَ أَمَرَهُ اللهُ أَنْ يَأْخُذَ عُرْجُونًا فِيهِ مِائَةُ شِمْرَاخٍ فضربها ضَرْبَةً وَاحِدَةً وَقِيلَ بَلْ قَعَدَ إِبْلِيسُ عَلَىٰ الطَّرِيقِ فِي صُورَةِ طَبِيبٍ فَقَالَ لَهَا إِذَا دَاوَيْتُهُ فَقَالَ أَنْتَ شَفَيْتَنِي قَنَعْتُ بِذَلِكَ فَعَرَضَتْ ذَلِكَ عَلَيْهِ فَغَضِبَ وَكَانَ مَا كَانَ وَذَكَرَ الطَّبَرِيُّ أَنَّ اسْمَهَا لِيَا بِنْتُ يَعْقُوبَ وَقِيلَ رَحْمَة بِنْتُ يُوسُفَ بْنِ يَعْقُوبَ وَقِيلَ بِنْتُ إِفْرَائِيمَ أَو مِيشَا بن يُوسُف وَأَفَاد بن خَالَوَيْهِ أَنَّهُ يُقَالُ لَهَا أُمُّ زَيْدٍ وَاخْتُلِفَ فِي مُدَّةِ بَلَائِهِ فَقِيلَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً كَمَا تَقَدَّمَ وَقِيلَ ثَلَاثُ سِنِينَ وَهَذَا قَوْلُ وَهْبٍ وَقِيلَ سَبْعُ سِنِينَ وَهُوَ عَنِ الْحَسَنِ وَقَتَادَةَ وَقِيلَ إِنَّ امْرَأَتَهُ قَالَتْ لَهُ أَلَا تَدْعُو اللهَ لِيُعَافِيَكَ فَقَالَ قَدْ عِشْتُ صَحِيحًا سَبْعِينَ سَنَةً أَفَلَا أَصْبِرُ سَبْعَ سِنِينَ وَالصَّحِيحُ مَا تَقَدَّمَ أَنَّهُ لَبِثَ فِي بَلَائِهِ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً وَرَوَىٰ الطَّبَرِيُّ أَنَّ مُدَّةَ عُمْرِهِ كَانَتْ ثَلَاثًا وَتِسْعِينَ سَنَةً فَعَلَىٰ هَذَا فَيَكُونُ عَاشَ بَعْدَ أَنْ عُوفِيَ عَشْرَ سِنِينَ وَاللهُ أعلم. (١)

ففي قصة أيوب عليه السلام عبرة للمعتبرين، فإنه صبر هذا الصبر الجميل علىٰ ذهاب ماله وأقاربه وصحته، وثبت علىٰ حبه لله عز وجل وصبره علىٰ قضائه وقدره، واقتصاره علىٰ الشكوىٰ إلىٰ الله عز وجل، وهي لا تنافي الصبر؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ﴾ [ص:٤٤]، مع أنه شكىٰ إلىٰ الله وقال: ﴿**أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣**﴾ [الأنبياء:٨٣].

- **موقف أبي عبيدة بن الجراح في الصبر:**

أبو عبيدة هو أحد العشرة المبشرين بالجنة رضي الله عنهم، شهد بدرًا وقتل يومئذ

---

(١) فتح الباري: (٦/ ٤٢١/ ٤٢٢).

أباه، وأبلىٰ يوم أحد بلاءً حسنًا، ونزع الحلقتين اللتين دخلتا من المغفر في وجنتي رسول الله ﷺ، فانقلعت ثنيتاه، فحسن ثغره بذهابهما، حتىٰ قيل: ما رئي هتم قط أحسن من هتم أبي عبيدة.

فرضيه أبو بكر رضي الله عنه خليفة بعد رسول الله ﷺ فقال:

قَدْ رَضِيتُ لَكُمْ أَحَدَ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ، عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ. (١)

وثبت عنه ﷺ أنه قال: أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ ابْنُ الْجَرَّاحِ. (٢)

ومناقبه رضي الله عنه كثيرة شهيرة، ومواقفه الإيمانية عالية رفيعة في البذل والتضحية والزهد، وإنما قصدنا موقفه الإيماني عند نزول وباء الطاعون.

عن قيس بن مسلم عن طارق أن عمر كتب إلىٰ أبي عبيدة في الطاعون: إنه قد عرضت لي حاجة، ولا غنىٰ بي عنك.

كان أبو عبيدة في هذا الوقت علىٰ رأس جيش في الشام، فلما سمع عمر رضي الله عنه بوقوع طاعون عمواس(٣) أرسل إلىٰ أبي عبيدة، فقال له: إني قد عرضت لي حاجة، ولا غنىٰ بي عنك فيها، فعجل إليَّ، فلما قرأ الكتاب قال:

---

(١) كتاب الردة للواقدي: (ص: ٣٧). وانظر: أسد الغابة: (٣/ ١٢٥).

(٢) صحيح البخاري: (٣٧٤٤).

(٣) طاعون عمواس منسوب إلىٰ قرية عمواس، وهي بين الرملة وبين بيت المقدس، وأما الأصمعي فقال: هو من قولهم زمن الطاعون: عم وآسي. انظر: تاريخ الإسلام ط التوفيقية (٣/ ١٩٠).

عرفت حاجة أمير المؤمنين؛ إنه يريد أن يستبقي ما ليس بباق.

فكتب: إني قد عرفت حاجتك، فحللني من عزيمتك؛ فإني في جند من أجناد المسلمين، لا أرغب بنفسي عنهم، فلما قرأ عمر الكتاب، بكي، فقيل له: مات أبو عبيدة؟ قال: لا. وكأن قد. قال: فتوفي أبو عبيدة، وانكشف الطاعون. (١)

وروىٰ ابن المبارك في الزهد عن شهر بن حوشب - وهو مختلف فيه- قال: حدثني عبد الرحمن بن غنم عن الحارث بن عميرة قال: أخذ بيدي معاذ بن جبل فأرسله إلىٰ أبي عبيدة فسأله: كيف هو؟ وقد طعن، فأراه أبو عبيدة طعنة(٢)، خرجت في كفه، فتكاثر شأنها في نفس الحارث وفرق منها حين رآها(٣)،، فأقسم أبو عبيدة بالله إنه ما يحب أن له مكانها حمر النعم.(٤)

فصبره رضي الله عنه وعدم استجابته لاستدعاء أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ثم رضاه بما أصيب به من الطاعون وعدم تمنيه زوال البلاء هو عين الرضا.

فالإنسان لا يتمنىٰ البلاء أبدًا، لأن ساحة العافية هي أوسع، ولكن إذا نزل بلاء فيصير ميدان الصبر هو الميدان الواسع، وأعلىٰ منه ميدان الرضا، وهو عدم تمني زوال ما هو فيه.

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر: (٢٥/ ٤٨٥).

(٢) يعني: إصابة الطاعون، وهو يظهر علىٰ شكل أورام يصيب الغدد اللمفاوية، ويظل ينتشر في أماكن متفرقة في الجسم، وينتقل إلىٰ الرئتين وغير ذلك.

(٣) انزعج عندما رأىٰ هذه الطعنة.

(٤) تاريخ الإسلام: (٣/ ١٨٩).

فصبره رضي الله عنه وعدم استجابته لاستدعاء أمير المؤمنين عمر ثم رضاه بما أصيب به من الطاعون وعدم تمنيه زوال البلاء هو عين الرضا، وهو أعلىٰ الدرجات، ومن أولىٰ بذلك من الصحابة الكرام، ثم من أولىٰ بكل فضيلة من العشرة المبشرين رضي الله عنهم أجمعين.

- **موقف سعد بن أبي وقاص في الصبر:**

لما قدم سعد بن أبي وقاص مكة وقد كان كف بصره جاءه الناس يهرعون إليه كل واحد يسأله أن يدعو له، فيدعو لهذا ولهذا، وكان مجاب الدعوة.

قال عبد الله بن السائب: فأتيته وأنا غلام، فتعرفت إليه فعرفني، وقال: أنت قارئ أهل مكة؟ قلت: نعم فذكر قصة قال في آخرها: فقلت له: يا عم! أنت تدعو للناس، فلو دعوت لنفسك فرد الله عليك بصرك، فتبسم وقال: يا بني! قضاء الله سبحانه عندي أحسن من بصري. (١)

- **موقف عمر بن عبد العزيز في الصبر:**

* عن الربيع بن سبرة قال: قُلْتُ لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ- وَقَدْ هَلَكَ ابْنُهُ وَأَخُوهُ وَمَوْلَاهُ مُزَاحِمٌ فِي أَيَّام- يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا رَأَيْتُ رَجُلًا أُصِيبَ فِي أَيَّامٍ مُتَوَالِيَةٍ بأعظم من مصيبتك، ما رَأَيْتُ مِثْلَ ابْنِكَ ابْنًا، وَلَا مِثْلَ أَخِيكَ أَخًا، وَلَا مِثْلَ مَوْلَاكَ مَوْلًىٰ. قَالَ: فَنكَسَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ لِي: كَيْفَ قُلْتَ يَا رَبِيعُ؟ فَأَعَدْتُهَا عَلَيْهِ. فَقَالَ: لَا وَالَّذِي قَضَىٰ عَلَيْهِمُ الْمَوْتَ مَا أُحِبُّ أَنَّ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ

---

(١) إحياء علوم الدين: (٤/ ٣٥٠).

كَانَ لَمْ يَكُنْ مِنَ الَّذِي أَرْجُو مِنَ اللهِ فِيهِمْ.(١)

- **موقف إبراهيم الحربي في الصبر:**

* عن محمد بن خلف قال: كان لإبراهيم الحربي ابن كان له إحدىٰ عشرة سنة، حفظ القرآن ولقنه من الفقه جانبًا كبيرًا، قال: فمات، فجئت أعزيه فقال: كنت أشتهي موت ابني هذا، قال: فقلت له: يا أبا إسحاق! أنت عالم الدنيا، تقول مثل هذا في صبي قد أنجب ولقنته الحديث والفقه؟! قال: نعم، رأيت في منامي كأن القيامة قد قامت، وكأن صبيانًا بأيديهم قلال فيها ماء يستقبلون الناس فيسقونهم، وكان اليوم يومًا حارًا شديد الحر، قال: فقلت لأحدهم: اسقني من هذا الماء، فنظر إلي، وقال: لست أنت أبي، قلت: فأي شيء أنتم؟ قال لي: نحن الصبيان الذين متنا في دار الدنيا وخلفنا آباءنا فنستقبلهم نسقيهم الماء، قال: فلهذا تمنيت موته. (٢)

فهذا موقف إيماني من إبراهيم الحربي رحمه الله في الصبر، وفي هذا تسلية لمن مات له ولد، وقد وردت الأخبار الصحيحة الصريحة بكثير من المبشرات لمن مات له ولد فصبر واحتسب، وما ذاك إلا لصعوبة الصبر والرضا في هذا المقام؛ لأن الأولاد فلذات الأكباد، والعبد لا يحب لأحد من الخير مثل ما يحب لنفسه إلا لولده.

بل الإنسان قد يضحي بنفسه ولكن يشق عليه أن يضحي بابنه.

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر: (١٨/ ٧٢). وانظر: المعرفة والتاريخ: (١/ ٦١٠).
(٢) تسلية أهل المصائب (ص: ٣٢).وانظر: الكبائر للذهبي (ص: ١٩٣).وانظر: صفة الصفوة (١/ ٥١٥).

ولذلك كان ابتلاء إبراهيم عليه السلام من أشد البلاء، فالعبد يسهل عليه أن تهون نفسه، وأن يضحي بنفسه، أما أن يضحي بولده وأن يتولىٰ هو ذبح الولد بنفسه فهذا شيء شاق، فلله هذه النفوس التي تبتلىٰ بمثل هذا البلاء.

- **قصة أبي قلابة في الصبر على البلاء:**

* عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُحَمَّدٍ قَالَ خَرَجْتُ إِلَىٰ سَاحِلِ الْبَحْرِ مُرَابِطًا وَكَانَ رَابِطُنَا يَوْمَئِذٍ عَرِيشَ مِصْرَ قَالَ فَلَمَّا انْتَهَيْتُ إِلَىٰ السَّاحِلِ فَإِذَا أَنَا بِبَطِيحَةٍ وَفِي الْبَطِيحَةِ خيمة فِيهَا رجل قد ذهب يَدَاهُ وَرجلَاهُ وَثقل سَمعه وبصره وَمَا لَهُ من جارحة تَنْفَعهُ إِلَّا لِسَانه وَهُوَ يَقُولُ اللَّهُمَّ أَوْزِعْنِي أَن أحمدك حمدًا أكافئ بِهِ شُكْرَ نِعْمَتِكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ بِهَا عَلَيَّ وَفَضَّلْتَنِي علىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْتَ تَفْضِيلًا.

قَالَ الأَوْزَاعِيُّ قَالَ عَبْدُ اللهِ قُلْتُ: وَاللهِ لآتِيَنَّ هَذَا الرَّجُلَ، وَلأَسْأَلَنَّهُ أَنَّىٰ لَهُ هَذَا الْكَلامُ فَهْمٌ أم عِلْمٌ أم إِلْهَامٌ أُلْهِمَ فَأَتَيْتُ الرَّجُلَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقُلْتُ: سَمِعْتُكَ وَأَنْتَ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَوْزِعْنِي أَنْ أحمدك حمدا أكافئ بِهِ شُكْرَ نِعْمَتِكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ بِهَا عَلَيَّ وَفَضَّلْتَنِي علىٰ كَثِيرٍ من خَلَقْتَ تَفْضِيلا فَأَيُّ نِعْمَةٍ مِنْ نِعَمِ اللهِ عَلَيْكَ تَحْمَدُهُ عَلَيْهَا وَأَيُّ فَضِيلَةٍ تَفَضَّلَ بِهَا عَلَيْكَ تَشْكُرُهُ عَلَيْهَا؟

قَالَ: وَمَا تَرَىٰ مَا صَنَعَ رَبِّي وَاللهِ لَوْ أَرْسَلَ السَّمَاءَ عَلَيَّ نَارًا فَأَحْرَقَتْنِي وَأَمَرَ الْجِبَالَ فَدَمَّرَتْنِي وَأَمَرَ الْبِحَارَ فَغَرَّقَتْنِي وَأَمَرَ الأَرْضَ فَبَلَعَتْنِي مَا ازْدَدْتُ لِرَبِّي إِلا شُكْرًا لِمَا أَنْعَمَ عَلَيَّ مِنْ لِسَانِي هَذَا، وَلَكِنْ يَا عَبْدَ اللهِ إِذْ أَتَيْتَنِي لِي إِلَيْكَ حَاجَةٌ قَدْ تَرَانِي علىٰ أَيِّ حَالَةٍ أَنَا أَنَا لَسْتُ أَقْدِرُ لِنَفْسِي علىٰ ضُرٍّ وَلا نَفْعٍ، وَلَقَدْ كَانَ مَعِيَ بُنَيٌّ لِي يَتَعَاهَدُنِي فِي وَقت صَلَاتِي فيوضيني، وَإِذَا جُعْتُ أَطْعَمَنِي وَإِذَا عَطِشْتُ سَقَانِي، وَلَقَدْ فَقَدْتُهُ مُنْذُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فَتَحَسَّسْهُ لِي رَحِمَكَ

اللهُ.

فَقُلْتُ: وَاللهِ مَا مَشَىٰ خَلْقٌ فِي حَاجَةِ خَلْقٍ كَانَ أَعْظَمَ عِنْدَ اللهِ أَجْرًا مِمَّنْ يَمْشِي فِي حَاجَةِ مِثْلِكَ.

فَمَضَيْتُ فِي طَلَبِ الْغُلامِ فَمَا مَضَيْتُ غَيْرَ بَعِيدٍ حَتَّىٰ صِرْتُ بَيْنَ كُثْبَانٍ مِنَ الرَّمْلِ فَإِذَا أَنَا بِالْغُلامِ قَدِ افْتَرَسَهُ سَبُعٌ وَأَكَلَ لَحْمَهُ فَاسْتَرْجَعْتُ وَقُلْتُ: أَنَّىٰ لِي وَجْهٌ رَقِيقٌ آتِي بِهِ الرَّجُلَ فَبَيْنَمَا أَنَا مُقْبِلٌ نَحْوَهُ إِذْ خَطَرَ علىٰ قَلْبِي ذِكْرُ أَيُّوبَ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا أَتَيْتُهُ سَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلامَ فَقَالَ: أَلَسْتَ بِصَاحِبِي قُلْتُ: بَلَىٰ قَالَ: مَا فَعَلْتَ فِي حَاجَتِي فَقُلْتُ: أَنْتَ أَكْرَمُ علىٰ اللهِ أَمْ أَيُّوبُ النَّبِيُّ؟

قَالَ: بَلْ أَيُّوبُ النَّبِيُّ قُلْتُ: هَلْ عَلِمْتَ مَا صَنَعَ بِهِ رَبُّهُ أَلَيْسَ قَدِ ابْتَلاهُ بِمَالِهِ وَآلِهِ وَوَلَدِهِ؟

قَالَ: بَلَىٰ قُلْتُ: فَكَيْفَ وَجَدَهُ قَالَ: وَجَدَهُ صَابِرًا شَاكِرًا حَامِدًا قُلْتُ: لَمْ يَرْضَ مِنْهُ ذَلِكَ حَتَّىٰ أَوْحَشَ مِنْ أَقْرِبَائِهِ وَأَحِبَّائِهِ قَالَ: نَعَمْ قُلْتُ: فَكَيْفَ وَجَدَهُ رَبُّهُ قَالَ: وَجَدَهُ صَابِرًا شَاكِرًا حَامِدًا قُلْتُ: فَلَمْ يَرْضَ مِنْهُ بِذَلِكَ حَتَّىٰ صَيَّرَهُ عَرَضًا لِمَارِّ الطَّرِيقِ هَلْ عَلِمْتَ؟ قَالَ: نَعَمْ.

قُلْتُ: فَكَيْفَ وَجَدَهُ رَبُّهُ؟ قَالَ: صَابِرًا شَاكِرًا حَامِدًا أَوْجِزْ رَحِمَكَ اللهُ قُلْتُ: لَهُ إِنَّ الْغُلامَ الَّذِي أَرْسَلْتَنِي فِي طَلَبِهِ وَجَدْتُهُ بَيْنَ كُثْبَانِ الرَّمْلِ وَقَدِ افْتَرَسَهُ سَبُعٌ فَأَكَلَ لَحْمَهُ فَأَعْظَمَ اللهُ لَكَ الأَجْرَ وَأَلْهَمَكَ الصَّبْرَ.

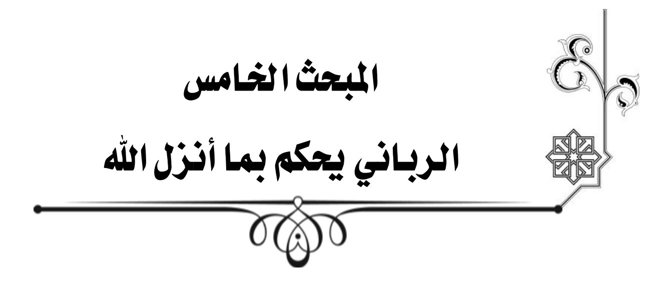
فَقَالَ: الْمُبْتَلَىٰ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَخْلُقْ مِنْ ذُرِّيَّتِي خَلْقًا يَعْصِيهِ فَيُعَذِّبَهُ

بِالنَّارِ ثُمَّ اسْتَرْجَعَ وَشَهَقَ شَهْقَةً فَمَاتَ.

فَقُلْتُ: إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ عَظُمَتْ مُصِيبَتِي رَجُلٌ مِثْلُ هَذَا إِنْ تَرَكْتُهُ أَكَلَتْهُ السِّبَاعُ وَإِنْ قَعَدْتُ لَمْ أَقْدِرْ علىٰ ضُرٍّ وَلا نَفْعٍ فَسَجَّيْتُهُ بِشَمْلَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ وَقَعَدْتُ عِنْدَ رَأْسِهِ بَاكِيًا فَبَيْنَمَا أَنَا قَاعِدٌ إِذْ تَهَجَّمَ عَلَيَّ أَرْبَعَةُ رِجَالٍ فَقَالُوا: يَا عَبْدَ اللهِ مَا حَالُكَ وَمَا قِصَّتُكَ فَقَصَصْتُ عَلَيْهِمْ قِصَّتِي وَقِصَّتَهُ فَقَالُوا لِي: اكْشِفْ لَنَا عَنْ وَجْهِهِ فَعَسَىٰ أَنْ نَعْرِفَهُ فَكَشَفْتُ عَنْ وَجْهِهِ فَانْكَبَّ الْقَوْمُ عَلَيْهِ يُقَبِّلُونَ عَيْنَيْهِ مَرَّةً وَيَدَيْهِ أُخْرَىٰ وَيَقُولُونَ: بِأَبِي عَيْنٌ طَالَ مَا غَضَّتْ عَنْ مَحَارِمِ اللهِ وَبِأَبِي وَجِسْمُهُ طَالَ مَا كُنْتَ سَاجِدًا وَالنَّاسُ نِيَامٌ فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا يَرْحَمُكُمُ اللهُ فَقَالُوا: هَذَا أَبُو قِلابَةَ الْجَرْمِي صَاحب بن عَبَّاسٍ لَقَدْ كَانَ شَدِيدَ الْحُبِّ للهِ وَلِلنَّبِيِّ ﷺ فَغَسَّلْنَاهُ وَكَفَّنَّاهُ بِأَثْوَابٍ كَانَتْ مَعَنَا وَصَلَّيْنَا عَلَيْهِ وَدَفَنَّاهُ فَانْصَرَفَ الْقَوْمُ وَانْصَرَفْتُ إِلَىٰ رِبَاطِي فَلَمَّا أَنْ جَنَّ عَلَيَّ اللَّيْلُ وَضَعْتُ رَأْسِي فَرَأَيْتُهُ فِيمَا يَرَىٰ النَّائِمُ فِي رَوْضَةٍ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ وَعَلَيْهِ حُلَّتَانِ مِنْ حُلَلِ الْجَنَّةِ، وَهُوَ يَتْلُو الْوَحْيَ سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَىٰ الدَّارِ فَقُلْتُ: أَلَسْتَ بِصَاحِبِي؟ قَالَ: بَلَىٰ قُلْتُ: أَنَّىٰ لَكَ هَذَا؟ قَالَ: إِنَّ للهِ دَرَجَاتٍ لَا تُنَالُ إِلا بِالصَّبْرِ عِنْدَ الْبَلاءِ، وَالشُّكْرِ عِنْدَ الرَّخَاءِ مَعَ خَشْيَةِ اللهِ ﷻ فِي السِّرِّ وَالْعَلانِيَةِ.(١)

---

(١) الثقات لابن حبان: (٥/ ٣/ ٥).



المبحث الخامس
الرباني يحكم بما أنزل الله

من صفات الربانيين الحكم بما أنزل الله، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ ﴾ [المائدة:٤٤]، فالربانيون يحكمون بمنهج الله، وهذا أمر معلوم للمسلم، أن لله حكمًا وأمرًا، ولقد دَلَّ الْقُرْآنُ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ، عَلَىٰ أَنَّهُ لَا حُكْمَ لِغَيْرِ اللهِ، وَأَنَّ اتِّبَاعَ تَشْرِيعِ غَيْرِهِ كُفْرٌ بِهِ، وسنقف هنا عدَّة وقفات سريعة وهي كالتالي:

- **أولاً:** قال تَعَالَىٰ: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩ ﴾ [النساء:٥٩]:

أَمَرَ الله فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، بِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ تَنَازَعَ فِيهِ النَّاسُ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ أَنْ يُرَدَّ التَّنَازُعُ فِي ذَلِكَ إِلَىٰ كِتَابِ الله وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَىٰ قَالَ: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ ﴾ [النساء:٨٠]، وَأَوْضَحَ هَذَا الْمَأْمُورَ بِهِ هُنَا بِقَوْلِهِ: ﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ﴾ [الشورى:١٠]، وَيُفْهَمُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ التَّحَاكُمُ إِلَىٰ غَيْرِ كِتَابِ الله وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ، وَقَدْ أَوْضَحَ تَعَالَىٰ هَذَا الْمَفْهُومَ مُوَبِّخًا لِلْمُتَحَاكِمِينَ إِلَىٰ غَيْرِ كِتَابِ الله وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ مُبَيِّنًا أَنَّ الشَّيْطَانَ أَضَلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا عَنِ الْحَقِّ بِقَوْلِهِ: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن

قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ ﴾ [النساء:٦٠]، وَأَشَارَ إِلَىٰ أَنَّهُ لَا يؤمنْ أَحَدٌ حَتَّىٰ يَكْفُرَ بِالطَّاغُوتِ بِقَوْلِهِ: ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ [البقرة:٢٥٦].

وَمَفْهُومُ الشَّرْطِ أَنَّ مَنْ لَمْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ لَمْ يَسْتَمْسِكْ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَهُوَ كَذَلِكَ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَمْسِكْ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ فَهُوَ بِمَعْزِلٍ عَنِ الْإِيمَانِ؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ بالله هُوَ الْعُرْوَةُ الْوُثْقَىٰ، وَالْإِيمَانُ بِالطَّاغُوتِ يَسْتَحِيلُ اجْتِمَاعُهُ مَعَ الْإِيمَانِ بالله؛ لِأَنَّ الْكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ شَرْطٌ فِي الْإِيمَانِ بالله أَوْ رُكْنٌ مِنْهُ، كَمَا هُوَ صَرِيحُ قَوْلِهِ: ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ ﴾ [البقرة:٢٥٦].(١)

- **ثانيًا: قال تعالى: ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الكهف:٢٦]، أي أن الحكم لا يكون إلاَّ لله.**

✍ **يقول الشنقيطي**: قَرَأَ هَذَا الْحَرْفَ عَامَّةُ السَّبْعَةِ مَا عَدَا ابْنَ عَامِرٍ ﴿ وَلَا يُشْرِكُ ﴾ بِالْيَاءِ الْمُثَنَّاةِ التَّحْتِيَّةِ، وَضَمِّ الْكَافِ عَلَىٰ الْخَبَرِ، وَلَا نَافِيَةٌ وَالْمَعْنَىٰ: وَلَا يُشْرِكُ اللهُ جَلَّ وَعَلَا أَحَدًا فِي حُكْمِهِ، بَلِ الْحُكْمُ لَهُ وَحْدَهُ جَلَّ وَعَلَا لَا حُكْمَ لِغَيْرِهِ أَلْبَتَّةَ، فَالْحَلَالُ مَا أَحَلَّهُ تَعَالَىٰ، وَالْحَرَامُ مَا حَرَّمَهُ، وَالدِّينُ مَا شَرَعَهُ، وَالْقَضَاءُ مَا قَضَاهُ.

وَقَرَأَهُ ابْنُ عَامِرٍ(٢) مِنَ السَّبْعَةِ. «وَلَا تُشْرِكْ» بِضَمِّ التَّاءِ الْمُثَنَّاةِ الْفَوْقِيَّةِ

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: (١/ ٢٤٥).

(٢) قال الشاطبي:

.... وتشرك خطاب وهو بالجزم كمّلا

=

وَسُكُونِ الْكَافِ بِصِيغَةِ النَّهْيِ، أَيْ لَا تُشْرِكْ يَا نَبِيَّ اللهِ، أَوْ لَا تُشْرِكْ أَيُّهَا الْمُخَاطَبُ أَحَدًا فِي حُكْمِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، بَلْ أَخْلِصِ الْحُكْمَ للهِ مِنْ شَوَائِبِ شِرْكِ غَيْرِهِ فِي الْحُكْمِ.

وَحُكْمُهُ جَلَّ وَعَلَا الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الكهف:٢٦] شَامِلٌ لِكُلِّ مَا يَقْضِيهِ جَلَّ وَعَلَا. وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ التَّشْرِيعُ دُخُولًا أَوَّلِيًّا وَمَا تَضَمَّنَتْهُ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ مِنْ كَوْنِ الْحُكْمِ للهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِيهِ عَلَىٰ كِلْتَا الْقِرَاءَتَيْنِ جَاءَ مُبَيَّنًا فِي آيَاتٍ أُخَرَ. كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام:٥٧]، وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [يوسف:٤٠]، وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [يوسف:٦٧]، وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى:١٠]، وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ [غافر:١٢]، وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص:٨٨]، وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص:٧٠]، وَقَوْلِهِ: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠]. وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ

=

والمعنىٰ: قرأ ابن عامر: ولا تشرك في حكمه أحدا. بتاء الخطاب في يُشْرِكُ مع جزم الكاف وقرأ غيره بياء الغيب ورفع الكاف.

﴿إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام:١١٤]، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

وَيُفْهَمُ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الكهف:٢٦] أَنَّ مُتَّبِعِي أَحْكَامِ الْمُشَرِّعِينَ غَيْرِ مَا شَرَعَهُ اللهُ أَنَّهُمْ مُشْرِكُونَ بِاللهِ. (١)

• **ثالثًا: صِفَاتُ مَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يَكُونَ الْحُكْمُ لَهُ:**

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:١٠].

✍ **يقول الشنقيطي في تعليقه علىٰ هذه الآية:** اعْلَمْ أَنَّ اللهَ - جَلَّ وَعَلَا - بَيَّنَ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ صِفَاتِ مَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يَكُونَ الْحُكْمُ لَهُ، فَعَلَىٰ كُلِّ عَاقِلٍ أَنْ يَتَأَمَّلَ الصِّفَاتِ الْمَذْكُورَةَ الَّتِي سَنُوَضِّحُهَا الْآنَ - إِنْ شَاءَ اللهُ - وَيُقَابِلَهَا مَعَ صِفَاتِ الْبَشَرِ الْمُشَرِّعِينَ لِلْقَوَانِينِ الْوَضْعِيَّةِ، فَيَنْظُرُ هَلْ تَنْطَبِقُ عَلَيْهِمْ صِفَاتُ مَنْ لَهُ التَّشْرِيعُ، سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَىٰ عَنْ ذَلِكَ. فَإِنْ كَانَتْ تَنْطَبِقُ عَلَيْهِمْ - وَلَنْ تَكُونَ - فَلْيَتَّبِعْ تَشْرِيعَهُمْ.

وَإِنْ ظَهَرَ يَقِينًا أَنَّهُمْ أَحْقَرُ وَأَخَسُّ وَأَذَلُّ وَأَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ، فَلْيَقِفْ بِهِمْ عِنْدَ حَدِّهِمْ، وَلَا يُجَاوِزْهُ بِهِمْ إِلَىٰ مَقَامِ الرُّبُوبِيَّةِ. سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ فِي عِبَادَتِهِ أَوْ حُكْمِهِ أَوْ مُلْكِهِ.

فَمِنَ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الَّتِي أَوْضَحَ بِهَا - تَعَالَىٰ - صِفَاتِ مَنْ لَهُ الْحُكْمُ وَالتَّشْرِيعُ قَوْلُهُ هُنَا: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: (٣/ ٢٥٩).

[الشورى:١٠]، ثُمَّ قَالَ مُبَيِّنًا صِفَاتِ مَنْ لَهُ الْحُكْمُ: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗاۖ يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٢﴾ ﴾ [الشورىٰ: ١٠- ١٢].

فَهَلْ فِي الْكَفَرَةِ الْفَجَرَةِ الْمُشَرِّعِينَ لِلنُّظُمِ الشَّيْطَانِيَّةِ مَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُوصَفَ بِأَنَّهُ الرَّبُّ الَّذِي تُفَوَّضُ إِلَيْهِ الْأُمُورُ، وَيُتَوَكَّلُ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ - أَيْ خَالِقُهُمَا وَمُخْتَرِعُهُمَا - عَلَىٰ غَيْرِ مِثَالٍ سَابِقٍ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لِلْبَشَرِ أَزْوَاجًا، وَخَلَقَ لَهُمْ أَزْوَاجَ الْأَنْعَامِ الثَّمَانِيَةَ الْمَذْكُورَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ ﴾ [الأنعام:١٤٣] الْآيَةَ، وَأَنَّهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ، وَأَنَّهُ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ - أَيْ يُضَيِّقُهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ - وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

فَعَلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ أَنْ تَتَفَهَّمُوا صِفَاتِ مَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُشَرِّعَ وَيُحَلِّلَ وَيُحَرِّمَ، وَلَا تَقْبَلُوا تَشْرِيعًا مِنْ كَافِرٍ خَسِيسٍ حَقِيرٍ جَاهِلٍ. (١)

- **رابعًا: اعْلَمْ أَنَّ كُلَّ مُسْلِمٍ، يَجِبُ عَلَيْهِ فِي هَذَا الزَّمَانِ، تَأَمُّلُ هَذِهِ الْآيَاتِ، مِنْ سُورَةِ مُحَمَّد:**

أَي قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: (٧/ ٤٩).

﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [محمد: ٢٥ - ٢٨] - وَتَدَبُّرِهَا، وَالْحَذَرُ التَّامُّ مِمَّا تَضَمَّنَتْهُ مِنَ الْوَعِيدِ الشَّدِيدِ؛ لِأَنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ يَنْتَسِبُونَ لِلْمُسْلِمِينَ دَاخِلُونَ بِلَا شَكٍّ فِيمَا تَضَمَّنَتْهُ مِنَ الْوَعِيدِ الشَّدِيدِ؛ لِأَنَّ عَامَّةَ الْكُفَّارِ مِنْ شَرْقِيِّينَ وَغَرْبِيِّينَ كَارِهُونَ لِمَا نَزَّلَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَهُوَ هَذَا الْقُرْآنُ وَمَا يُبَيِّنُهُ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ السُّنَنِ. فَكُلُّ مَنْ قَالَ لِهَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ الْكَارِهِينَ لِمَا نَزَّلَهُ اللهُ: سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ، فَهُوَ دَاخِلٌ فِي وَعِيدِ الْآيَةِ.

وَأَحْرَىٰ مِنْ ذَلِكَ مِنْ يَقُولُ لَهُمْ: سَنُطِيعُكُمْ فِي الْأَمر كَالَّذِين يتبعُون الْقَوَانِينَ الْوَضْعِيَّةَ مُطِيعِينَ بِذَلِكَ لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللهُ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ لَا شَكَّ أَنَّهُمْ مِمَّنْ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ، وَأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ، وَأَنَّهُ مُحْبِطٌ أَعْمَالَهُمْ. فَاحْذَرْ كُلَّ الْحَذَرِ مِنَ الدُّخُولِ فِي الَّذِينَ قَالُوا: سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ. (١)

- **خامسًا: عواقب الحكم بغير ما أنزل الله:**

أ - من ترك الحكم بكتاب الله قصمه الله:

* عن علي - رضي الله عنه - قال: إِنِّي قَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**أَلَا**

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: (٧/ ٣٨٤).

إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ». فَقُلْتُ: مَا المَخْرَجُ مِنْهَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «كِتَابُ اللهِ فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، وَهُوَ الفَصْلُ لَيْسَ بِالهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ، وَمَنْ ابْتَغَىٰ الهُدَىٰ فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللهِ المَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسِنَةُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ العُلَمَاءُ، وَلَا يَخْلَقُ عَلَىٰ كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّىٰ قَالُوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ [الجن:١، ٢] مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هَدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ». (١)

ب -من أعظم أسباب تغير الدول:

وهذا قد جرىٰ مرة بعد مرة في زماننا وغير زماننا، ومن أراد الله سعادته؛ جعله يعتبر بما أصاب غيره، فيسلك مسلك من أيَّده الله ونصره، ويجتنب مسلك من خذله الله وأهانه؛ فإن الله يقول في كتابه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ۝٤١﴾ [الحج: ٤٠ – ٤١].

فقد وعد الله بنصر من ينصره، ونصره هو نصر كتابه ودينه ورسوله، لا نصر من يحكم بغير ما أنزل الله ويتكلم بما لا يعلم.

---

(١) رواه الترمذي: (رقم: ٢٩٥٦) ، والدارمي: (رقم: ٣٣٣٤) من طريق حسين بن علي الجعْفي عن حمزة الزيات عن أبي المختار الطائي عن ابن أخي الحارث الأعور عن الحارث الأعور عن علي به.

ج - وقوع البأس والتفرق:

* عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ، قَالَ: أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ، وَأَعُوذُ بِاللهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ، حَتَّىٰ يُعْلِنُوا بِهَا، إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ، وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ، إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ، وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ، وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ، إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللهِ، وَعَهْدَ رَسُولِهِ، إِلَّا سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ، فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللهِ، وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ، إِلَّا جَعَلَ اللهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ».(١)

- سادسًا: أمر يجب أن يُتفطَّن له:

✍ **قال ابن أبي العز شارح الطحاوية**: وهنا (٢) أمر يجب أن يُتفطَّن له، وهو أن الحكم بغير ما أنزل الله قد يكون كفرًا ينقل عن الملّة، وقد يكون معصيةً كبيرةً أو صغيرةً، ويكون كفرًا: إما مجازيًّا، وإما كفرًا أصغر، علىٰ القولين المذكورين، وذلك بحسب حال الحكم: فإنه إن اعتقد أنّ الحكم بما أنزل الله غير واجب، وأنه مخيَّر فيه، أو استهان به، مع تيقنه أنه حكم الله؛

---

(١) رواه ابن ماجة: (٤٠١٩)، ورواه أبو نعيم في الحلية: (٨/ ٣٣٣)، وفي سندهما ابن أبي مالك، خالد بن يزيد، وهو ضعيف، ورواه الحاكم في المستدرك: (٤/ ٥٤٠) بإسناد حسن. انظر: السلسلة الصحيحة: (رقم ١٠٦).

(٢) ذكر الشارح هذا الكلام عند شرحه لقول الطحاوي: ولا نكفر أحدًا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله....انظر: (ص٢٦٧).

فهـذا كفـرٌ أكـبر، وإن اعتقـد وجـوب الحكـم بمـا أنـزل الله، وعلمـه في هـذه الواقعـة(١)، وعـدل عنـه، مـع اعترافـه بأنـه مسـتحقٌّ للعقوبـة؛ فهـذا عـاصٍ، ويسمىٰ كافرًا كفرًا مجازيًّا أو كفرًا أصغر، وإن جهـل حكـم الله فيهـا، مـع بـذل جهده واستفراغ وسعه في معرفة الحكم وأخطائه؛ فهذا مخطئ، لـه أجرٌ علىٰ اجتهاده، وخطؤه مغفور. (٢)

تَنْبِيه:

يجـب التنبـه إِلَـىٰ الْفـرق بَـين النظـام الشَّـرْعِيّ، والنظـام الإداري فِـي الحاكمية.

اعْلَمْ أَنَّهُ يَجِبُ التَّفْصِيلُ بَيْنَ النِّظَامِ الْوَضْعِيِّ الَّذِي يقتضىٰ تحكيمـه الْكفْر بخالق السَّمَوَات وَالْأَرْضِ، وَبَيْنَ النِّظَامِ الَّذِي لَا يَقْتَضِي ذَلِكَ.

وَإِيضَاحُ ذَلِكَ أَنَّ النِّظَامَ قِسْمَانِ: إِدَارِيٌّ، وَشَرْعِيٌّ.

أَمَّا الْإِدَارِيُّ: الَّذِي يُرَادُ بِهِ ضَبْطُ الْأُمُورِ وَإِتْقَانُهَا عَلَىٰ وَجْهٍ غَيْرِ مُخَالِفٍ لِلشَّرْعِ، فَهَذَا لَا مَانِعَ مِنْهُ، وَلَا مُخَالِفَ فِيهِ مِنَ الصَّحَابَةِ، فَمَنْ بَعْدَهُمْ.

وَقَدْ عَمِلَ عُمَرُ ﵁ مِنْ ذَلِكَ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً مَا كَانَـتْ فِـي زَمَـنِ النَّبـي ﷺ، كَكَتْبِهِ أَسْمَاءَ الْجُنْدِ فِي دِيوَانٍ لِأَجْلِ الضَّبْطِ، وَمَعْرِفَةِ مَنْ غَابَ وَمَنْ حَضَرَ.

ومثال ذلك:

١- الْعَاقِلَة الَّتِي تَحْمِلُ دِيَةَ الْخَطَأِ، مَعَ أَنَّ النَّبي ﷺ لَـمْ يَفْعَـلْ ذَلِـك، وَلَـمْ

(١) هو هنا ؒ يتحدث عن الوقائع والقضايا الحالَّة.

(٢) انظر: شرح العقيدة الطحاوية: (٣٢٣).

يَعْلَمْ بِتَخَلُّفِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ وَصَلَ تَبُوكَ ﷺ.

٢- وَكَاشْتِرَائِهِ أَعْنِي عُمَرَ ﵁ دَارَ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ وَجَعْلِهِ إِيَّاهَا سِجْنًا فِي مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ، مَعَ أَنَّهُ ﷺ لَمْ يَتَّخِذْ سِجْنًا هُوَ وَلَا أَبُو بَكْرٍ.

فَمِثْلُ هَذَا مِنَ الْأُمُورِ الْإِدَارِيَّةِ الَّتِي تُفْعَلُ لِإِتْقَانِ الْأُمُورِ مِمَّا لَا يُخَالِف الشَّرْع لَا بَأْس بِهِ. كتنظيم شؤون الْمُوَظَّفِينَ، وَتَنْظِيمِ إِدَارَةِ الْأَعْمَالِ عَلَىٰ وَجْهٍ لَا يُخَالِفُ الشَّرْعَ. فَهَذَا النَّوْعُ مِنَ الْأَنْظِمَةِ الْوَضْعِيَّةِ لَا بَأْسَ بِهِ، وَلَا يَخْرُجُ عَنْ قَوَاعِدِ الشَّرْعِ مِنْ مُرَاعَاةِ الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ.

وَأَمَّا النِّظَامُ الشَّرْعِيّ: الْمُخَالف لتشريع خالقي السَّموَات وَالْأَرْض فتحكيمه كفر بخالق السَّموَات وَالْأَرْضِ.

كَدَعْوَىٰ أَنَّ تَفْضِيلَ الذَّكَرِ عَلَىٰ الْأُنْثَىٰ فِي الْمِيرَاثِ لَيْسَ بِإِنْصَافٍ، وَأَنَّهُمَا يَلْزَمُ اسْتِوَاؤُهُمَا فِي الْمِيرَاث.

وَكَدَعْوَىٰ أَنَّ تَعَدُّدَ الزَّوْجَاتِ ظُلْمٌ، وَأَنَّ الطَّلَاقَ ظُلْمٌ لِلْمَرْأَةِ، وَأَنَّ الرَّجْمَ وَالْقَطْعَ وَنَحْوَهُمَا أَعْمَالٌ وَحْشِيَّةٌ لَا يَسُوغُ فِعْلُهَا بِالْإِنْسَانِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ.

فَتَحْكِيمُ هَذَا النَّوْعِ مِنَ النِّظَامِ فِي أَنْفُسِ الْمُجْتَمَعِ وَأَمْوَالِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ وَأَنْسَابِهِمْ وَعُقُولِهِمْ وَأَدْيَانِهِمْ كُفْرٌ بخالق السَّموَات وَالْأَرْضِ، وَتَمَرُّدٌ عَلَىٰ نِظَامِ السَّمَاءِ الَّذِي وَضَعَهُ مَنْ خَلَقَ الْخَلَائِقَ كُلَّهَا وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَصَالِحِهَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَنْ أَنْ يَكُونَ مَعَهُ مُشَرِّعٌ آخَرُ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ [الشورى:٢١]، ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ

تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس:٥٩]، ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [النحل:١١٦].(١)

* **وختامًا أقول**: إن الربانية أن تقيم شرع الله علىٰ نفسك وعلىٰ من تعول، فتقيم شرع الله في بيتك، وعلىٰ أولادك، وفي عملك، وتصرفاتك، وفي أخلاقك، واعلم أن الذي يتكلم عن التغيير في كل شيء إلا من نفسه لن يغير شيئًا.

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: (٣/ ٢٦٠). بتصرف.



المبحث السادس
الربانيون حفظة

من صفات الربانيين أنهم حفظة، فهم حفظة لكتاب الله، ولسنة رسول الله ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:٤٤].

وهنا لنا وقفات مع قضية الحفظ، وهي قضية ليست سهلة، بل هي خصوصية للربانيين، كما أسلفنا، ولنتأمل ما قاله الإِمَامُ الْكَبِيرُ ابْن الْجَوْزِيِّ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ حيث يقول: إِنَّ اللهَ ﷻ خَصَّ أُمَّتَنَا بِحِفْظِ الْقُرْآنِ وَالْعِلْمِ، وَقَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَنَا يَقْرَءُونَ كُتُبَهُمْ مِنَ الصُّحُفِ (١)، وَلا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ الْحِفْظِ، فَلَمَّا

---

(١) قَالَ قَتَادَةُ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَ﴾ [الأعراف:١٥٤] قَالَ: رَبِّ، إِنِّي أجدُ فِي الْأَلْوَاحِ أُمَّةً خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَاجْعَلْهُمْ أُمَّتِي. قَالَ: تِلْكَ أُمَّةُ أَحْمَدَ.
قَالَ: رَبِّ، إِنِّي أَجِدُ فِي الْأَلْوَاحِ أُمَّةً هُمُ الْآخَرُونَ - أَيْ آخَرُونَ فِي الخَلْقِ – السابقون في دخول الجنة ، رَبِّ اجْعَلْهُمْ أُمَّتِي. قَالَ: تِلْكَ أُمَّةُ أَحْمَدَ.
قَالَ: رَبِّ، إِنِّي أَجِدُ فِي الْأَلْوَاحِ أُمَّةً أَنَاجِيلُهُمْ فِي صُدُورِهِمْ يَقْرَءُونَهَا - كِتَابَهُمْ – وَكَانَ مَنْ قَبْلَهُمْ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ نَظَرًا، حَتَّىٰ إِذَا رَفَعُوهَا لَمْ يَحْفَظُوا مِنْهَا شَيْئًا، وَلَمْ يَعْرِفُوهُ. قَالَ قَتَادَةُ: وَإِنَّ اللهَ أَعْطَاهُمْ أَيَّتُهَا الْأُمَّةُ مِنَ الْحِفْظِ شَيْئًا لَمْ يُعْطِهِ أَحَدًا مِنَ الْأُمَمِ. قَالَ: رَبِّ، اجْعَلْهُمْ أُمَّتِي. قَالَ: تِلْكَ أُمَّةُ أَحْمَدَ...... الحديث. انظر الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٣/ ٥٥٣) وقال السيوطي: أخرج أَبُو الشَّيْخ عَن قَتَادَة قَالَ مُوسَىٰ. وانظر تفسير ابن كثير(٣/ ٤٧٩).

جَاءَ عُزَيْرٌ فقَرَأَ التَّوْرَاةَ مِنْ حِفْظِهِ، فقَالُوا: هَذَا ابْنُ اللهِ، فكَيْفَ نَقُومُ بِشُكْرِ مَنْ خَوَّلَنَا أَنَّ ابْنَ سَبْعِ سِنِينَ مِنَّا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ، ثُمَّ لَيْسَ فِي الأُمَمِ مِمَّنْ يَنْقُلُ عَنْ نَبِيِّهِ أَقْوَالَهُ وَأَفْعَالَهُ عَلَىٰ وَجْهٍ يَحْصُلُ بِهِ الثِّقَةُ إِلا نَحْنُ، فَإِنَّهُ يَرْوِي الْحَدِيثَ مِنَّا خَالِفٌ عَنْ سَالِفٍ، وَيَنْظُرُونَ فِي ثِقَةِ الرَّاوِي إِلَىٰ أَنْ يَصِلَ الأَمْرُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ، وَسَائِرُ الأُمَمِ يَرْوُونَ مَا يَذْكُرُونَهُ عَنْ صَحِيفَةٍ لا يُدْرَىٰ مَنْ كَتَبَهَا، وَلا يُعْرَفُ مَنْ نَقَلَهَا، وَهَذِهِ الْمِنْحَةُ الْعَظِيمَةُ نَفْتَقِرُ إِلَىٰ حِفْظِهَا بِدَوَامِ الدِّرَاسَةِ، لِيَبْقَىٰ الْمَحْفُوظُ، وَقَدْ كَانَ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنْ سَلَفِنَا يَحْفَظُونَ الْكَثِيرَ مِنَ الأَمْرِ، فَآلَ الأَمْرُ إِلَىٰ أَقْوَامٍ يَفِرُّونَ مِنَ الإِعَادَةِ مَيْلا إِلَىٰ الْكَسَلِ، فَإِذَا احْتَاجَ أَحَدُهُم إِلَىٰ مَحْفُوظٍ لَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ، وَلَقَدْ تَأَمَّلْتُ عَلَىٰ الْمُتَفَقِّهَةِ أَنَّهُمْ يُعِيدُونَ الدَّرْسَ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا، فَإِذَا مَرَّ عَلَىٰ أَحَدِهِمْ يَوْمَانِ نَسِيَ ذَلِكَ، وَإِذَا افْتَقَرَ إِلَىٰ شَيْءٍ مِنْ تِلْكَ الْمَسْأَلَةِ فِي الْمُنَاظَرَةِ لَمْ يَقْدِرْ عَلَىٰ ذَلِكَ، فَذَهَبَ زَمَانُ الأَوَّلِ ضَائِعًا، وَيُحْتَاجُ أَنْ يَبْتَدِئَ الْحِفْظَ لِمَا فِيهِ أَوَّلا، وَالسَّبَبُ أَنَّهُ لَمْ يَحْكُمْهُ.(١)

الْحَثُّ عَلَى حِفْظِ الْعِلْمِ:

إن الْمَنْقُولات فِي حِفْظِ الْعِلْمِ كَثِيرَةٌ، وَيَكْفِي مِنْهَا قَوْلُهُ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١] وَقَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «**إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، رِضًا بِمَا يَطْلُبُ**».(٢)

وَيَكْفِي مِنَ الْمَعْقُولاتِ: أَنَّ الْعِلْمَ يَدَّعِيهِ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ، وَيَنْفِرُ مِنَ النُّسْبَةِ إِلَىٰ الْجَهْلِ، وَالْجَاهِلُ،،لا يَخْفَىٰ أَنَّ ارْتِفَاعَ قَدْرِ الْعَالِمِ بِمِقْدَارِ عِلْمِهِ،

(١) الحث علىٰ حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ (ص: ٣٢).
(٢) سنن الدارمي: (٣٦٩) سنن الترمذي: (٣٥٣٥)، وحسنه الألباني.

فَإِنْ قَلَّ قَلَّتْ رِفْعَتُهُ.

* وَفِي الْحَدِيثِ: «**يُقَالُ لِقَارِئِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ، وَارْقَ، فَمَنْزِلُكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَأُ بِهَا**»، وَلَيْسَ مَنْ حَفِظَ نِصْفَ الْقُرْآنِ كَمَنْ حَفِظَ الْكُلَّ، وَلا مَنْ حَفِظَ مِائَةَ حَدِيثٍ كَمَنْ حَفِظَ أَلْفًا. وَعَلَىٰ هَذَا فَلَيْسَ الْعِلْمُ إِلا مَا حُصِّلَ بِالْحِفْظِ.

✍ **قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ بْنُ هَمَّامٍ**: كُلُّ عِلْمٍ لا يَدْخُلُ مَعَ صَاحِبِهِ الْحَمَّامَ فَلا تَعُدُّهُ، وَأَنْشَدَ:

لَيْسَ بِعِلْمٍ مَا حَوَىٰ الْقِمَطْرُ ... مَا الْعِلْمُ إِلا مَا حَوَاهُ الصَّدْرُ (١)

صِفَةُ مَنْ هُوَ أَهْلٌ لِلْحِفْظِ مِنْ حَيْثُ الصُّورَةِ وَالْحِلْيَةِ وَمَنْ لَيْسَ أَهْلًا:

✍ **يقول ابْنِ الْجَوْزِيِّ**: مَتَىٰ كَانَ شَكْلُ الرَّأْسِ غَيْرَ مُسْتَقِيمٍ دَلَّ عَلَىٰ رَدَاءَةٍ فِي الدِّمَاغِ، وَإِذَا كَانَ الرَّأْسُ صَغِيرًا: دَلَّ عَلَىٰ رَدَاءَةِ هَيْئَةِ الدِّمَاغِ.

وَإِنْ كَانَ كَبِيرَ الرَّأْسِ لَيْسَ بِدَلِيلٍ عَلَىٰ جَوْدَةِ الدِّمَاغِ مَا لَمْ يَقْتَرِنْ بِهِ جَوْدَةُ الشَّكْلِ، وَإِذَا كَانَتِ الرَّقَبَةُ غَلِيظَةً دَلَّتْ عَلَىٰ قُوَّةِ الدِّمَاغِ وَوُفُورِهِ، وَإِنْ قَصُرَتْ وَدَقَّتْ فَبِالضِّدِّ.

وَمَنْ بِنْيَتُهُ غَيْرُ مُتَنَاسِبَةٍ حَيَىٰ رَدِيئًا حَتَّىٰ فِي فَهْمِهِ وَعَقْلِهِ مِثْلَ الرَّجُلِ الْعَظِيمِ الْبَطْنِ، الْقَصِيرِ الأَصَابِعِ، الْمُسْتَدِيرِ الْوَجْهِ، الْعَظِيمِ الْقَامَةِ، الصَّغِيرِ الْهَامَةِ، اللَّحِيمِ الْجَبْهَةِ.

- وَإِذَا كَانَتِ الْعَيْنُ مُرْتَدَّةً، فَصَاحِبُهَا كَسْلانُ بَطَّالٌ.

---

(١) الحث علىٰ حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ (ص: ٣٣). بتصرف.

- وَالْحَدَقَةُ السَّوْدَاءُ دَلِيلٌ عَلَىٰ كَسَلٍ وَبَلادَةٍ.

- وَإِذَا كَانَ أَنْفُهُ غَلِيظًا مُمْتَلِئًا، فَهُوَ قَلِيلُ الْفَهْمِ.

- وَمَنْ كَانَ نَحِيفَ الْوَجْهِ فَهُوَ فَهِمٌ، وَلَطَافَةُ الْبَطْنِ تَدُلُّ عَلَىٰ جَوْدَةِ الْعَقْلِ.

- وَالْغَبَاوَةُ وَالْغَفْلَةُ فِي الطُّولِ أَكْثَرُ، وَاللُّطْفُ فِي النِّحَافِ وَالضِّعَافِ أَظْهَرُ، وَمَتَىٰ تَنَاسَبَتِ الأَعْضَاءُ، وَاعْتَدَلَ الْقَوَامُ كَانَ الْعَقْلُ تَامًّا، وَالْفَهْمُ وَافِرًا، وَالتَّهَيُّؤُ لاكْتِسَابِ الْعُلُومِ مُمْكِنًا.

- وَقَدْ يَحْصُلُ هَذَا ثُمَّ يَغْلِبُ الْمِزَاجُ فَيُؤْذِي.

فَإِنَّهُ مَتَىٰ غَلَبَتِ السَّوْدَاءُ بَطُلَ الْحِفْظُ، فَإِذَا غَلَبَتِ الصَّفْرَاءُ لَمْ يُضَرَّ الْحِفْظُ.

✍ **وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ الْحَرْبِيُّ**: صَاحِبُ السَّوْدَاءِ لا يَحْفَظُ شَيْئًا، إِنَّمَا يَحْفَظُ صَاحِبُ الصَّفْرَاءِ.

وَمَتَىٰ كَانَ الْمِزَاجُ بَارِدًا، كَانَ صَاحِبُهُ بَلِيدًا، قَلِيلَ الْفَهْمِ.

وَمِنْ عَلامَةِ رَدَاءَةِ الْمِزَاجِ بُرُودَةُ اللَّمْسِ، وَابْيِضَاضُ اللَّوْنِ، وَقِلَّةُ الشَّعْرِ مَعَ بَيَاضِهِ.

وَمَتَىٰ كَانَ الْمِزَاجُ حَارًّا يَابِسًا، دَلَّ عَلَىٰ الذَّكَاءِ وَالذِّهْنِ وَالشَّجَاعَةِ، وَعَلامَتُهُ كَثْرَةُ الشَّعْرِ وَجُعُودَتُهُ وَسَوَادُهُ.

وَالْمِزَاجُ الْمُعْتَدِلُ هُوَ الْكَامِلُ، وَصَاحِبُهُ الْفَطِنُ الْفَهِمُ، الْعَاقِلُ الشُّجَاعُ الْمُتَوَسِّطُ فِي الأُمُورِ وَعَلامَتُهُ: أَنْ يَكُونَ مَلْمَسُهُ مُعْتَدِلا، فِي الْحَرَارَةِ

وَالْبُرُودَةِ، وَيَكُونَ مُتَوَسِّطًا بَيْنَ الْهُزَالِ وَالسِّمَنِ. (١)

الْحِفْظُ يَبْدَأُ مُنْذُ الصِّغَرِ:

ومتىٰ اعْتَدَلَ الْمِزَاجُ، وَتَكَامَلَ الْعَقْلُ، أَوْجَبَ ذَلِكَ يَقَظَةُ الصَّبِيِّ مِنْ حَالِ صِغَرِهِ، فَتَرَاهُ يَطْلُبُ مَعَالِيَ الأُمُورِ، فَإِنْ طَلَبَ رِفْعَةَ الدُّنْيَا دَلَّ عَلَىٰ قُصُورِ فَهْمِهِ، لأَنَّ مَنِ اسْتَحْضَرَ عَقْلَهُ، دَلَّهُ عَلَىٰ خَالِقٍ وَجَبَتْ عَلَيْهِ طَاعَتُهُ وَامْتِثَالُ أَوَامِرِهِ، فَطَلَبَ التَّقَرُّبَ إِلَيْهِ، وَعَلِمَ أَنَّهُ لا يَقْرُبُ إِلا بِالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، فَجَدَّ فِي تَحْصِيلِ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ آمِرٍ، وَلا مُحَرِّضٍ فَتَرَاهُ يَطْلُبُ الْغَايَةَ فِي الْعِلْمِ ثُمَّ يَخْرُجُ بِهِ الأَمْرُ إِلَىٰ الزُّهْدِ فِي الْفَانِي، وَتَحْصِيلِ كُلِّ مَا يُمْكِنُ مِنَ الْفَضَائِلِ، ثُمَّ يَتَرَقَّىٰ إِلَىٰ مَحَبَّةِ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ، وَمَنْ كَمُلَ وُفِّقَ، وَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝٥١﴾ [الأنبياء:٥١].

فَهَذِهِ صِفَةُ الْغَايَةِ، وَذَلِكَ لا يَحْتَاجُ إِلَىٰ مُحَرِّضٍ؛ لأَنَّ هِمَّتَهُ تَمْشِي بِهِ، وَهُوَ قَاعِدٌ، ثُمَّ يَتَفَاوَتُ الصِّبْيَانُ بَعْدَ ذَلِكَ: فَمِنْهُمْ مَنْ يَحْتَاجُ إِلَىٰ مُحَرِّضٍ، وَهُمُ الأَكْثَرُ، وَمِنْهُمْ مَنْ تُنَبِّهُهُ بِأَيْسَرَ تَنْبِيهٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتْعَبُ مَعَهُ الرَّائِضُ، وَجِبْلَتُهُ لا تَقْبَلُ الرِّيَاضَةَ. (٢)

تَرْبِيَةُ الصَّبِيِّ عَلَى الْحِفْظِ:

وَمَتَىٰ اعْتَدَلَ الْمِزَاجُ وَتَكَامَلَ الْعَقْلُ، أَوْجَبَ ذَلِكَ يَقَظَةَ الصَّبِيِّ، فَمَنْ رُزِقَ وَلَدًا، فَلْيَجْتَهِدْ مَعَهُ، وَالتَّوْفِيقُ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ، فَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُعَوِّدَهُ النَّظَافَةَ

(١) الحث علىٰ حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ: (ص: ٣٦).

(٢) الحث علىٰ حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ: (ص: ٣٧).

وَالطَّهَارَةَ مِنَ الصِّغَرِ، وَيُثَقِّفَهُ بِالآدَابِ فَإِذَا بَلَغَ خَمْسَ سِنِينَ أَخَذَهُ بِحِفْظِ الْعِلْمِ، وَسَنُبَيِّنُ فِيمَا بَعْدُ تَرْتِيبَ الْمَحْفُوظَاتِ، فَإِنَّ الْحِفْظَ فِي الصِّغَرِ نَقْشٌ فِي حَجَرٍ، وَمَتَىٰ بَلَغَ الصَّبِيُّ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ هِمَّةٌ تَحُثُّهُ عَلَىٰ اكْتِسَابِ الْعِلْمِ بَعْدُ فَلا فَلاحَ لَهُ. (١)

بَيَانُ طَرِيقِ أَحْكَامِ الْمَحْفُوظِ:

الطَّرِيقُ فِي أَحْكَامِهِ كَثْرَةُ الإِعَادَةِ، وَالنَّاسُ يَتَفَاوَتُونَ فِي ذَلِكَ: فَمِنْهُمْ مَنْ يَثْبُتُ مَعَهُ الْمَحْفُوظُ مَعَ قِلَّةِ التَّكْرَارِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ لا يَحْفَظُ إِلا بَعْدَ التَّكْرَارِ الْكَثِيرِ.

فَيَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يُعِيدَ بَعْدُ الْحِفْظَ، لِيَثْبُتَ مَعَهُ الْمَحْفُوظُ.

وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**تَعَاهَدُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ أَشَدَّ تَفَصِيًّا مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ مِنَ النَّعَمِ مِنْ عُقُلِهَا**».

وَكَانَ أَبُو إِسْحَاقَ الشِّيرَازِيُّ: يُعِيدُ الدَّرْسَ مِائَةَ مَرَّةٍ، وَإِنْ كَانَ إلكيا يُعِيدُ سَبْعِينَ مَرَّةً.

وَقَالَ لَنَا الْحَسَنُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ النَّيْسَابُورِيُّ الْفَقِيهُ: لا يَحْصُلُ الْحِفْظُ إِلَيَّ حَتَّىٰ يُعَادَ خَمْسِينَ مَرَّةً.

وَحَكَىٰ لَنَا الْحَسَنُ: أَنَّ فَقِيهًا أَعَادَ الدَّرْسَ فِي بَيْتِهِ مِرَارًا كَثِيرَةً، فَقَالَتْ لَهُ عَجُوزٌ فِي بَيْتِهِ قَدْ وَاللهِ حَفِظْتُهُ أَنَا.

(١) الحث علىٰ حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ: (ص: ٣٧)

فَقَالَ: أَعِيدِيهِ فَأَعَادَتْهُ فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ أَيَّامٍ.

قَالَ: يَا عَجُوزُ، أَعِيدِي ذَلِكَ الدَّرْسَ، فَقَالَتْ: مَا أَحْفَظُهُ.

قَالَ: إِنِّي أُكَرِّرُ عَدَّ الْحِفْظِ لِئَلا يُصِيبَنِي مَا أَصَابَكِ. (١)

ذِكْرُ الأَوْقَاتِ الَّتِي يُكَرَّرُ فِيهَا الْمَحْفُوظَاتُ:

يَنْبَغِي لِمَنْ يُرِيدُ الْحِفْظَ أَنْ يَتَشَاغَلَ بِهِ فِي وَقْتِ جَمْعِ الْهَمِّ، وَمَتَىٰ رَأَىٰ نَفْسَهُ مَشْغُولَ الْقَلْبِ تَرَكَ التَّحَفُّظَ، وَيَحْفَظُ قَدْرَ مَا يُمْكِنُ فَإِنَّ الْقَلِيلَ يَثْبُتُ وَالْكَثِيرُ لا يَحْصُلْ.

وَقَدْ مُدِحَ الْحِفْظُ فِي السَّحَرِ لِمَوْضِعِ جَمْعِ الْهَمِّ، وَفِي الْبَكَرِ، وَعِنْدَ نِصْفِ اللَّيْلِ، وَلا يَنْبَغِي أَنْ يُحْفَظَ عَلَىٰ شَاطِئِ نَهْرٍ وَلا بِحَضْرَةِ خَضْرٍ لِئَلا يَشْتَغِلَ الْقَلْبُ وَالأَنَاظِرُ الْعَالِيَةُ أحمد مِنَ السَّافِلَةِ. (٢)

وَيَنْبَغِي أَنْ يُرِيحَ نَفْسَهُ مِنَ الْحِفْظِ يَوْمًا أَوْ يَوْمَيْنِ لِيَكُونَ ذَلِكَ كَالْبِنَاءِ الَّذِي يُرَاحُ لِيَسْتَقِرَّ.

مَا يَنْبَغِي تَقْدِيمُهُ مِنَ الْمَحْفُوظَاتِ:

أَوَّلُ مَا يَنْبَغِي تَقْدِيمُهُ مُقَدِّمَةٌ فِي الاعْتِقَادِ تَشْتَمِلُ عَلَىٰ الدَّلِيلِ عَلَىٰ مَعْرِفَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ، وَيُذْكَرُ فِيهَا مَا لا بُدَّ مِنْهُ، ثُمَّ يَعْرِفُ الْوَاجِبَاتِ ثُمَّ حِفْظَ الْقُرْآنِ ثُمَّ سَمَاعَ الْحَدِيثِ.

---

(١) الحث علىٰ حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ: (ص: ٤٥).

(٢) الحث علىٰ حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ: (ص: ٤٤).

وَلا بُدَّ مِنْ حِفْظِ مُقَدِّمَةٍ فِي النَّحْوِ يَقُومُ بِهَا اللِّسَانُ، وَالْفِقْهُ عُمْدَةُ الْعُلُومِ، وَجَمْعُ الْعُلُومِ مَمْدُوحٌ إِلا أَنَّ أَقْوَامًا أَذْهَبُوا الأَعْمَارَ فِي حِفْظِ النَّحْوِ وَاللُّغَةِ، وَإِنَّمَا يُعْرَفُ بِهَا غَرِيبُ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ وَمَا يُفَضَّلُ عَنْ ذَلِكَ لَيْسَ بِمَذْمُومٍ غَيْرَ أَنَّ غَيْرَهُ أَهَمُّ مِنْهُ.

وَإِنَّ أَقْوَامًا أَذْهَبُوا أَزْمَانَهُمْ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ فَاشْتَغَلُوا بِمَا غَيْره أَصْلَح مِنْهُ مِنَ الشَّوَاذِّ الْمَهْجُورَةِ، وَالْعُمْرُ أَنْفَسُ مِنْ تَضْيِيعِهِ فِي هَذَا.

وَإِنَّ أَقْوَامًا أَذْهَبُوا أَعْمَارَهُمْ فِي طُرُقِ الْحَدِيثِ، وَلَعَمْرِي إِنَّ ذَلِكَ حَسَنٌ إِلا أَنَّ تَقْدِيمَ غَيْرِ ذَلِكَ أَهَمُّ.

فَنَرَىٰ أَكْثَرَ هَؤُلاءِ الْمَذْكُورِينَ لا يَعْرِفُونَ الْفِقْهَ الَّذِي هُوَ أَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ، وَمَتَىٰ أَمْعَنَ طَالِبُ الْحَدِيثِ فِي السَّمَاعِ وَالْكِتَابَةِ ذَهَبَ زَمَانُ الْحِفْظِ، وَإِذَا عَلَتِ السِّنُّ لَمْ يَقْدِرْ عَلَىٰ الْحِفْظِ الْمُهِمِّ، وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ شَرَفَ الْفِقْهِ فَانْظُرْ إِلَىٰ مَرْتَبَةِ الأَصْمَعِيِّ فِي اللُّغَةِ، وَسِيبَوَيْهِ فِي النَّحْوِ، وَابْنِ مَعِينٍ فِي مَعْرِفَةِ الرِّجَالِ، كَمْ بَيْنَ ذَلِكَ وَمَرْتَبَةِ أَحْمَدَ وَالشَّافِعِيِّ فِي الْفِقْهِ.

ثُمَّ لَوْ حَضَرَ شَيْخٌ مُسِنٌّ لَهُ إِسْنَادٌ لا يَعْرِفُ شَيْئًا مِنَ الْفِقْهِ بَيْنَ يَدَيْهِ شَابٌّ مُتَفَقِّهٌ فَجَاءَتْ مَسْأَلَةٌ: سَكَتَ الشَّيْخُ، وَتَكَلَّمَ الشَّابُّ، وَهَذَا يَكْفِي فِي فَضْلِ الْفِقْهِ.

وَلَقَدْ تَشَاغَلَ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ بِعُلُومِ الْحَدِيثِ، وَأَعْرَضُوا عَنِ الْفِقْهِ، فَلَمَّا سُئِلُوا عَنْ مَسْأَلَةٍ فِي الأَحْكَامِ افْتُضِحُوا.

أَخْبَرَنَا أَبُو مَنْصُورٍ الْقَزَّازُ، أَخْبَرَنَا الْخَطِيبُ، قَالَ: سَمِعْتُ الْبَرْقَانِيَّ يَقُولُ:

قَالَ أَبُو بَكْرٍ الأَبْهَرِيُّ الْفَقِيهُ: كُنْتُ عِنْدَ يَحْيَىٰ بْنِ صَاعِدٍ فَجَاءَتْهُ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: أَيُّهَا الشَّيْخُ مَا تَقُولُ فِي بِئْرٍ سَقَطَتْ فِيهَا دَجَاجَةٌ فَمَاتَتْ؟ هَلِ الْمَاءُ طَاهِرٌ أَمْ نَجِسٌ؟ فَقَالَ يَحْيَىٰ: وَيْحَكِ كَيْفَ سَقَطَتِ الدَّجَاجَةُ فِي الْبِئْرِ؟ قَالَتْ: لَمْ تَكُنْ مُغَطَّاةً، فَقَالَ: أَلا غَطَّيْتِهَا حَتَّىٰ لا يَقَعَ فِيهَا شَيْءٌ.

✍ **قَالَ الأَبْهَرِيُّ**: قُلْتُ: يَا هَذِهِ إِنْ كَانَ الْمَاءُ تَغَيَّرَ وَإِلا فَهُوَ طَاهِرٌ.

✍ **وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ الْحَرْبِيُّ**: بَلَغَنِي أَنَّ امْرَأَةً جَاءَتْ إِلَىٰ عَلِيِّ بْنِ دَاوُدَ وَهُوَ يُحَدِّثُ وَبَيْنَ يَدَيْهِ مِقْدَارُ أَلْفِ نَفْسٍ، فَقَالَتْ: بِصدقة أزاري فَقَالَ: بِكَمِ اشْتَرَيْتِهِ.

قَالَتْ: بِاثْنَيْنِ وَعِشْرِينَ دِرْهَمًا.

فَلَمَّا مَرَّتْ قَالَ: آه، آه أَمَرْنَاهَا بِكَفَّارَةِ الظِّهَارِ، وَلَوِ اتَّسَعَ الْعُمُرُ لأَمَرْتُكَ بِاسْتِقْصَاءِ كُلِّ عِلْمٍ إِذِ الْكُلُّ مَمْدُوحٌ، فَلَمَّا قَصُرَ الْعُمُرُ وَجَبَ تَقْدِيمُ الْمُهِمِّ وَالأَفْضَلِ. (١)

ذِكْرُ بَعْضِ الْحُفَّاظِ الْمُبْرَزِينَ:

- **أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ:**

✍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سُلَيْمَانَ، قَالَ: قِيلَ: لأَبِي زُرْعَةَ: مَنْ رَأَيْتَ مِنَ الْمَشَايِخِ الْمُحَدِّثِينَ أَحْفَظَ؟ قَالَ: أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ، حُزِرَتْ كُتُبُهُ الْيَوْمَ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، فَبَلَغَتِ اثْنَيْ عَشَرَ حَمْلا وَعَدْلا، مَا كَانَ عَلَىٰ ظَهْرِ كِتَابٍ مِنْهَا حَدِيثُ فُلانٍ، وَلا فِي بَطْنِهِ حَدَّثَنَا فُلانٌ، وَكُلُّ ذَلِكَ كَانَ يَحْفَظُهُ مِنْ ظَهْرِ قَلْبِهِ.

---

(١) الحث علىٰ حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ: (ص: ٤٧). وما بعدها.

وقال أبو زُرْعَةَ: كَانَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ يَحْفَظُ أَلْفَ أَلْفِ حَدِيثٍ، فَقِيلَ لَهُ: وَمَا يُدْرِيكَ؟ قَالَ: ذَاكَرْتُهُ، وَأَخَذْتُ عَلَيْهِ الأَبْوَابَ.

وقال أَبُو بَكْرٍ الْخَلالُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ يَقُولُ: قَالَ لِي أَبِي: خُذْ أَيَّ كِتَابٍ شِئْتَ مِنْ كُتُبِ وَكِيعٍ، مِنَ الْمُصَنَّفِ، فَإِنْ شِئْتَ تَسْأَلُنِي عَنِ الْكَلامِ، حَتَّىٰ أُخْبِرَكَ بِالإِسْنَادِ، وَإِنْ شِئْتَ بِالإِسْنَادِ حَتَّىٰ أُخْبِرَكَ بِالْكَلامِ.(١)

- **سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ:**

* عَنْ سَعْدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ قَالَ: مَا بَقِيَ أَحَدٌ أَعْلَمَ بِكُلِّ قَضَاءٍ قَضَاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ مِنِّي. (٢)

- **سُلَيْمَانُ بْنُ الأَشْعَثِ «أَبُو دَاوُدَ السِّجِسْتَانِيُّ»:**

كَانَ عَالِمًا مِنْ كِبَارِ الْحُفَّاظِ.

قَالَ أَبُو دَاوُدَ: كَتَبْتُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ خَمْسَ مِائَةِ أَلْفَ حَدِيثٍ، انْتَخَبْتُ مِنْهَا مَا تَضَمَّنَتْهُ السُّنَنُ. جَمَعْتُ فِيهِ أَرْبَعَةَ آلافٍ وَثَمَانِ مِائَةِ حَدِيثٍ.(٣)

- **عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْكَرِيمِ بْنِ يَزِيدَ «أَبُو زُرْعَةَ الرَّازِيُّ»:**

كَانَ إِمَامًا مُتْقِنًا، حَافِظًا غَزِيرَ الْحِفْظِ.

---

(١) الحث علىٰ حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ: (٥١:٥٣).

(٢) الحث علىٰ حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ: (ص: ٦٦).

(٣) الحث علىٰ حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ: (ص: ٧٥).

✍ قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: مَا جَاوَزَ الْجِسْرُ أَحْفَظَ مِنْ أَبِي زُرْعَةَ، قَدْ حَفِظَ سِتَّ مِائَةِ أَلْفٍ.

✍ وعن أبي جَعْفَرٍ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ سُلَيْمَانَ التُّسْتَرِيُّ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا زُرْعَةَ يَقُولُ: إِنَّ فِي بَيْتِي مَا كَتَبْتُهُ مُنْذُ خَمْسِينَ سَنَةً، وَلَمْ أُطَالِعْهُ مُنْذُ كَتَبْتُهُ، وَإِنِّي أَعْلَمُ فِي أَيِّ كِتَابٍ هُوَ، فِي أَيَّةِ وَرَقَةٍ هُوَ، فِي أَيِّ صَفْحٍ هُوَ، فِي أَيِّ سَطْرٍ هُوَ، وَمَا سَمِعَ أُذُنِي شَيْئًا مِنَ الْعِلْمِ إِلا وَعَاهُ قَلْبِي، فَإِنِّي كُنْتُ أَمْشِي فِي سُوقِ بَغْدَادَ فَأَسْمَعُ مِنَ الْغُرَفِ صَوْتَ الْمُغَنِّيَاتِ فَأَضَعُ أُصْبُعِي فِي أُذُنِي مَخَافَةَ أَنْ يَعِيَهُ قَلْبِي.

✍ وعن مُحَمَّد بْنِ جَعْفَرِ بْنِ حَمْكَوَيْهِ قال: سُئِلَ أَبُو زُرْعَةَ الرَّازِيُّ عَنْ رَجُلٍ حَلَفَ بِالطَّلاقِ: أَنَّ أَبَا زُرْعَةَ الرَّازِيَّ يَحْفَظُ مِائَتَيْ أَلْفَ حَدِيثٍ هَلْ حَنَثَ؟ فَقَالَ: لا.

ثُمَّ قَالَ أَبُو زُرْعَةَ الرَّازِيُّ: أَحْفَظُ مِائَتَيْ أَلْفَ حَدِيثٍ، كَمَا يَحْفَظُ الإِنْسَانُ: قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ وَفِي الْمُذَاكَرَةِ ثَلاثُ مِائَةِ أَلْفِ حَدِيثٍ. (١)

- **عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ:**

* رَوَىٰ عَنِ الأَئِمَّةِ: الثَّوْرِيِّ، وَمَالِكٍ، وَشُعْبَةَ، وَالْحَمَّادَيْنِ. وَكَانَ مِنْ كِبَارِ الْحُفَّاظِ.

✍ **قَالَ ابْنُ الْمَدِينِيِّ**: لَوْ أَنِّي حَلَفْتُ بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ، لَحَلَفْتُ أَنِّي لَمْ أَرَ أَحَدًا أَعْلَمَ بِالْحَدِيثِ مِنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ.

---

(١) الحث علىٰ حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ: (ص: ٧٥: ٧٧).

✍ **وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَىٰ**: مَا رَأَيْتُ عِنْدَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ كِتَابًا قَطُّ، وَكُلُّ مَا سَمِعْتُهُ مِنْهُ سَمِعْتُهُ حِفْظًا.

✍ وَكَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ يَخْتِمُ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ لَيْلَتَيْنِ.

✍ **وقال عُبَيْدُ اللهِ بْن عُمَرَ الْقَوَارِيرِيَّ**: أَمْلَىٰ عَلَيَّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ عِشْرِينَ أَلْفَ حَدِيثٍ حِفْظًا.(١)

- **عَامِرٌ الشَّعْبِيُّ:**

* عَنِ ابْنِ شُبْرُمَةَ قَالَ: قَالَ الشَّعْبِيُّ: مَا كَتَبْتُ سَوْدَاءَ فِي بَيْضَاءَ إِلا وَأَنَا أَحْفَظُهَا، وَلا حَدَّثَنِي رَجُلٌ بِحَدِيثٍ وَأَحْبَبْتُ أَنْ يُعِيدَهُ عَلَيَّ. (٢)

- **مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْبُخَارِيُّ:**

إمام الدنيا وأمير المؤمنين في علم الحديث، وقبل أن أكتب أيَّ شيء عنه أقول:

أشهد الله تعالىٰ أنِّي أحب الإمام محمد بن اسماعيل البخاري فيه سبحانه، وأسأل الله أن يجمعني به في صحبة رسوله ﷺ، ولو أردت أن أكتب عنه بحسب حبي له لألفت كتابًا، ولكن تكفيني بعض الوقفات السريعة مع الحبر الكبير، إمام المحدثين، وأستاذ الأستاذين.

وأول ما أذكره حديث ذكر بعض العلماء أن مصداق هذا الحديث الإمام

---

(١) الحث علىٰ حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ: (٨٢:٨٣).

(٢) المرجع السابق.

البخاري، والله تعالىٰ أعلم.(١)

* عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَوْ كَانَ الدِّينُ عِنْدَ الثُّرَيَّا، لَذَهَبَ بِهِ رَجُلٌ مِنْ فَارِسَ – أَوْ قَالَ – مِنْ أَبْنَاءِ فَارِسَ حَتَّىٰ يَتَنَاوَلَهُ**». (٢)

والآن نذكر بعض الأمور عن الإمام البخاري، ولقد اكتفيت بالنقل من تاريخ بغداد ولكن حذفت الأسانيد خشية الإطالة، ولن أحيل إلا في ما خرج عن تاريخ بغداد.

✍ **فأقول مستعينًا بالله**: الإمام البخاري مَهَرَ فِي عِلْمِ الْحَدِيثِ، وَرُزِقَ الْحِفْظ لَهُ، وَالْمَعْرِفَة.

- **نبوغ البخاري في طفولته:**

* عن أبي جعفر محمد بن أبي حاتم الوراق النحوي، قَالَ: قلت لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري: كيف كان بدء أمرك في طلب الحديث؟ قَالَ: ألهمت حفظ الحديث وأنا في الكتاب.

قَالَ: وكم أتىٰ عليك إذ ذاك؟ فقَالَ: عشر سنين أو أقل، ثم خرجت من الكتاب بعد العشر، فجعلت اختلف إلىٰ الداخلي وغيره، وَقَالَ يوما فيما كان يقرأ للناس: «سفيان عن أبي الزبير، عن إبراهيم».

فقلت له: يا أبا فلان إن أبا الزبير لم يروه عن إبراهيم.

فانتهرني، فقلت له: ارجع إلىٰ الأصل إن كان عندك، فدخل ونظر فيه ثم

---

(١) الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم (٢٤/ ٢٥٣). بتصرف.
(٢) صحيح مسلم: (٢٥٤٦).

خرج فقال لي: كيف هو يا غلام؟ قلت: هو الزبير بن عدي بن إبراهيم.

فأخذ القلم مني وأحكم كتابه، فقال: صدقت.

فقال له بعض أصحابه: ابن كم كنت إذ رددت عليه؟ فقال: ابن إحدىٰ عشرة فلما طعنت في ست عشرة سنة، حفظت كتب ابنِ المبارك ووكيع وعرفت كلام هؤلاء.

ثم خرجت مع أمي وأخي أحمد إلىٰ مكة، فلما حججت رجع أخي بها، وتخلفت في مكة في طلب الحديث، فلما طعنت في ثمان عشرة جعلت أصنف قضايا الصحابة والتابعين وأقاويلهم وذلك أيام عبيد الله بن موسىٰ، وصنفت كتاب التاريخ إذ ذاك عند قبر الرسول ﷺ في الليالي المقمرة، وَقَالَ: كل اسم في التاريخ له عندي قصة، إلا أني كرهت تطويل الكتاب.

✍ **وقَالَ السعداني**: سمعت بعض أصحابنا، يقول: قَالَ محمد بن إسماعيل: أخرجت هذا الكتاب يعني الصحيح من زهاء ست مائة ألف حديث.

✍ **وعن محمد بن يوسف الفربري، يقول**: قَالَ لي محمد بن إسماعيل البخاري: ما وضعت في كتاب الصحيح حديثا إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين.

✍ **وعن محمد بن أبي حاتم، قَالَ**: قلت لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل: تحفظ جميع ما أدخلت في المصنف؟ فقال: لا يخفىٰ عليَّ جميع ما فيه.

✍ **وعن الفربري محمد بن يوسف، قَالَ**: سمعت محمدًا البخاري بخوارزم، يقول: رأيت أبا عبد الله محمد بن إسماعيل، يعني في المنام، خلف النبي ﷺ والنبي ﷺ يمشي فكلما رفع النبي ﷺ قدمه وضع أبو عبد الله محمد بن إسماعيل قدمه في ذلك الموضع.

✍ **وعن محمد بن يوسف الفربري، قَالَ**: سمعت النجم بن الفضيل وكان من أهل الفهم، يقول: رأيت النبي ﷺ في المنام خرج من قرية ماستي، ومحمد بن إسماعيل خلفه فكان النبي ﷺ إذا خطا خطوة يخطو محمد بن إسماعيل ويضع قدمه علىٰ خطوة النبي ﷺ ويتبع أثره.

✍ **وعن محمد بن يوسف الفربري، يقول**: رأيت النبي ﷺ في النوم، فقال لي: أين تريد؟ فقلت: أريد محمد بن إسماعيل البخاري. فقال: أقرئه مني السلام.

✍ **وعن عبد الله بن محمد بن إسحاق السمسار، يقول**: سمعت شيخي يقول: ذهبت عينا محمد بن إسماعيل في صغره فرأت والدته في المنام إبراهيم الخليل عليه السلام، فقال لها: يا هذه قد ردَّ الله علىٰ ابنِك بصرَه لكثرة بكائك، أو لكثرة دعائك. قَالَ: فأصبح وقد ردَّ الله عليه بصره.

✍ **وعن محمد بن أبي حاتم الوارق، قَالَ**: سمعت حاشد بن إسماعيل، يقول: كان أبو عبد الله محمد بن إسماعيل يختلف معنا إلىٰ مشايخ البصرة وهو غلام فلا يكتب حتىٰ أتىٰ علىٰ ذلك أيام، فكنا، نقول له: إنك تختلف معنا ولا تكتب فما معناك فيما تصنع؟ فقال لنا بعد ستة عشرة يوما: إنكما قد أكثرتما عليّ وألححتما، فاعرضا عليّ ما كتبتما فأخرجنا ما كان عندنا فزاد

علىٰ خمسة عشر ألف حديث، فقرأها كلها عن ظهر القلب حتىٰ جعلنا نحكم كتبنا علىٰ حفظه، ثم قَالَ: أترون أني أختلف هدرا وأضيع أيامي؟ فعرفنا أنه لا يتقدمه أحد.

✍ **وعن يُوسُفَ بْن مُوسَىٰ الْمَرُّورُوذِيّ، يَقُولُ**: كُنْتُ بِالْبَصْرَةِ فِي جَامِعِهَا إِذْ سَمِعْتُ مُنَادِيًا يُنَادِي، يَا أَهْلَ الْعِلْمِ قَدْ قَدِمَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْبُخَارِيُّ، فَقَامُوا فِي طَلَبِهِ وَكُنْتُ مَعَهُمْ، فَرَأَيْنَا رَجُلًا شَابًّا لَمْ يَكُنْ فِي لِحْيَتِهِ شَيْءٌ مِنَ الْبَيَاضِ يُصَلِّي خَلْفَ الأُسْطُوَانَةِ فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الصَّلاةِ أَحْدَقُوا بِهِ وَسَأَلُوهُ أَنْ يَعْقِدَ لَهُمْ مَجْلِسَ الإِمْلاءِ فَأَجَابَهُمْ إِلَىٰ ذَلِكَ، فَقَامَ الْمُنَادِي ثَانِيًا فَنَادَىٰ فِي جَامِعِ الْبَصْرَةِ، قَدْ قَدِمَ أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْبُخَارِيُّ، فَسَأَلْنَاهُ أَنْ يَعْقِدَ مَجْلِسَ الإِمْلاءِ فَقَدْ أَجَابَ بِأَنْ يَجْلِسَ غَدًا فِي مَوْضِعِ كَذَا.

قَالَ: فَلَمَّا أَنْ كَانَ بِالْغَدَاةِ حَضَرَ الْفُقَهَاءُ وَالْمُحَدِّثُونَ وَالْحُفَّاظُ وَالنُّظَّارُ حَتَّىٰ اجْتَمَعَ قَرِيبٌ مِنْ كَذَا وَكَذَا أَلْفًا.

فَجَلَسَ أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ للإِمْلاءِ، فَقَالَ: قَبْلَ أَنْ آخُذَ فِي الإِمْلاءِ، قَالَ لَهُمْ: يَا أَهْلَ الْبَصْرَةِ أَنَا شَابٌّ وَقَدْ سَأَلْتُمُونِي أَنْ أُحَدِّثَكُمْ وَسَأُحَدِّثُكُمْ بِأَحَادِيثَ عَنْ أَهْلِ بَلَدِكُمْ تَسْتَفِيدُونَ الْكُلَّ.

قَالَ: فَبَقَوْا النَّاسُ وَتَعَجَّبُوا مِنْ قَوْلِهِ، ثُمَّ أَخَذَ فِي الإِمْلاءِ، فَقَالَ: حدثنا عَبْدُ اللهِ بْنُ عُثْمَانَ بْنِ جَبَلَةَ أَبِي رَوَّادٍ الْعَتَكِيُّ، بُلَدَيْكُمْ، قَالَ: أخبرنا أَبِي، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ مَنْصُورٍ وَغَيْرِهِ، عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ أَعْرَابِيًّا جَاءَ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، الرَّجُلُ يُحِبُّ الْقَوْمَ.

فَذَكَرَ حَدِيثَ «**الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**».

ثـم قَـالَ محمـد بـن إسـماعيل: هـذا لـيس عنـدكم إنمـا عنـدكم عـن غيـر منصور، عن سالم.

✍ **قَالَ يوسف بن موسىٰ**: وأملىٰ عليهم مجلسًا علىٰ هذا النسق، يقـول: في كل حديث روىٰ شعبة هذا الحديث عندكم كذا، فأما من رواية فلان فلـيس عندكم، أو كلامًا ذا معناه.

✍ **قَـالَ يوسـف بـن موسـىٰ**: وكـان دخـولي البصـرة أيـام محمـد بـن عبـد الملـك بـن أبـي الشـوارب، وهـلال الـرأي، وأحمـد بـن عبـدة الضـبي، وحميد بن مسعدة، وغيرهم.

ثم دخلت البصرة مرات بعد ذلك.

- **ذكر وصف البصريين البخاري ومدحهم إياه:**

✍ **عن محمد بن أبي حاتم، قَالَ**: سـمعت حاشـد بـن إسـماعيل، يقـول: كنت بالبصرة فسمعت قدوم محمد بن إسماعيل، فلما قـدم، قَـالَ: محمـد بـن بشار: دخل اليوم سيد الفقهاء.

✍ **وعن بندار محمد بن بشار قال**: حفَّاظ الدنيا أربعة: أبو زرعة بـالري، ومسلم بن الحجاج بنيسابور، وعبد الله بـن عبـد الـرحمن الـدارمي بسـمرقند، ومحمد بن إسماعيل البخاري ببخارىٰ.

✍ **وعـن محمـد بـن أبـي حـاتم، قَـالَ**: سـمعت محمـد بـن إسـماعيل البخاري، يقول: لما دخلت البصرة صرت إلىٰ مجلس محمد بن بشـار، فلمـا خرج وقع بصره علي، فقال: من أين الفتىٰ؟ قلت: من أهل بخارىٰ.

قَالَ: كيف تركت أبا عبد الله؟ فأمسكت.

فقال له أصحابه: رحمك الله هو أبو عبد الله.

فقام فأخذ بيدي وعانقني، وَقَالَ: مرحبا بمن أفتخر به منذ سنين.

✍ **وعن إسحاق بن أحمد بن خلف، يقول:** سمعت محمد بن إسماعيل غير مرة، يقول: ما تصاغرت نفسي عند أحد إلا عند علي ابن المديني، ما سمعت الحديث من فيِّ إنسان أشهىٰ عندي أن أسمعه من في عليّ.

✍ **وَقَالَ إسحاق:** حَدَّثَنِي حامد بن أحمد، قَالَ: ذكر لعلي ابن المديني قول محمد بن إسماعيل: ما تصاغرت نفسي عند أحد إلا عند علي ابن المديني، فقال: ذروا قوله هو ما رأىٰ مثل نفسه.

✍ **وعن فتح بن نوح النيسابوري، قَالَ:** أتيت علي ابن المديني، فرأيت محمد بن إسماعيل جالسا عن يمنيه، وكان إذا حدث التفت إليه كأنه يهابه.

✍ **وعن محمد بن أبي حاتم الوراق، قَالَ:** سمعت محمد بن إسماعيل، يقول: ذاكرني أصحاب عمرو بن علي بحديث، فقلت: لا أعرفه، فسروا بذلك، وصاروا إلىٰ عمرو بن علي، فقالوا له: ذاكرنا محمد بن إسماعيل البخاري بحديث فلم يعرفه.

فقال عمرو بن علي: حديث لا يعرفه محمد بن إسماعيل ليس بحديث.

✍ **قَالَ محمد بن أبي حاتم:** وسمعت حاشد بن عبد الله، يقول: قَالَ لي أبو مصعب أحمد بن أبي بكر المديني: محمد بن إسماعيل أفقه عندنا وأبصر

من ابن حنبل.

فقال رجل من جلسائه: جاوزت الحد.

فقال أبو مصعب: لو أدركت مالكًا ونظرت إلىٰ وجهه ووجه محمد بن إسماعيل لقلت: كلاهما واحد في الفقه والحديث.

• **ذكر عقد البخاري مجلس التحديث ببغداد وامتحان البغداديين له:**

✍ **عن أَبِي أَحْمَدَ بْنَ عَدِيّ يَقُولُ**: سَمِعْتُ عِدَّةَ مَشَايِخَ يَحْكُونَ: أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ إِسْمَاعِيلَ الْبُخَارِيَّ، قَدِمَ بَغْدَادَ، فَسَمِعَ بِهِ أَصْحَابُ الْحَدِيثِ، فَاجْتَمَعُوا وَعَمَدُوا إِلَىٰ مِائَةِ حَدِيثٍ، فَقَلَبُوا مُتُونَهَا، وَأَسَانِيدَهَا، وَجَعَلُوا مَتْنَ هَذَا الإِسْنَادِ آخَرَ، وَإِسْنَادَ هَذَا الْمَتْنِ لِمَتْنٍ آخَرَ، وَدَفَعُوهَا إِلَىٰ عَشَرَةِ أَنْفُسٍ، فَابْتَدَرَ رَجُلٌ مِنَ الْعَشَرَةِ، فَسَأَلَهُ عَنْ حَدِيثٍ مِنْ تِلْكَ الأَحَادِيثِ، فَقَالَ: لا أَعْرِفُهُ، فَسَأَلَهُ عَنْ آخَرَ، فَقَالَ: لا أَعْرِفُهُ، فَمَا زَالَ يُلْقِي عَلَيْهِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ، حَتَّىٰ فَرَغَ مِنَ الْعَشَرَةِ، وَالْبُخَارِيُّ يَقُولُ: لا أَعْرِفُهُ، وَكَانَ بَعْضُ الْفُهَمَاءِ يَقُولُ: الرَّجُلُ فَهِمٌ، وَبَعْضُهُمْ يَقْضِي عَلَيْهِ بِالْعَجْزِ.

ثُمَّ ابْتَدَرَ رَجُلٌ آخَرُ، فَسَأَلَهُ عَنِ الأَحَادِيثِ، وَهُوَ يَقُولُ فِي كُلِّ حَدِيثٍ: لا أَعْرِفُهُ، حَتَّىٰ فَرَغَ مِنْ عَشَرَةٍ، ثُمَّ الثَّالِثُ، ثُمَّ الرَّابِعُ، إِلَىٰ تَمَامِ الْعَشَرَةِ، وَالْبُخَارِيُّ لا يَزِيدُهُمْ عَلَىٰ لا أَعْرِفُهُ، فَلَمَّا فَرَغُوا، الْتَفَتَ إِلَىٰ الأَوَّلِ، فَقَالَ: أَمَّا حَدِيثُكَ الأَوَّلُ، فَهُوَ كَذَا، وَحَدِيثُ الثَّانِي كَذَا، وَحَدِيثُ الثَّالِثُ كَذَا، وَالرَّابِعُ، حَتَّىٰ أَتَىٰ عَلَىٰ تَمَامِ الْعَشَرَةِ، فَرَدَّ كُلَّ مَتْنٍ إِلَىٰ إِسْنَادِهِ، وَكُلَّ إِسْنَادٍ إِلَىٰ مَتْنِهِ،

وَفَعَلَ بِالآخَرِ مِثْلَ ذَلِكَ، فَأَقَرَّ لَهُ النَّاسُ بِالْحِفْظِ وَأَذْعَنُوا لَهُ بِالْفَضْلِ. (١)

• **ذكر البغداديين فضله:**

✍ **قال أحمد بن حنبل**: انتهىٰ الحفظ إلىٰ أربعة من أهل خراسان: أبو زرعة الرازي، ومحمد بن إسماعيل البخاري، وعبد الله بن عبد الرحمن السمرقندي، والحسن بن شجاع البلخي. وقال أيضًا: ما أخرجت خراسان مثل محمد بن إسماعيل البخاري.

✍ **وعن يعقوب بن إبراهيم الدورقي، يقول**: محمد بن إسماعيل فقيه هذه الأمة.

✍ **وعن محمد بن أبي حاتم، قَالَ**: سمعت أبا عمرو المستنير بن عتيق البكري، قَالَ: سمعت رجاء بن المرجىٰ، يقول: فضل محمد بن إسماعيل علىٰ العلماء كفضل الرجال علىٰ النساء، فقال: له رجل يا أبا محمد كل ذلك بمرة، فقال: هو آية من آيات الله يمشي علىٰ ظهر الأرض.

✍ ولما قدم رجاء بن مرجىٰ المروزي الحافظ بخارىٰ يريد الخروج إلىٰ الشاش نزل الرباط وصار إليه مشايخنا وصرت فيمن صار إليه، فسألني عن أبي عبد الله محمد بن إسماعيل، فأخبرته بسلامته، وقلت له: لعله يجيئك الساعة، فأملىٰ علينا وانقضىٰ المجلس ولم يَجِئْ أبو عبد الله.

فلما كان اليوم الثاني لم يجئه، فلما كان اليوم الثالث قَالَ رجاء: إن أبا عبد الله لم يرنا أهلا للزيارة فمروا بنا إليه نقضي حقه، فإني علىٰ الخروج،

---

(١) الحث علىٰ حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ: (ص: ٩٢).

وكان كالمترغم عليه، فجئنا بجماعتنا إليه، ودخلنا علىٰ أبي عبد الله، وسأل به، فقال له رجاء: يا أبا عبد الله كنت بالأشواق إليك وأشتهي أن تذكر شيئًا من الحديث، فإني علىٰ الخروج.

قَالَ: ما شئت.

فألقىٰ عليه رجاء شيئًا من حديث أيوب، وأبو عبد الله يجيب إلىٰ أن سكت رجاء عن الإلقاء، فقال لأبي عبد الله: ترىٰ بقي شيء لم نذكره؟ فأخذ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل يلقي، ويقول رجاء: من روىٰ هذا؟ وأبو عبد الله يجيء بإسناده إلىٰ أن ألقىٰ قريبًا من بضعة عشر حديثًا أو أكثر أعدها.

وتغير رجاء تغيرًا شديدًا، وحانت من أبي عبد الله نظرة إلىٰ وجهه فعرف التغير فيه، فقطع الحديث.

فلما خرج رجاء قَالَ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل: أردت أن أبلغ به ضعف ما ألقيته إلا أني خشيت أن يدخله شيء فأمسكت.

✍ **عن أبي بكر محمد بن إسحاق، يقول:** ما رأيت تحت أديم هذه السماء أعلم بالحديث من محمد بن إسماعيل البخاري.

- **شهادة الإمام مسلم في الإمام البخاري:**

✍ **عن أَحْمَدَ بْن حَمْدُونَ الْحَافِظ، يَقُولُ:** كُنَّا عِنْدَ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ الْبُخَارِيِّ فَجَاءَ مُسْلِمُ بْنُ الْحَجَّاجِ فَسَأَلَهُ، عَنْ حَدِيثِ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ وَمَعَنَا أَبُو عُبَيْدَةَ.

فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ: حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي أُوَيْسٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَخِي أَبُو

بَكْرٍ، عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بِلالٍ، عَـنْ عُبَيْـدِ اللهِ، عَـنْ أَبِـي الزُّبَيْـرِ، عَـنْ جَـابِرٍ الْقِصَّـةَ، بِطُولِهِ.

فَقَرَأَ عَلَيْهِ إِنْسَانٌ حَدِيثَ حَجَّاجِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ، عَنْ مُوسَىٰ بْـنِ عُقْبَـةَ، قَـالَ: حَـدَّثَنِي سُـهَيْلُ بْـنُ أَبِـي صَـالِحٍ، عَـنْ أَبِيـهِ، عَـنْ أَبِـي هُرَيْـرَةَ، قَـالَ: «**كَفَّارَةُ الْمَجْلِسِ إِذَا قَامَ الْعَبْدُ، أَنْ يَقُولَ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ أَشْـهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ**».

فَقَالَ لَهُ مُسْلِمٌ: فِي الدُّنْيَا أَحْسَنُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ؟ ابْنُ جُرَيْجٍ، عَنْ مُوسَىٰ ابْنِ عُقْبَةَ، عَنْ سُهَيْلٍ.

يُعْرَفُ بِهَذَا الإِسْنَادِ فِي الدُّنْيَا، حَدِيثًا؟ قَالَ مُحَمَّدٌ: لا.

إِلا أَنَّهُ مَعْلُولٌ.

فَقَالَ مُسْلِمٌ لا إِلَهَ إِلا اللهَ وَارْتَعَدَ. قَالَ: أَخْبَرَنِي بِهِ.

قَالَ: اسْتُرْ مَا سَتَرَ اللهُ، فَإِنَّ هَذَا حَدِيثٌ جَلِيلٌ رَوَاهُ الْخَلْـقُ عَـنْ حَجَّـاجِ بْـنِ مُحَمَّدٍ، عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ، فَأَلَحَّ عَلَيْهِ وَقَبَّلَ رَأْسَهُ وَكَـادَ أَنْ يَبْكِـيَ مُسْـلِمٌ، فَقَـالَ لَـهُ أَبُـو عَبْـدِ اللهِ: اكْتُـبْ إِنْ كَـانَ لا بُـدَّ، حَـدَّثَنَا مُوسَـىٰ بْـنُ إِسْـمَاعِيلَ، قَـالَ: حـدثنا وُهَيْبٌ، قَالَ: حَدَّثَنِي مُوسَىٰ بْنُ عُقْبَةَ، عَنْ عَوْنِ بْـنِ عَبْـدِ اللهِ، قَـالَ: قَـالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: «**كَفَّارَةُ الْمَجْلِسِ**». فَقَالَ لَهُ مُسْـلِمٌ لا يُبْغِضُـكَ إِلا حَاسِـدٌ، وَأَشْـهَدُ أَنَّ لَيْسَ فِي الدُّنْيَا مِثْلُكَ.

❊



المبحث السابع
الربانيون شهداء

لقد سبق معنا أن الربانيين حفظة لكتاب الله، يحملون بين جنباتهم القرآن، قال تعالىٰ: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٩]، وكما أنهم حفظة للقرآن فهم عليه شهداء قال تعالىٰ: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ ﴾ [المائدة:٤٤].

- يا أمة محمد: إن الله أخرجكم لتكونوا شهداء علىٰ الناس قال تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ ﴾ [البقرة:١٤٣]، وشرط من يشهد أن يرىٰ، فهل رأيت؟!

هذه هي القضية، إن الرؤية تحصل باليقين، وأين يقينك الذي به رأيت لتكون شهيدًا للدين، شهيدًا بالدين، شهيدًا في الدين، شهيدًا علىٰ الدين: قال تعالىٰ: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ [المائدة:٤٤].

✍ ومن هنا لنا إشارات، ووقفات مع أحسن العطايا، وأحسن العطايا هو اليقين فأقول مستعينًا بالله:

اليقين لغة:

مصدر قولهم «يقن» وهو راجع إلىٰ مادّة (ي ﷺ ن) الّتي تدلّ علىٰ زوال الشّكّ، وقيل: اليقين من صفة العلم فوق المعرفة والدّراية وأخواتها، يقال: علم يقين ولا يقال: معرفة يقين.

وقال الجوهريّ: اليقين: العلم وزوال الشّكّ، يقال منه: يقنت الأمر يقنا (ويقنا)، وأيقنته وأيقنت به واستيقنته واستيقنت به وتيقّنت: كلّه بمعنىٰ: أي علمته وتحقّقته، ويقال: هو يقن، ويقن ويقن، ويقنة، وميقان: إذا كان لا يسمع شيئا إلّا أيقنه.

وقال ابن منظور: اليقين هو العلم وإزاحة الشّكّ وتحقيق الأمر. يقال من ذلك: أيقن يوقن إيقانا فهو موقن، ويقن ييقن يقنا فهو يقن، واليقين: نقيض الشّكّ، والعلم نقيض الجهل، تقول علمته يقينًا (أي علمًا لا شكّ فيه) وفي التّنزيل العزيز: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٥١﴾ [الحاقة:٥١] أضاف الحقّ إلىٰ اليقين لا أنّه غيره، إنّما هو خالصه وأصحّه، فصار بمنزلة إضافة البعض إلىٰ الكلّ، واليقين هو الموت في قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر:٩٩] وإنّما صارت الياء واوًا في قولك موقن للضّمّة قبلها.

وإذا صغّرتها رددتها إلىٰ الأصل في قولك مييقن. وربّما عبّروا عن الظّنّ باليقين، وباليقين عن الظّنّ. (١)

---

(١) المقاييس (٦/ ١٥٧) والصحاح (٦/ ٢٢١٩)، بصائر ذوي التمييز (٣٩٥)، ولسان العرب (٥/ ٤٩٦٤).

اليقين اصطلاحًا:

قال الرّاغب: اليقين هو سكون الفهم مع ثبات الحكم.[(١)]

وقال المناويّ: اليقين هو العلم بالشّيء بعد أن كان صاحبه شاكّا فيه، ولذلك لا يطلق علىٰ علمه تعالىٰ.[(٢)]

وقال الكفويّ: اليقين هو أن تعلم الشّيء ولا تتخيّل خلافه.[(٣)]

وقال في موضع آخر: اليقين: هو الاعتقاد الجازم الثّابت المطابق للواقع، وقيل: هو عبارة عن العلم المستقرّ في القلب لثبوته من سبب متعيّن له بحيث لا يقبل الانهدام.[(٤)]

وقال التّهانويّ: اليقين هو الاعتقاد الجازم المطابق الثّابت، أي الّذي لا يزول بتشكيك المتشكّك، فبالاعتقاد يخرج الشّك، وبالجازم يخرج الظّنّ، وبالمطابق يخرج الجهل، وبالثّابت يخرج اعتقاد المقلّد.[(٥)]

وقال الجرجانيّ: اعتقاد الشّيء بأنّه كذا مع اعتقاد أنّه لا يمكن إلّا كذا مطابقا للواقع غير ممكن الزّوال.[(٦)]

---

(١) المفردات: (٥٥٢).

(٢) التوقيف علىٰ مهمات التعاريف: (٣٤٧).

(٣) الكليات: (٦٧).

(٤) المرجع السابق (٩٧٩).

(٥) الكليات (٢١٣- ٩٨٠).

(٦) التعريفات (٢٥٩).

الفرق بين التصديق والإيقان:

* **الفرق بين التّصديق والإيقان**: أنّ اليقين قد يكون ضروريّا والتّصديق اختياريّ إذ قد يحدث اليقين ولا يحدث التّصديق وذلك كمن شاهد معجزة النّبيّ ﷺ ولم يصدّق به، هذا في الدّنيا، أمّا في الآخرة فإنّ التّصديق يكون مقدّما علىٰ اليقين إذ لا يحدث اليقين بأحوال الآخرة إلّا بتصديق النّبيّ ﷺ فيما أخبر به عن ربّه في ذلك[1]، وقد يذكر اليقين بمعنىٰ التّصديق (الإيمان) للمناسبة بينهما.[2]

متى يكون (لفظ) الظن يقينًا؟

إنّ الظّنّ قد يعبّر عنه باليقين واليقين قد يعبّر عنه بالظّنّ، وقد نقل عن مجاهد قوله: كلّ ظنّ في القرآن فهو يقين وهذا مشكل في كثير من الآيات، وقد ذكر المحقّقون ضوابط لتحديد المراد بالظّنّ.

أحدها: أنّه حيث وجد الظّنّ محمودًا مثابًا عليه فهو يقين وحيث وجد مذمومًا متوعّدًا عليه بالعذاب فهو الشّكّ. (وهذا من جهة المعنىٰ).

الثّاني: أنّ كلّ ظنّ يتّصل به أن (المخفّفة من الثّقيلة) فهو شكّ وكلّ ظنّ يتّصل به أنّ المشدّدة فهو يقين.[3]

---

(١) الكليات (٩٧٩) بتصرف.

(٢) كشاف اصطلاحات الفنون (٣/ ١٥٤٧).

(٣) الكليات (٥٨٨).

منزلة اليقين:

قال ابـن القيّم - رحمه الله -: وَمِـنْ مَنَـازِلِ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥] مَنْزِلَةُ الْيَقِينِ وَهُوَ مِنَ الْإِيمَانِ مَنْزِلَةُ الرُّوحِ مِنَ الْجَسَدِ. وَبِـهِ تَفَاضَـلَ الْعَارِفُونَ. وَفِيهِ تَنَافَسَ الْمُتَنَافِسُونَ. وَإِلَيْـهِ شَـمَّرَ الْعَـامِلُونَ. وَعَمَـلُ الْقَـوْمِ إِنَّمَـا كَانَ عَلَيْهِ. وَإِشَارَاتُهُمْ كُلُّهَا إِلَيْهِ. وَإِذَا تَزَوَّجَ الصَّبْرُ بِالْيَقِينِ: وُلِدَ بَيْنَهُمَا حُصُـولُ الْإِمَامَةِ فِي الدِّينِ. قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ، وَبِقَوْلِهِ: يَهْتَـدِي الْمُهْتَـدُونَ ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ۝٢٤﴾ [السجدة:٢٤].

وَخَـصَّ سُـبْحَانَهُ أَهْـلَ الْيَقِـينِ بِالِانْتِفَـاعِ بِالْآيَـاتِ وَالْبَـرَاهِينِ. فَقَـالَ، وَهُـوَ أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ۝٢٠﴾ [الذاريات:٢٠].

وَخَصَّ أَهْلَ الْيَقِينِ بِالْهُدَىٰ وَالْفَلَاحِ مِنْ بَيْنِ الْعَالَمِينَ، فَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة: ٤ – ٥].

وَأَخْبَرَ عَنْ أَهْلِ النَّارِ: بِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الْيَقِينِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ۝٣٢﴾ [الجاثية:٣٢].

فَـالْيَقِينُ رُوحُ أَعْمَـالِ الْقُلُـوبِ الَّتِـي هِـيَ أَرْوَاحُ أَعْمَـالِ الْجَـوَارِحِ. وَهُـوَ حَقِيقَةُ الصِّدِّيقِيَّةِ. وَهُوَ قُطْبُ هَذَا الشَّأْنِ الَّذِي عَلَيْهِ مَدَارُهُ.

* وَرَوَىٰ خَالِدُ بْنُ يَزِيدَ عَنِ السُّفْيَانَيْنِ عَنِ التَّيْمِيِّ عَـنْ خَيْثَمَـةَ عَـنْ عَبْـدِ اللهِ

ابْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَا تُرْضِيَنَّ أَحَدًا بِسَخَطِ اللهِ. وَلَا تَحْمَدَنَّ أَحَدًا عَلَىٰ فَضْلِ اللهِ، وَلَا تَذُمَّنَّ أَحَدًا عَلَىٰ مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللهُ. فَإِنَّ رِزْقَ اللهِ لَا يَسُوقُهُ إِلَيْكَ حِرْصُ حَرِيصٍ. وَلَا يَرُدُّهُ عَنْكَ كَرَاهِيَةَ كَارِهٍ. وَإِنَّ اللهَ بِعَدْلِهِ وَقِسْطِهِ جَعَلَ الرُّوحَ وَالْفَرَحَ فِي الرِّضَا وَالْيَقِينِ، وَجَعَلَ الْهَمَّ وَالْحُزْنَ فِي الشَّكِّ وَالسُّخْطِ**».

وَالْيَقِينُ قَرِينُ التَّوَكُّلِ. وَلِهَذَا فُسِّرَ التَّوَكُّلُ بِقُوَّةِ الْيَقِينِ.

وَالصَّوَابُ: أَنَّ التَّوَكُّلَ ثَمَرَتُهُ وَنَتِيجَتُهُ. وَلِهَذَا حَسُنَ اقْتِرَانُ الْهُدَىٰ بِهِ.

* قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ [النمل:٧٩] فَالْحَقُّ: هُوَ الْيَقِينُ. وَقَالَتْ رُسُلُ اللهِ: ﴿ **وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ** ﴾ [إبراهيم:١٢].

وَمَتَّىٰ وَصَلَ الْيَقِينُ إِلَىٰ الْقَلْبِ امْتَلَأَ نُورًا وَإِشْرَاقًا. وَانْتَفَىٰ عَنْهُ كُلُّ رَيْبٍ وَشَكٍّ وَسَخَطٍ، وَهَمٍّ وَغَمٍّ. فَامْتَلَأَ مَحَبَّةً للهِ. وَخَوْفًا مِنْهُ وَرِضًا بِهِ، وَشُكْرًا لَهُ، وَتَوَكُّلًا عَلَيْهِ، وَإِنَابَةً إِلَيْهِ. فَهُوَ مَادَّةُ جَمِيعِ الْمَقَامَاتِ وَالْحَامِلُ لَهَا.(١)

واليقين يحمل علىٰ مباشرة الأهوال وركوب الأخطار، وهو يأمر بالتّقدّم دائما، فإن لم يقارنه العلم حمل علىٰ المعاطب، والعلم (وحده) يأمر بالتّأخّر دائما وبالإحجام، فإن لم يصبه اليقين فقد يصدّ صاحبه عن المكاسب والمغانم. (٢)

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤١٣). وانظر أيضا: بصائر ذوي التمييز (٥/ ٣٩٥).
(٢) بصائر ذوي التمييز (٥/ ٤٠٠).

علامات اليقين:

قال الفيروز آباديّ: ثلاثة من أعلام اليقين:

١- قلّة مخالطة النّاس في العشرة.

٢- ترك المدح لهم في العطيّة.

٣- التّنزّه عن ذمّهم عند المنع.

ومن علاماته أيضًا: النّظر إلىٰ الله في كلّ شيء، والرّجوع إليه في كلّ أمر، والاستعانة به في كلّ حال.(١)

أنواع اليقين:

قال أبو بكر الورّاق -رحمه الله-: اليقين علىٰ ثلاثة أوجه: يقين خبر، ويقين دلالة، ويقين مشاهدة.

يريد بيقين الخبر سكون القلب إلىٰ خبر المخبر ووثوقه به، ويقين الدّلالة ما هو فوقه وهو أن يقيم له مع وثوقه بصدقه الأدلّة الدّالّة علىٰ ما أخبر به وهذا كعامّة الأخبار بالإيمان والتّوحيد وهو في القرآن، فإنّه سبحانه مع كونه أصدق القائلين الصّادقين يقيم لعباده الأدلّة والبراهين علىٰ صدق أخباره، فيحمل لهم اليقين من الوجهين، من جهة الخبر ومن جهة التّدليل. فيرتفعون من ذلك إلىٰ الدّرجة الثّالثة وهي يقين المكاشفة بحيث يكون المخبر به كالمرئيّ لعيونهم، فنسبة الإيمان بالغيب هي إلىٰ القلب كنسبة

---

(١) المرجع السابق (٥/ ٣٩٧).

المرئيّ إلىٰ العين، وهذا أعلىٰ أنواع اليقين، وهي الّتي أشار إليها عامر بن عبد القيس في قوله: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقينًا» وليس هذا من كلام رسول الله ﷺ ولا من كلام عليّ بن أبي طالب- رضي الله عنه - كما يظنّه من لا علم له بالمنقولات. (١)

درجات اليقين:

اليقين علىٰ ثلاث درجات:

أ- علم اليقين: وهو ما ظهر من الحقّ، وقبول ما غاب للحقّ، والوقوف علىٰ ما قام بالحقّ فالّذي ظهر من الحقّ هو أوامره ونواهيه ودينه الّذي أظهره علىٰ ألسنة رسله. والّذي غاب للحقّ: هو الإيمان بالغيب كالجنّة والنّار والصّراط والحساب ونحو ذلك، أمّا الوقوف علىٰ ما قام بالحقّ أي من أسمائه وصفاته وأفعاله.

ب- عين اليقين: ما استغنىٰ به صاحبه عن طلب الدّليل لأنّ الدّليل يطلب للعلم بالمدلول، فإذا كان المدلول مشاهدا له. فلا حاجة حينئذ للاستدلال.

ج- حقّ اليقين: وهذه منزلة الرّسل عليهم الصّلاة والسّلام، فقد رأىٰ نبيّنا ﷺ بعينه الجنّة والنّار وكلّم الله تعالىٰ موسىٰ- عليه السلام- بلا واسطة، أمّا بالنّسبة لنا فإنّ حقّ اليقين يتأخّر إلىٰ وقت اللّقاء.

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤١٨) بتصرف. وانظر بصائر ذوي التمييز (٥/ ٣٩٦- ٤٠٥).

وممّا يوضّح ذلك: أن يخبرك شخص أنّ عنده عسلا وأنت لا تشكّ في صدقه. ثمّ أراك إيّاه فازددت يقينا، ثمّ ذقت منه. فالأوّل علم اليقين، والثّاني عين اليقين، والثّالث حقّ اليقين.

فعلمنا الآن بالجنّة والنّار: علم اليقين، فإذا أزلفت الجنّة للمتّقين، وشاهدها الخلائق، وبرّزت الجحيم للغاوين، وعاينها الخلائق فذلك: عين اليقين، فإذا أدخل أهل الجنّة الجنّة، وأهل النّار النّار فذلك حينئذ حقّ اليقين.(١)

حديث القرآن عن اليقين:

- **العمل للآخرة دليل اليقين:**

* قال تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤ ﴾ [البقرة:٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٤٨ ﴾ [المائدة:٤٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ٥ ﴾ [النمل: ٤- ٥].

- **اليقين هبة من الله لبعض عباده:**

* قال تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٢٠) وبصائر ذوي التمييز (٥/ ٤٠٢).

كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة:١١٨].

• النظر في خلق الله طريق إلى اليقين:

قال تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ (١) ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنعام:٧٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الرعد:٢] وغير ذلك من الآيات.

• ثواب أهل اليقين:

* قال تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة:٢٤].

• حق اليقين في أحوال أهل الآخرة:

* قال تعالىٰ: ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ

---

(١) الله -عَزَّوَجَلَّ- أطلع إبراهيم -عَلَيْهِ السَّلَامُ- علىٰ ما في ملكوت السموات والأرض من المخلوقات، فلما علم أنه ليس بيدها شيء، وأن أمرها بيد الله وحده، صرف وجهه عن هذه الأشياء إلىٰ خالق هذه الأشياء، وتوكل عليه وحده في جميع أموره فقال: ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام:٧٩]، وبهذا اليقين العظيم واجه الباطل، وأنجاه الله من ظلم الطغاة، فلما ألقوه في النار، أنجاه الله من النار، وانتصر التوحيد علىٰ الشرك.

هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الواقعة: ٩٠ - ٩٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الحاقة: ٤٨ - ٥٢].

• عين اليقين بالرؤية:

* قال تعالىٰ: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [النمل: ٢٠ - ٢٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المدثر:٣١]، وقال تعالىٰ: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾ [التكاثر: ٥ - ٨].

حديث السنة عن اليقين:

* لقد ذكر النبي -ﷺ- اليقين، وحض عليه، ورفع من شأنه في كثير من الأحاديث، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَقِيلٍ، أَنَّ مُعَاذَ بْنَ رِفَاعَةَ، أَخْبَرَهُ عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَامَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، عَلَىٰ المِنْبَرِ ثُمَّ بَكَىٰ فَقَالَ: قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَامَ الأَوَّلِ عَلَىٰ المِنْبَرِ ثُمَّ بَكَىٰ فَقَالَ: «**اسْأَلُوا اللهَ العَفْوَ وَالعَافِيَةَ، فَإِنَّ أَحَدًا لَمْ**

يُعْطَ بَعْدَ اليَقِينِ خَيْرًا مِنَ العَافِيَةِ». (١)

* بل إن النبي ﷺ جعل اليَقِين من أهم أسس صلاح الأفراد والأمة كلها حصول اليقين، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**صَلَاحُ أَوَّلِ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِالزُّهْدِ وَالْيَقِينِ، وَيَهْلِكُ آخِرُهَا بِالْبُخْلِ وَالْأَمَلِ**». (٢)

* وقد كان النبي -ﷺ- يطلب من ربه ويدعوه أن يرزقه اليقين، عَنْ خَالِدِ بْنِ أَبِي عِمْرَانَ، أَنَّ ابْنَ عُمَرَ، قَالَ: قَلَّمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُومُ مِنْ مَجْلِسٍ حَتَّىٰ يَدْعُوَ بِهَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ لِأَصْحَابِهِ: «**اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ، وَمِنَ اليَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا.....**». (٣)

* كما أنه كان -ﷺ- يستعيذ بالله من الشك، فعَنْ أَبِي جَعْفَرٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّكِّ بَعْدَ الْيَقِينِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ مُقَارَنَةِ الشَّيَاطِينِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الدِّينِ**». (٤)

* وخاف علىٰ أمته الشك والريب، فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّمَا أَتَخَوَّفُ عَلَىٰ أُمَّتِي ضَعْفَ الْيَقِينِ**». (٥)

---

(١) سنن الترمذي: (٣٥٥٨)، وصحيح الجامع: (٣٦٣٢).
(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ١٠)، صَحِيح الْجَامِع: ٣٨٤٥، الصَّحِيحَة: ٣٤٢٧.
(٣) الترمذي: (٣٥٠٢)، صَحِيح الْجَامِع: ١٢٦٨.
(٤) مصنف ابن أبي شيبة: (٦/ ١٩).
(٥) الزهد والرقائق لابن المبارك والزهد لنعيم بن حماد (١/ ١٩٦).

معرفة السلف أهمية اليقين:

– لقد أدرك سلف الأمة الصالحون من الصحابة والتابعين أهمية اليقين، فكانوا يرفعون من شأنه ويكثرون من ذكره، فعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ –رضي الله عنه– قال: «وَخَيْرُ مَا أُلْقِيَ فِي الْقَلْبِ الْيَقِينُ، وَخَيْرُ الْغِنَىٰ غِنَىٰ النَّفْسِ، وَخَيْرُ الْعِلْمِ مَا نَفَعَ، وَخَيْرُ الْهُدَىٰ مَا اتُّبِعَ، وَمَا قَلَّ وَكَفَىٰ خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَأَلْهَىٰ..». (١)

– وكان –رضي الله عنه– يقول: «الفرح والروح في اليقين والرضا، والغم والحزن في الشك والسخط».

– وعن الحسن –رحمه الله– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: «**إلا إن الناس لم يؤتوا في الدنيا شيئًا خيرًا من اليقين، والعافية، فسلوهما الله** –عز وجل–». وقال الحسن: «صدق الله، وصدق رسوله، باليقين هُرب من النار، وباليقين طُلبت الجنة، وباليقين صُبر علىٰ المكروه، وباليقين أُديت الفرائض، وفي معافاة الله خير كثير، قد والله رأيناهم يتقاربون في العافية، فإذا وقع البلاء تباينوا». (٢)

اليقين البشري نوعان:

أحدهما: يقين علىٰ الله، وهذا يقين المؤمنين، حيث يولد الطاعة والمحبة لله ورسوله –صلى الله عليه وسلم–، والإقبال علىٰ الله، والتوجه إليه في جميع الأحوال.

الثاني: يقين علىٰ الأسباب والأشياء، وهذا يقين الكفار، وهذا يولد عند

---

(١) جامع معمر بن راشد: (١١ / ١٥٩).

(٢) الزهد والرقائق لابن المبارك والزهد لنعيم بن حماد: (١/ ١٩٦).

الإنسان الاعتماد علىٰ الأسباب، والدعوة إلىٰ الأسباب، والتوجه إليها في جميع الأحوال.

وبسبب هذا اليقين يغفل الإنسان عن مراد الله منه، وعن مراده من الله، ويشغل بدنياه عن آخرته، فيشقىٰ في دنياه، ويخسر آخرته.

اليقين سر الثبات في المواقف الصعبة:

إذا تساءلنا عن سبب ثبات بعض الناس في مواقف حياتية يتعرضون لها، وسقوط آخرين عند نفس الموقف نكتشف أنهم يملكون صفات معينة يفتقدها الآخرون، ومنها وهو مقدمتها اليقين.

والذي يمتلك هذه الصفة يدرك أنَّ كل ما يصيبه في هذه الحياة الدنيا بتقدير من الله -ﷻ، فالأشياء لا تأتي إلا بإرادة الله، والأحوال لا تصلح إلا بإرادة الله، فهو الذي يفعل ما يشاء، ويغير إذا شاء، ويبدل إذا شاء، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وبيده كل شيء قال سبحانه: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران:٢٦].

والذي يمتلك هذه الصفة يدرك أنه إذا عمل بإخلاص فالله سيجزيه، فحينها يدرك يقينًا أن النصر قادم لا محالة، وأن الظلم إن وُجد لن يستمر، وأن الإنسان مبتلىٰ في هذه الحياة، وأن الحياة زائلة، وأن المصاعب التي نواجهها هي خير لنا؛ لأننا لا نعلم الغيب، ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة:٥١]، فكم من

الأمور كنا نعتقد أنها شرّ لنا وقت حدوثها، ثم بعد مرور الوقت اكتشفنا أنها لصالحنا، قال تعالىٰ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦]، وقال تعالىٰ: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩﴾ [النساء:١٩].

احتمال البلاء علامة على ثقة المؤمن بربه:

إن احتمال البلاء علامة علىٰ ثقة المؤمن بربه، وهذه العلامة تنتج عن قوة في اليقين به سبحانه، وعلمًا بأن وعده حق، وأن من استمسك بحبله فقد استمسك بحبل غير منقطع، وهذه الثقة تجعله يحس بالطمأنينة لما يدور حوله من أحداث، يري أنها مظلمة ومليئة بالظلال التي تعتم دوائر الضوء في النفس فتورثها كآبة تنغص عليها حياتها.

قال ابن القيم رحمه الله تعالىٰ في بيان ذلك: وَالَّذِي يَحْسِمُ مَادَّةَ الْخَوْفِ هُوَ التَّسْلِيمُ للهِ. فَإِنَّ مَنْ سَلَّمَ للهِ وَاسْتَسْلَمَ لَهُ، وَعَلِمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ، وَعَلِمَ أَنَّهُ لَنْ يُصِيبَهُ إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَهُ - لَمْ يَبْقَ لِخَوْفِ الْمَخْلُوقِينَ فِي قَلْبِهِ مَوْضِعٌ أَيْضًا. فَإِنَّ نَفْسَهُ الَّتِي يَخَافُ عَلَيْهَا قَدْ سَلَّمَهَا إِلَىٰ وَلِيِّهَا وَمَوْلَاهَا. وَعَلِمَ أَنَّهُ لَا يُصِيبُهَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهَا. وَأَنَّ مَا كُتِبَ لَهَا لَا بُدَّ أَنْ يُصِيبَهَا. فَلَا مَعْنَىٰ لِلْخَوْفِ مِنْ غَيْرِ اللهِ بِوَجْهٍ. (١)

المؤمن في يقينه على ربه كالطير:

إن الطير ما دام في الأرض، يرىٰ كل شيء كبيرًا، ويخاف من أي شيء،

---

(١) مدارج السالكين: (٢/ ٣٢).

فإذا حلّق في السماء، رأىٰ كل شيء صغيرًا، ولا يخاف من أحد؛ لأنه ترقىٰ في علو السماء.

والمسلم كذلك ما دام متأثرًا بالمخلوق فهو دائمًا في خوف، فإذا تعلق بالله وتوكل عليه وحده سقط من عينه المخلوق مهما كان، ومهما كانت قوته.

وسائل حصول اليقين:

١- اليقين لا يحصل إلا بالمجاهدة، فالقائم علىٰ النار يخاف منها، ولا يلتفت إلىٰ سواها، فكيف إذا وقف أمام الخالق الجبار كيف لا يخافه هيبةً وإجلالًا وتعظيمًا.

والطفل الصغير إذا أراد شيئًا من أمه أو أبيه سأله بيقين؛ لأنه لا يعرف غيرهما، فكذلك المسلم إذا سأل ربه باليقين، ولم يلتفت إلىٰ غيره أجابه كما قال -سبحانه-: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة:١٨٦].

٢- والبكاء سبب لحصول المراد، فالطفل يبكي كلما أراد شيئًا من أمه أو أبيه، ولا يزال يبكي حتىٰ يحصل علىٰ ما يريد، وكذلك المسلم يبكي أمام الله خاشعًا ذليلًا، مستغفرًا متضرعًا حتىٰ يستجاب له، كما قال سبحانه عن عباده المؤمنين: ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴾ [الإسراء:١٠٩].

أمور يزداد بها اليقين في القلوب:

١ – كثرة التأمل في كتاب الله وتدبر معانيه، ولا ينتفع بالقرآن حقًّا إلا من جاء عنده اليقين علىٰ الله وحده، وتوكل عليه وحده، وفوَّض الأمور كلها إلىٰ الله وحده، كما قال سبحانه: ﴿ **هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴿٢٠﴾ ﴾ [الجاثية:٢٠].

٢– تدبر الآيات الكونية.

٣– تدبر معاني صفات الله تعالىٰ، وقد طلب خليل الرحمن ذلك من خلال أن يريه ربه كيفية الخلق مشاهدة قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾ [البقرة:٢٦٠].

٤ – كثرة سؤال الله تعالىٰ الإيمان واليقين والهدىٰ، ففي حديث عبدالله ابن عمر – رضي الله عنه – قال كان –عليه الصلاة والسلام– يقول: «**اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ، وَمِنَ اليَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا**(١)......». (٢)

---

(١) إن الدنيا مصائبها كثيرة؛ لكن هذه المصائب إذا كان عند الإنسان يقين فإنه يعلم أن الله يكفر بها من سيئاته ، ويرفع بها من درجاته ، وإذا صبر واحتسب الأجر من الله هانت عليه المصائب وسهلت عليه المحن مهما عظمت، سواء كانت في بدنه أو في أهله أو في ماله.

(٢) الترمذي: (٣٥٠٢)، صَحِيح الْجَامِع: ١٢٦٨.

٥- العمل بما تعلّم العبد (١) من الدين.

٦- تعبّده لله تعالىٰ.

٧- ذكر العبد لربه سبحانه وتعالىٰ في كل حال.

---

(١) من فضل العلم: أنه يثمر اليقين، الذي به حياة القلب وطمأنينته، وبه مدح الله المتقين المهتدين بكتابه، حيث قال: ﴿وَبِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ [البقرة:٤]، وهم الذين فصل الله لهم الآيات، سواء أكانت آيات تنزيلية مسطورة، أم آيات تكوينية منظورة، يقول تعالىٰ: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٩٧﴾ [الأنعام:٩٧]، ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢﴾ [الرعد:٢]، ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ [الجاثية:٤].
أثنىٰ الله علىٰ خليله إبراهيم بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ۝٧٥﴾ [الأنعام:٧٥]. وذم من لا يقين عنده بقوله: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ۝٨٢﴾ [النمل:٨٢].
ولقد جعل القرآن اليقين أحد عنصرين يرتقي الإنسان بهما إلىٰ الإمامة في الدين، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤].
والإنسان إذا كان إيمانه ويقينه مزعزعًا، ناوشته الشبهات من كل جانب، وعرضت له الشكوك عن يمين وشمال، وذلك لضعف علمه، وقلة بصيرته ، فيغدو كالريشة في مهب الريح، لا تستقر علىٰ حال.
أما صاحب اليقين، فهو ـ لرسوخه في علمه، وقوة إيمانه ـ كالطود الراسي، لا يتزعزع ولا يتزلزل، ولا تؤثر فيه رياح الشكوك والشبهات، بل هو لو وردت عليه من الشبه بعدد أمواج البحر ـ كما قال ابن القيم ـ ما أزالت يقينه، ولا قدحت فيه شكا، لأنه قد رسخ في العلم، فلا تستفزه الشبهات، بل إذا وردت عليه ردها حرس العلم وجيشه مغلولة مغلوبة.

٨- كثرة النظر في نصوص الوحي الزاخرة بآيات الترغيب والترهيب والوعد والوعيد، ولا يلزم من زيادة اليقين أن توجد كرامات ولا أن تترك الأسباب، فكثير من الصحابة لم تكن لهم كرامات، وكان الأنبياء والصحب يتكسبون؛ عَنِ المِقْدَامِ ﵁، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ، خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ ﵇، كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ**» (١)، وقد تاجر الصحابة وزرعوا وامتهنوا المهن، وكذلك خيار السلف بعدهم.

مواقف لأهل اليقين:

- **يقين الخليل ﵇:**

إبراهيم - ﷺ- حينما أُلقي في النار، لم يتوجه إلىٰ أي مخلوق، وإنما توجه إلىٰ الله طالبًا منه النجاة وحده، فسلب الله الإحراق من النار فورًا، وجعلها بردًا وسلامًا عليه. ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء: ٦٨ - ٧٠].

وهذا مصداق ما صح عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ، «قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ ﵇ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ» حِينَ قَالُوا: ﴿**إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾**﴾

(١) صحيح البخاري: (٢٠٧٢).

[آل عمران:١٧٣].(١)

قَالَ مُقَاتِلٌ وَسَعِيدٌ: «لَمَّا جِيءَ بِإِبْرَاهِيمَ عليه السلام فَخَلَعُوا ثِيَابَهُ، وَشَدُّوا قِمَاطَهُ، وَوُضِعَ فِي الْمَنْجَنِيقِ، بَكَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالْعَرْشُ وَالْكُرْسِيُّ وَالسَّحَابُ وَالرِّيحُ وَالْمَلَائِكَةُ، كُلٌّ يَقُولُونَ: يَا رَبُّ إِبْرَاهِيمُ عَبْدُكَ يُحْرَقُ بِالنَّارِ، فَائْذَنْ لَنَا فِي نُصْرَتِهِ، فَقَالَتِ النَّارُ وَبَكَتْ: يَا رَبُّ سَخَّرْتَنِي لِبَنِي آدَمَ، وَعَبْدُكَ يُحْرَقُ بِي، فَأَوْحَىٰ الله عز وجل إِلَيْهِمْ: «إِنَّ عَبْدِي إِيَّايَ عَبَدَ، وَفِي جَنْبِي أُوذِيَ، إِنْ دَعَانِي أَجَبْتُهُ، وَإِنِ اسْتَنْصَرَكُمْ فَانْصُرُوهُ». فَلَمَّا رُمِيَ اسْتَقْبَلَهُ جِبْرِيلُ عليه السلام بَيْنَ الْمَنْجَنِيقِ وَالنَّارِ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا إِبْرَاهِيمُ أَنَا جِبْرِيلُ، أَلَكَ حَاجَةٌ؟ قَالَ: أَمَّا إِلَيْكَ فَلَا حَاجَتِي إِلَىٰ اللهِ رَبِّي. فَلَمَّا قُذِفَ فِي النَّارِ كَانَ سَبَقَهُ إِسْرَافِيلُ فَسَلَّطَ النَّارَ عَلَىٰ قِمَاطِهِ، وَقَالَ اللهُ عز وجل: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾ [الأنبياء:٦٩]، فَلَوْ لَمْ يَخْلِطْهُ بِالسَّلَامِ لَكُزَّ فِيهَا بَرْدًا».(٢) فما أحوجنا للثقة واليقين بقدرة رب العالمين.

- **يقين السيدة هاجر:**

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَوَّلَ مَا اتَّخَذَ النِّسَاءُ المِنْطَقَ مِنْ قِبَلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ، اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لِتُعَفِّيَ أَثَرَهَا عَلَىٰ سَارَةَ، ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ وَبِابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُرْضِعُهُ، حَتَّىٰ وَضَعَهُمَا عِنْدَ البَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ، فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَىٰ المَسْجِدِ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ، فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ، وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ، ثُمَّ قَفَّىٰ إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ

---

(١) صحيح البخاري: (٤٥٦٣).

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: (١/ ٢٠).

إِسْمَاعِيلَ فَقَالَتْ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الوَادِي، الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ؟ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا، وَجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ لَهُ: آللهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ نَعَمْ، قَالَتْ: إِذَنْ لَا يُضَيِّعُنَا، ثُمَّ رَجَعَتْ... الحديث.(١)

وموقفها عجيب جدًا، إنها كانت متجهة إلىٰ زوجها وتتبعه، وتسأله مرارًا: أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الوَادِي؟، ولكن لما عرفت أن الأمر من الله استسلمت، وتركت زوجها والتفتت بقلبها إلىٰ الله، ثم قَالَتْ: إِذَنْ لَا يُضَيِّعُنَا، ثُمَّ رَجَعَتْ.

- **موسى عليه السلام واليقين في الله سبحانه:**

خرج فرعون بجنوده الذين حشرهم من مختلف المدن، ولحق بموسىٰ ومن معه، وكان خروج فرعون بجنوده الخروج الأخير الذي لا عودة بعده، لذلك علّقت آيات القرآن علىٰ خروجهم، فقال تعالىٰ: ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الشعراء: ٥٧، ٥٨] فالله هو الذي أخرجهم لهلاكهم ودمارهم؛ في الوقت الذي يظن الناس فيه أنهم خرجوا للقضاء علىٰ عباد الله الصالحين. فهم يمكرون بالمؤمنين، ولكن الله فوقهم أسرع مكرا، وهو أسرع الحاسبين.

لقد حان وقت انتقام العزيز الحكيم منهم؛ فأخرجهم من جناتهم، وبساتينهم، وقصورهم، أخرجهم من الخير والرفاه الذي كانوا فيها، خرجوا من النعيم إلىٰ الجحيم.

---

(١) صحيح البخاري: (٣٣٦٤).

- **نجاة بني إسرائيل في لجة البحر من فرعون:**

سار موسىٰ بأتباعه ليلًا، متوجهًا إلىٰ المشرق، إلىٰ البحر الأحمر، حتىٰ يخرج من مصر إلىٰ الأرض المقدسة.

ولما أشرقت شمس الصباح اقترب فرعون وجنوده من المؤمنين، قال تعالىٰ: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الشعراء: ٦٠]، أي: وصلوا إليهم عند شروق الشمس، ولما أشرقت الشمس كان موسىٰ علىٰ الشاطئ، فوقفوا هناك؛ لأنهم ليس معهم سفن ولا قوارب.

فنظر بنو إسرائيل خلفهم، فرأوا منظرًا في غاية الهول!! رأوا فرعون وجنوده مقبلين نحوهم، بعدّتهم وعتادهم. ماذا يفعل بنو إسرائيل أمام هذا الجيش العظيم المدجج؟

وبدأ الخوف يسري في قلوب بني إسرائيل، وسيطر عليهم الفزع، ها هو فرعون وجنوده سينتقمون منا!! فأطلقوا صيحة مِلؤها الرعب، وقالوا: إِنَّا لَمُدْرَكُونَ: لقد أدركونا، والآن ستكون المجزرة والإبادة علينا! هذه هي الضربة القاضية علىٰ الإسلام وأهله، لا بقاء لنا!! ففي حساب البشر ـ المادي ـ ليس أمامهم فرصة للنجاة، فكيف ينجون والبحر من أمامهم، والعدو من خلفهم!! فكل الحسابات البشرية تقول: إنهم مدركون، وأنه قد انتهىٰ أمرهم!!

- **يقين موسى عليه السلام بتأييد ربه ومعيته:**

ولكن.. للإيمان والتوكل علىٰ الله حساب آخر، يعرفه نبيهم موسىٰ عليه السلام،

ولهـــذا طمـــأنهم وأزال خـــوفهم، فقـــال: ﴿كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٦٢﴾ [الشعراء:٦٢]. ثم قدّم لهم حقيقة قاطعة، علل بها سبب طمأنينته ويقينه؛ أن الله معه، وأنه سيهديه إلىٰ التصرف المناسب، وسيخلّصه من أعدائه.

﴿كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٦٢﴾ [الشعراء:٦٢] ربي معي بعلمه وحفظه وعنايته، أبدا لن يتخلّىٰ عني. وهذا ما يجب أن يكون عليه المسلم؛ أن تقوىٰ ثقته بربه وبنصره، فالقوة والاستعداد المادي والثقة بالعدد والعُدّة بدون تعلّقٍ بالله لا يغني شيئًا.

أيها المسلم، قل وأنت تعيش في هذا الزمن الصعب: ﴿كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٦٢﴾ [الشعراء:٦٢]، إن الله لا يتخلّىٰ عن أوليائه.

- **هلاك فرعون ومن معه:**

وقف بنو إسرائيل علىٰ شاطئ البحر، لا يملكون وسيلة مادية للنجاة من فرعون وجيشه، وهنا أظهر الله آيات عجيبة له، نتج عنها نجاة المؤمنين وهلاك الكافرين، آيات ربانية تدل علىٰ أن الله مع أوليائه، يحفظهم ويدفع عنهم.

أمر الله نبيه موسىٰ أن يضرب بعصاه البحر: ﴿ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ ﴾ [الشعراء:٦٣]. ونفّذ موسىٰ أمر ربه، وضرب البحر العظيم بعصا، وماذا عسىٰ أن تفعل عصا من خشب في بحر عظيم؟ ولكنه أمر الله الذي لا يتخلّىٰ عن أوليائه، فإذا بالبحر يُنفّذ أمر الله فينفلق فِلقتين؛ واحدةً عن اليمين والأخرىٰ عن الشمال، وبنو إسرائيل ينظرون إلىٰ ماء البحر، فإذا به

واقف عن اليمين والشمال كالجبل العالي: ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء:٦٣]، فانفلق له البحر، فأنجىٰ الله موسىٰ ومن آمن معه، وأهلك عدوه بهذا البحر في آنٍ واحد، أمر بالنجاة، وأمر بالهلاك قال سبحانه: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾ [الشعراء: ٦٣-٦٨].

• يقين أبي الدحداح:

* عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ لِفُلَانٍ نَخْلَةً، وَأَنَا أُقِيمُ حَائِطِي بِهَا، فَمُرْهُ أَنْ يُعْطِيَنِي أُقِيمُ حَائِطِي بِهَا. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَعْطِهَا إِيَّاهُ بِنَخْلَةٍ فِي الْجَنَّةِ**» فَأَبَىٰ وَأَتَاهُ أَبُو الدَّحْدَاحِ فَقَالَ بِعْنِي نَخْلَكَ بِحَائِطِي قَالَ: فَفَعَلَ، قَالَ: فَأَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي قَدِ ابْتَعْتُ النَّخْلَةَ بِحَائِطِي فَجَعَلَهَا لَهُ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**كَمْ مِنْ عِذْقٍ رَدَاحٍ لِأَبِي الدَّحْدَاحِ فِي الْجَنَّةِ**» مِرَارًا فَأَتَىٰ امْرَأَتَهُ، فَقَالَ يَا أُمَّ الدَّحْدَاحِ اخْرُجِي مِنَ الْحَائِطِ، فَإِنِّي بِعْتُهُ بِنَخْلَةٍ فِي الْجَنَّةِ، فَقَالَتْ: قَدْ رَبِحْتَ الْبَيْعَ أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا. (١)

فمن منا يقايض دنياه بالآخرة ومن منا مُستعد للتفريط في ثروته أو منزله أو سيارته في مقابل شيءٍ آجلٍ لم يره إنه الإيمان بالغيب، وتلك درجة عالية

(١) الحاكم في المستدرك: (٢١٩٤)، وصححه ووافقه الذهبي والألباني في الصحيحة: (٢٩٦٤).

لا تُنال إلا باليقين والثقة بالله الواحد الأحد، لا الثقة بحطام الدنيا الفانية، وهنا الامتحان والاختبار، أرجو أن تكون هذه القصة عبرة لكل من يسمعها أو يقرأها؛ فالدنيا لا تساوي أن تحزن أو تقنط لأجلها، أو يرتفع ضغط دمك من همومها.

• **يقين أعرابي تأثر بسماع القرآن:**

✍ **قال الأصمعي**: «أَقْبَلْتُ ذَاتَ يَوْمٍ مِنْ مَسْجِدِ الْجَامِعِ بِالْبَصْرَةِ فَبَيْنَا أَنَا فِي بَعْضِ سِكَكِهَا إِذْ أَقْبَلَ أَعْرَابِيٌّ جِلْفٌ جَافٍ عَلَىٰ قَعُودٍ لَهُ، مُتَقَلِّدًا سَيْفَهُ، وَبِيَدِهِ قَوْسٌ، فَدَنَا وَسَلَّمَ، وَقَالَ: مِمَّنِ الرَّجُلُ؟

فَقُلْتُ: مِنْ بَنِي الْأَصْمعِ، فَقَالَ لِي: أَنْتَ الْأَصْمَعِيُّ؟

قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ؟

قُلْتُ: مِنْ مَوْضِعٍ يُتْلَىٰ كَلَامُ الرَّحْمَنِ فِيهِ، قَالَ: أَوَ لِلرَّحْمَنِ كَلَامٌ يَتْلُوهُ الْآدَمِيُّونَ؟

فَقُلْتُ: نَعَمْ يَا أَعْرَابِيُّ، فَقَالَ: أَتْلُ عَلَيَّ شَيْئًا مِنْهُ، فَقُلْتُ: انْزِلْ مِنْ قَعُودِكَ، فَنَزَلَ وَابْتَدَأْتُ بِسُورَةِ الذَّارِيَاتِ ذَرْوًا حَتَّىٰ انْتَهَيْتُ إِلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات:٢٢] قَالَ الْأَعْرَابِيُّ: هَذَا كَلَامُ الرَّحْمَنِ؟

قُلْتُ: إِي وَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا بِالْحَقِّ إِنَّهُ لَكَلَامُهُ أَنْزَلَهُ عَلَىٰ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَقَالَ لِي: حَسْبُكَ، فَقَامَ إِلَىٰ نَاقَتِهِ فَنَحَرَهَا بِسَيْفِهِ، وَقَطَّعَهَا بِجِلْدِهَا وَقَالَ: أَعِنِّي عَلَىٰ تَفْرِقَتِهَا، فَوَزَّعْنَاهَا عَلَىٰ مَنْ أَقْبَلَ وَأَدْبَرَ، ثُمَّ كَسَّرَ سَيْفَهُ، وَقَوْسَهُ، وَجَعَلَهَا تَحْتَ الرَّمْلَةِ، وَوَلَّىٰ مُدْبِرًا نَحْوَ الْبَادِيَةِ، وَهُوَ يَقُولُ: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ

وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات:٢٢] يُرَدِّدُهَا فَلَمَّا تَغَيَّبَ عَنِّي فِي حِيطَانِ الْبَصْرَةِ، أَقْبَلْتُ عَلَىٰ نَفْسِي أَلُومُهَا، وَقُلْتُ: يَا أَصْمَعِيُّ، قَرَأْتَ الْقُرْآنَ مُنْذُ ثَلَاثِينَ سَنَةً وَمَرَرْتَ بِهَذِهِ وَأَمْثَالِهَا وَأَشْبَاهِهَا فَلَمْ تَتَنَبَّهْ لَمَّا تَنَبَّهَ لَهُ هَذَا الْأَعْرَابِيُّ، وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ لِلرَّحْمَنِ كَلَامًا، فَلَمَّا قَضَىٰ اللهُ مِنْ أَمْرِي مَا أَحَبَّ، حَجَجْتُ مَعَ هَارُونَ الرَّشِيدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَبَيْنَا أَنَا أَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ إِذَا أَخْبَرَنَا بِهَاتِفٍ يَهْتِفُ بِصَوْتٍ رَقِيقٍ: تَعَالَ يَا أَصْمَعِيُّ، تَعَالَ يَا أَصْمَعِيُّ، قَالَ فَالْتَفَتُّ، فَإِذَا أَنَا بِالْأَعْرَابِيِّ مَنْهُوكًا مُصْفَارًّا، فَجَاءَ، وَسَلَّمَ عَلَيَّ، وَأَخَذَ بِيَدِي وَأَجْلَسَنِي وَرَاءَ الْمَقَامِ، فَقَالَ: اتْلُ مِنْ كَلَامِ الرَّحْمَنِ ذَلِكَ الَّذِي تَتْلُوهُ فَابْتَدَأْتُ ثَانِيًا بِسُورَةِ الذَّارِيَاتِ، فَلَمَّا انْتَهَيْتُ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات:٢٢] صَاحَ الْأَعْرَابِيُّ، وَقَالَ: قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا، قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا، ثُمَّ قَالَ: يَا أَصْمَعِيُّ، هَلْ غَيْرُ هَذَا لِلرَّحْمَنِ كَلَامٌ؟ قُلْتُ: نَعَمْ يَا أَعْرَابِيُّ، يَقُولُ اللهُ ﷻ: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الذاريات: ٢٣]: فَصَاحَ الْأَعْرَابِيُّ عِنْدَهَا وَقَالَ: يَا سُبْحَانَ اللهِ، مَنْ ذَا أَغْضَبَ الْجَلِيلَ حَتَّىٰ حَلَفَ؟ أَفَلَمْ يُصَدِّقُوهُ بِقَوْلِهِ حَتَّىٰ أَلْجَؤُوهُ إِلَىٰ الْيَمِينِ قَالَهَا: ثَلَاثًا وَخَرَجَتْ نَفْسُهُ». (١)

✍ **فانظر أيها القارئ الكريم**: ما بلغ بهذا الأعرابي من رسوخ في اليقين وعظيم في التصديق حيث أيقن أن مجرد إخبار الله أن رزق العباد وما يوعدون في السماء كاف دون أن يقسم علىٰ ذلك، فسبحان الله ما أكثر جزع الإنسان إن مسته الضراء وما أحرصه إن مسته السراء.

---

(١) شعب الإيمان: (١٢٧٦).

من فوائد (اليقين):

(١) اليقين يزيد المسلم من ربّه قربا وحبّا ورضىٰ.

(٢) اليقين هو لبّ الدّين ومقصوده الأعظم.

(٣) يزيد العبد خضوعًا واستكانة لمولاه.

(٤) يورث التّوكّل علىٰ الله والزّهد فيما عند النّاس.

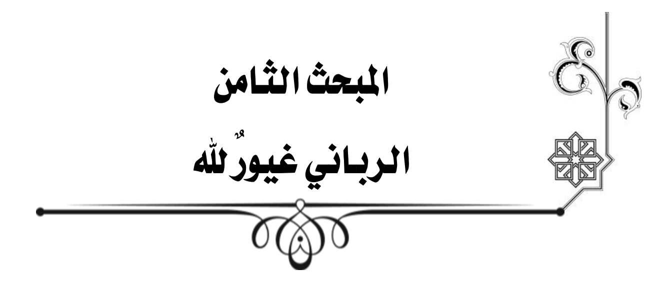
(٥) يكسب صاحبه العزّة والرّفعة ويباعده عن مواطن الذّلّة والضّعة.

(٦) باليقين يتّبع النّور فيسلك طريق السّلامة إلىٰ دار السّلام.

(٧) يضع صاحبه دائمًا في موضع الإخلاص والصّدق.

(٨) ضابط قويّ يرقب العلاقة بين المسلم وربّه ويجعلها تلتزم خطّ السّلامة والأمان حتّىٰ يصل إلىٰ دار الرّضوان.

(٩) المسلم لا يدرك مناه في الآخرة إلّا إذا كان متّصفًا بصفة اليقين.



المبحث الثامن
الرباني غيورٌ لله

من صفات الربانيين أنهم وُصِفوا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قال تعالىٰ: ﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ﴾ [المائدة:٦٣]. فالعبد الرباني يحمل همَّ هذا الدين، ولذلك فهو غيورٌ لله؛ غيور علىٰ محارم الله، فلا يزال ناصحًا للأمة، آمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر.

ومن هنا لنا وقفات مع قضية:

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

- **المعروف لغة:**

كالعرف وهو ما تعرفه النّفس من الخير وتطمئنّ إليه، وقوله تعالىٰ: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [لقمان:١٥] أي مصاحبًا معروفًا، قال الزّجّاج: المعروف هنا ما يستحسن من الأفعال.

وقوله ﷻ: ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ ﴾ [المرسلات:١] قال بعض المفسّرين فيها: إنّها (الملائكة) أرسلت بالعرف والإحسان، وقيل: هو مستعار من عرف الفرس أي يتتابعون كعرف الفرس. والعرف، والمعروف واحد ضدّ النّكر. وقد تكرّر ذكر المعروف في الحديث، وهو من الصّفات الغالبة أي أمر معروف بين النّاس إذا رأوه لا ينكرونه. والمعروف: النّصفة وحسن الصّحبة

مع الأهل وغيرهم من النّاس، والمنكر ضدّ ذلك جميعه.(١)

• **المنكر لغة:**

النّكر والنّكراء: الدّهاء والفطنة. ورجل نكر ونكر ونكر ومنكر من قوم مناكير: داه فطن. وامرأة نكراء، ورجل منكر داه، والإنكار: الجحود. والنّكرة: إنكارك الشّيء، وهو نقيض المعرفة. قال ابن سيده: والصّحيح أنّ الإنكار المصدر والنّكر الاسم. وفي التّنزيل العزيز: ﴿نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود:٧٠].

والإنكار: الاستفهام عمّا ينكره. والاستنكار: استفهامك أمرًا تنكره. والمنكر من الأمر: خلاف المعروف، وقد تكرّر في الحديث الإنكار والمنكر، وهو ضدّ المعروف، وكلّ ما قبّحه الشّرع وحرّمه وكرهه، فهو منكر، واستنكره فهو مستنكر، والجمع مناكير. والنّكير والإنكار: تغيير المنكر.(٢)

• **المعروف اصطلاحًا:**

اسم جامع لكلّ ما عرف من طاعة الله والتّقرّب إليه، والإحسان إلىٰ النّاس، وكلّ ما ندب إليه الشّرع، ونهىٰ عنه من المحسّنات والمقبّحات.

---

(١) الصحاح للجوهري (٢/ ٨٣٧). ولسان العرب لابن منظور: (٩/ ٢٣٩، ٢٤١).
(٢) لسان العرب ٥/ ٢٣٢- ٢٣٣.

- **والمنكر اصطلاحًا:**

كلّ ما قبّحه الشّرع وحرّمه ونهىٰ عنه.[(١)] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اصطلاحا: قال الجرجانيّ: الأمر بالمعروف: هو الإرشاد إلىٰ المراشد المنجّية. والنّهي عن المنكر: الزّجر عمّا لا يلائم في الشّريعة. وقيل: الأمر بالمعروف الدّلالة علىٰ الخير. والنّهي عن المنكر: المنع عن الشّرّ. وقيل: الأمر بالمعروف: أمر بما يوافق الكتاب والسّنّة.

والنّهي عن المنكر: نهي عمّا تميل إليه النّفس والشّهوة. وقيل: الأمر بالمعروف: الإشارة إلىٰ ما يرضي الله تعالىٰ من أقوال العبد وأفعاله. والنّهي عن المنكر: تقبيح ما تنفّر عنه الشّريعة والعفّة وهو ما لا يجوز في شرع الله تعالىٰ.[(٢)]

منزلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

قال النّوويّ رحمه الله: اعلم أنّ الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر قد ضيّع أكثره من أزمان متطاولة، ولم يبق منه في هذه الأزمان إلّا رسوم قليلة جدًّا، وهو باب عظيم به قوام الأمر وملاكه، وإذا كثر الخبث عمّ العقاب الصّالح والطّالح، وإذا لم يأخذوا علىٰ يد الظّالم أوشك أن يعمّهم الله تعالىٰ بعقابه ﴿ **فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴿٦٣﴾ ﴾ [النور:٦٣].

---

(١) المرجع السابق: (٢٣٣).

(٢) التعريفات: (٣٧).

فينبغي لطالب الآخرة، والسّاعي في تحصيل رضا الله -ﷻ- أن يعتني بهذا الباب؛ فإنّ نفعه عظيم لا سيّما وقد ذهب معظمه، وعلىٰ الآمر بالمعروف أن يخلص نيّته ولا يهابنّ من ينكر عليه لارتفاع مرتبته لأنّ الله تعالىٰ قال: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾ [الحج:٤٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ [آل عمران:١٠١]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ ﴾ [العنكبوت:٦٩]، وقال تعالىٰ: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢- ٣] واعلم أنّ الأجر علىٰ قدر النصب ولا يتركه أيضًا لصداقته ومودّته ومداهنته وطلب الوجاهة عنده ودوام المنزلة لديه، فإنّ صداقته ومودّته توجب له حرمة وحقّا، ومن حقّه أن ينصحه ويهديه إلىٰ مصالح آخرته، وينقذه من مضارّها، وصديق الإنسان، ومحبّه هو من سعىٰ في عمارة آخرته وإن أدّىٰ ذلك إلىٰ نقص في دنياه، وعدوّه من يسعىٰ في ذهاب أو نقص آخرته، وإن حصّل بسبب ذلك صورة نفع في دنياه. وإنّما كان إبليس عدوّا لنا لهذا، وكانت الأنبياء- صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- أولياء للمؤمنين لسعيهم في مصالح آخرتهم وهدايتهم إليها، ونسأل الله الكريم توفيقنا وتوفيق أحبابنا وسائر المسلمين لمرضاته.

وينبغي للآمر بالمعروف والنّاهي عن المنكر أن يرفق ليكون أقرب إلىٰ تحصيل المطلوب، فقد قال الإمام الشّافعيّ- رحمه الله-: «من وعظ أخاه سرًّا

فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه» [(١)]، ثمّ إنّ الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر فرض كفاية إذا قام به بعض النّاس سقط الحرج عن الباقين، وإذا تركه الجميع أثم الكلّ ممّن تمكّن منه بلا عذر ولا خوف. ثمّ إنّه قد يتعيّن كما إذا كان في موضع لا يعلم به إلّا هو أو لا يتمكّن من إزالته إلّا هو وكمن يرىٰ زوجته أو ولده أو غلامه علىٰ منكر أو تقصير في المعروف.

✍ **قال العلماء رحمهم الله**: «لا يسقط عن المكلّف الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر لكونه لا يفيد في ظنّه، بل يجب عليه الأمر والنّهي لا القبول، وكما قال الله ﷻ: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ [المائدة:٩٩] ومثّل العلماء هذا بمن يرىٰ إنسانًا في الحمّام أو غيره مكشوف بعض العورة ونحو ذلك.

✍ **قال العلماء**: لا يشترط في الآمر والنّاهي أن يكون كامل الحال ممتثلا ما يأمر به مجتنبًا ما ينهىٰ عنه بل عليه الأمر، وإن كان مخلًّا بما يأمر به، والنّاهي وإن كان متلبّسًا بما ينهىٰ عنه، فإنّه يجب عليه شيئان: أن يأمر نفسه وينهاها، ويأمر غيره وينهاه، فإذا أخلّ بأحدهما كيف يباح له الإخلال بالآخر.

✍ **قال العلماء**: ولا يختصّ الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر بأصحاب الولايات؛ بل ذلك جائز لآحاد المسلمين.

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي: (٢/ ٢٤).

قال إمام الحرمين: والدّليل عليه إجماع المسلمين، فإنّ غير الولاة في الصّدر الأوّل، والعصر الّذي يليه كانوا يأمرون الولاة بالمعروف وينهونهم عن المنكر مع تقرير المسلمين إيّاهم وترك توبيخهم علىٰ التّشاغل بالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر من غير ولاية.

ثمّ إنّه إنّما يأمر وينهىٰ من كان عالمًا بما يأمر به وينهىٰ عنه، وذلك يختلف باختلاف الشّيء، فإن كان من الواجبات الظّاهرة والمحرّمات المشهورة كالصّلاة والصّيام والزّنا والخمر ونحوها، فكلّ المسلمين علماء بها، وإن كان من دقائق الأفعال والأقوال وممّا يتعلّق بالاجتهاد لم يكن للعوامّ مدخل فيه ولا لهم إنكاره بل ذلك للعلماء، ثمّ العلماء إنّما ينكرون ما أجمع عليه، أمّا المختلف فيه فلا إنكار فيه.[1]

القطب الأعظم في الدين:

قال الإمام أبو حامد الغزاليّ رحمه الله: «إنّ الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدّين، وهو المهمّ الّذي ابتعث الله له النّبيّين أجمعين، ولو طوي بساطه، وأهمل علمه وعمله لتعطّلت النّبوّة، واضمحلّت الدّيانة، وعمّت الفترة [2]، وفشت الضّلالة، وشاعت الجهالة، واستشرىٰ الفساد، واتّسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد، ولم يشعروا بالهلاك إلّا يوم التّناد، وقد كان الّذي خفنا، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، إذ قد اندرس من هذا القطب عمله وعلمه، وانمحق بالكلّيّة حقيقته ورسمه، فاستولت علىٰ

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي: (٢/ ٢٣).

(٢) الفترة: هي السكون بعد الحدّة، والهدوء بعد الشّدّة.

القلوب مداهنة الخلق وانمحت عنها مراقبة الخالق، واسترسل النّاس في اتّباع الهوىٰ والشّهوات استرسال البهائم، وعزّ [(١)] علىٰ بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه في الله لومة لائم، فمن سعىٰ في تلافي هذه الفترة، وسدّ هذه الثّلمة إمّا متكفّلًا بعملها أو متقلّدًا لتفنيدها مجدّدًا لهذه السّنّة الدّاثرة ناهضًا بأعبائها ومتشمّرًا في إحيائها كان مستأثرًا من بين الخلق بإحياء سنّة أفضىٰ الزّمان إلىٰ إماتتها، ومستبدًّا بقربة تتضاءل درجات القرب دون ذروتها. [(٢)]

حديث القرآن عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

* قال تعالىٰ: ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

* وقال تعالىٰ: ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

* وقال تعالىٰ: ﴿ لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ [النساء: ١١٤].

* وقال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ

(١) عزّ: قلّ.
(٢) إحياء علوم الدين للغزالي: (٢/ ٣٠٦).

ٱلْمُنكَرِ ...﴾ [الأعراف:١٥٧].

* وقال تعالىٰ: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [الأعراف: ١٩٩- ٢٠٠]

* وقال تعالىٰ: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ [التوبة:٧١].

* وقال تعالىٰ: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [التوبة:١١٢].

* وقال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الحج:٤١].

* وقال تعالىٰ: ﴿ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ [لقمان:١٧].

الأحاديث الواردة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

* عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «**مُرُوا بِالْمَعْرُوفِ**،

وَانْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، قَبْلَ أَنْ تَدْعُوا فَلَا يُسْتَجَابَ لَكُمْ». (١)

* عَنْ أَبِي أُمَيَّةَ الشَّعْبَانِيِّ، قَالَ: أَتَيْتُ أَبَا ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيَّ، فَقُلْتُ لَهُ: كَيْفَ تَصْنَعُ بِهَذِهِ الآيَةِ؟ قَالَ: أَيَّةُ آيَةٍ؟ قُلْتُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ [المائدة:١٠٥] قَالَ: أَمَا وَاللهِ لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْهَا خَبِيرًا، سَأَلْتُ عَنْهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «بَلْ ائْتَمِرُوا بِالمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنِ المُنْكَرِ، حَتَّىٰ إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًىٰ مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ وَدَعِ العَوَامَّ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ القَبْضِ عَلَىٰ الجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ» قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ المُبَارَكِ: وَزَادَنِي غَيْرُ عُتْبَةَ - قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَجْرُ خَمْسِينَ رَجُلًا مِنَّا أَوْ مِنْهُمْ. قَالَ: «بَلْ أَجْرُ خَمْسِينَ رَجُلًا مِنْكُمْ». (٢)

* عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، أَنَّهُ قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الآيَةَ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ [المائدة:١٠٥]، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا ظَالِمًا،

(١) سنن ابن ماجه: (٤٠٠٤)، وقال الألباني: حسن.

(٢) أبو داود: (٤٣٤١). والترمذي (٣٠٥٨) واللفظ له وقال: حديث حسن غريب. وابن ماجه (٤٠٠٥). ومحمد بن نصر المروزي في السنة (ص ٩) من حديث عتبة بن غزوان. والبغوي في شرح السنة (١٤/ ٣٤٨) وقال محققه: للحديث شواهد يتقوىٰ بها.

فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَىٰ يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ». (١)

* وعَنْ أَبِي ذَرٍّ، أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ، ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ(٢) بِالأُجُورِ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ، قَالَ: «**أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ؟ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيَأتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: «**أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ**».(٣)

* عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ، كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَىٰ الرَّجُلَ، فَيَقُولُ: يَا هَذَا، اتَّقِ اللهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ، فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكَ، ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ، فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ**»، ثُمَّ قَالَ: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [المائدة:٧٨] إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿فَٰسِقُونَ ۝٨١﴾ [المائدة:٨١]، ثُمَّ قَالَ: «**كَلَّا وَاللهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَىٰ يَدَيِ الظَّالِمِ،**

---

(١) أبو داود (٤٣٣٨). والترمذي (٣٠٥٧) وقال: حديث حسن صحيح

(٢) الدثور: جمع دثر، وهو المال الكثير. انظر «النهاية» (٢/ ١٠٠).

(٣) مسلم: (١٠٠٦).

وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَىٰ الْحَقِّ أَطْرًا، وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَىٰ الْحَقِّ قَصْرًا». (١)

* عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، عَلِّمْنِي عَمَلًا يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ، فَقَالَ: «**لَئِنْ كُنْتَ أَقْصَرْتَ الْخُطْبَةَ، لَقَدْ أَعْرَضْتَ الْمَسْأَلَةَ** (٢)**، أَعْتِقِ النَّسَمَةَ، وَفُكَّ الرَّقَبَةَ**». فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوَلَيْسَتَا بِوَاحِدَةٍ؟ قَالَ: «**لَا، إِنَّ عِتْقَ النَّسَمَةِ أَنْ تَفَرَّدَ بِعِتْقِهَا، وَفَكَّ الرَّقَبَةِ أَنْ تُعِينَ فِي عِتْقِهَا، وَالْمِنْحَةُ الْوَكُوفُ** (٣)**، وَالْفَيْءُ عَلَىٰ ذِي الرَّحِمِ** (٤) **الظَّالِمِ، فَإِنْ لَمْ تُطِقْ ذَلِكَ، فَأَطْعِمِ الْجَائِعَ، وَاسْقِ الظَّمْآنَ، وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ، وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَإِنْ لَمْ تُطِقْ ذَلِكَ، فَكُفَّ لِسَانَكَ إِلَّا مِنَ الْخَيْرِ**». (٥)

* عن أبي موسىٰ - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ**» قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: «**فَيَعْمَلُ بِيَدَيْهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ**» قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ أَوْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قَالَ: «**فَيُعِينُ ذَا الحَاجَةِ المَلْهُوفَ**» قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قَالَ: «**فَيَأْمُرُ بِالخَيْرِ**» أَوْ قَالَ: «**بِالْمَعْرُوفِ**» قَالَ: فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قَالَ:

---

(١) أحمد في المسند: (٣٧١٢)، وقال محققه: صحيح الإسناد وأبو داود: (٤٣٣٦) واللفظ له. والترمذي (٣٠٤٨) وقال: هذا حديث حسن غريب. وابن ماجه (٤٠٠٦).

(٢) أعرضت المسألة: أي جئت بها عريضة أي واسعة.

(٣) المنحة الوكوف: الغزيرة اللبن الكثيرة الدر.

(٤) الفيء علىٰ ذي الرحم: الرجوع عليهم بما رد الله تعالىٰ عليك من أموال.

(٥) أحمد في المسند (٤/ ٢٩٩) واللفظ له. والبغوي في شرح السنة (٩/ ٣٥٤) وقال محققه: إسناده صحيح. والأدب المفرد مع شرحه (١/ ١٥١) ورجاله ثقات.

«فَيُمْسِكُ عَنِ الشَّرِّ فَإِنَّهُ لَهُ صَدَقَةٌ». (١)

* عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ اليَمَانِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ**». (٢)

* عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَامَ خَطِيبًا، فَكَانَ فِيمَا قَالَ: «**أَلَا لَا يَمْنَعَنَّ رَجُلًا هَيْبَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ بِحَقٍّ إِذَا عَلِمَهُ**» قَالَ: فَبَكَىٰ أَبُو سَعِيدٍ، وَقَالَ: «**قَدْ وَاللهِ رَأَيْنَا أَشْيَاءَ فَهِبْنَا**». (٣)

* عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**» قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: «**للهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**». (٤)

* عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الجِهَادِ كَلِمَةَ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ**». (٥)

* عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي**

---

(١) البخاري- الفتح ١٠ (٦٠٢٢) واللفظ له. ومسلم (١٠٠٨).

(٢) الترمذي (٢١٦٩) وقال: هذا حديث حسن وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي: ١٧٦٢). والمنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٢٢٧).

(٣) ابن ماجه (٤٠٠٧) وصححه الألباني- صحيح ابن ماجه (٣٢٣٧) وهو في الصحيحة له (١٦٨). والمنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٤٤٨) وقال: رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

(٤) مسلم (٥٥).

(٥) أبو داود (٤٣٤٤). والترمذي (٢١٧٤) واللفظ له، وقال: حسن غريب من هذا الوجه، وصحيح ابن ماجة (٣٢٤٠). وهو في الصحيحة (٤٩١).

أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ، وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ». (١)

* عن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَىٰ حُدُودِ اللهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَىٰ سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَىٰ مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَىٰ أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَوْا جَمِيعًا». (٢)

* عن أبي سعيد الخدريّ - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ رَأَىٰ مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ».. (٣)

لماذا يقوم المسلم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

المسلم يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن هذه وظيفته التي شرفه بها ربه، وكلفه بها، ووعده علىٰ ذلك الثواب العظيم والأجر الجزيل.

والمسلم يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر امتثالًا لأمر الله

(١) مسلم (٥٠).
(٢) البخاري: (٢٤٩٣).
(٣) مسلم (٤٩).

ورسوله: إما رجاء الثواب الذي يحصل له عند القيام بهما، وإما خوف العقاب علىٰ تركهما.

- وتارة الغضب لله علىٰ انتهاك محارمه.

- وتارة النصيحة للمؤمنين والرحمة لهم وإنقاذهم مما وقعوا فيه من التعرض لعقوبة الله..

- وتارة يحمل العبد علىٰ القيام بهما إجلال الله وتعظيمه ومحبته، وأنه أهل أن يطاع ويذكر ويشكر..

- وتارة لرؤية الشيطان يتلاعب بالعباد، ويسوقهم إلىٰ المعاصي والفواحش فيغار الإنسان عليهم.

والواجب شكر الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، والدعاء لهم، وإكرامهم والوقوف معهم، فمن نبهك علىٰ وجود عقرب في بدنك، أو أهدىٰ إليك هدية فعليك أن تشكره، وترضىٰ عنه، وتدعو له، لا أن تمتعض منه.

وعلىٰ الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يصبر علىٰ إهانة الناس له: فإن كانت إهانتهم تعود لكونه مشاركًا في الدعوة إلىٰ الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فعليه أن يحيل ذلك الشخص إلىٰ مُنزل القرآن، الذي استخدمه في هذه المهمة، فهو عزيز حكيم.

وإن كان كلامه من نوع تحقير وإهانة لشخصه بالذات، فهذا أيضًا لا يخص الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، لأنه كالأسير، وإهانة الأسير تعود إلىٰ مالكه، فهو الذي يدافع عنه كما قال الرجل الصالح الناصح لقومه:

﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [غافر: ٤٤- ٤٥]. (١)

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نجاة لمن يقوم به:

يقص ربُّنا علينا قصة أصحاب السبت من بني إسرائيل، يقول تبارك وتعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًاۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًاۖ قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [الأعراف:١٦٤ - ١٦٥].

ففرقة أخذها الله ﷻ بظلمها وبتحايلها، وفرقة نجاها الله ﷻ لأنها آمرة بالمعروف وناهية عن المنكر، وفرقة وإن نجاها الله ﷻ إلا أن الله أهمل شأنها؛ لإهمالها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ماذا يجب على من يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟

قال سفيان الثّوريّ رحمه الله: «لا يأمر بالمعروف ولا ينهىٰ عن المنكر إلّا من كان فيه خصال ثلاث: رفيق بما يأمر، رفيق بما ينهىٰ، عدل بما يأمر، عدل بما ينهىٰ، عالم بما يأمر، عالم بما ينهىٰ». (٢)

(١) موسوعة فقه القلوب: (٣/ ٢٣٣٣).
(٢) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للخلّال: (٤٦).

أولًا: العلم بالمعروف والمنكر، والتمييز بينهما، والعلم بحال المأمور، وحال المنهي.

ثانيًا: الرفق بالناس حال أدائهما، فالله رفيق يحب الرفق في الأمر كله، وما كان الرفق في شيء إلا زانه، ولا كان العنف في شيء إلا شانه، واللين يقطع أعظم مما يقطع السيف.

ثالثًا: الحلم والصبر علىٰ الأذىٰ من الناس كما قال سبحانه: ﴿**وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠**﴾ [المزمل:١٠]. فلا بدَّ من هذه الثلاثة: العلم قبل الأمر والنهي.. والرفق معه.. والصبر بعده.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كلاهما لازم، لكن الأمر بالمعروف قبل النهي عن المنكر، والأمر بالمعروف هو الأصل، وبه يستقيم الناس علىٰ الدين، فإذا ركب الناس الفواحش، وغشوا المحرمات، وتركوا الطاعات، وأقبلوا علىٰ المعاصي، وجب تغيير هذه المنكرات كما قال النبي - ﷺ: «**مَنْ رَأَىٰ مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ**»(١).(٢)

ما درجات تغيير المنكر وأحواله؟

لتغيير المنكر ثلاث درجات:

الأولىٰ: تغيير المنكر باليد، وهذا خاص بولي الأمر، أو من ينيبه عنه، إذ

(١) مسلم: (٤٩).

(٢) موسوعة فقه القلوب: (٣/ ٢٣٣٤).

جعل الله له القوة والسلطان والجاه، وخضوع الرعية له.

فكل من مكنَّه الله في الأرض لزم عليه تغيير المنكر باليد، وذلك يشمل حاكم الدولة، والقاضي في محكمته، والقائد في جيشه، والمدير في مصلحته، والأب في منزله.

الثانية: تغيير المنكر باللسان، وهذا خاص بالعلماء والدعاة، ويكون بالقول الحسن، والكلمة الطيبة، والموعظة الحسنة، يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله، لا يخشىٰ في الله لومة لائم.

الثالثة: تغيير المنكر بالقلب، وهذا أضعف الإيمان، وآخر المراتب، وهو في الوقت نفسه مهم جدًا، ولذا يجب علىٰ كل مسلم ومسلمة من العامة والخاصة، ولا يسقط عن المكلف في كل زمان ومكان.

والإنكار بالقلب يكون كالتالي: بغض المعصية التي رآها أو سمعها.. التمني وهو أن يتمنىٰ أن لو يستطيع أن يزيل هذا المنكر بيده أو لسانه.. والدعاء بأن يدعو الله أن يزيل هذا المنكر، وأن يهدي قلب صاحبه إلىٰ الصراط المستقيم.

وللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أربعة أحوال:

فتارة يصلح الأمر.. وتارة يصلح النهي.. وتارة يصلح الأمر والنهي.. وتارة لا يصلح لا أمر ولا نهي.

وأما من جهة النوع فيؤمر بالمعروف مطلقًا، وينهىٰ عن المنكر مطلقًا، وإذا اشتبه الأمر استبان المؤمن حتىٰ يتبين له الحق.

ما الفارق بين الدعوة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؟

الأمر بالمعروف والنهىٰ عن المنكر غير الدعوة، فالدعوة بيان، والأمر والنهي سلطان، وقد جمع الله بينهما في قوله سبحانه: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران:١٠٤].(١)

هل للعاصي أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر؟.

أسلفنا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان علىٰ كل مسلم ومسلمة فهل للعاصي أن يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر؟، والله يقول: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [البقرة:٤٤]. ويقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الصف: ٢- ٣].

والجواب: نعم. فإن المسلم مأمور بشيئين:

أحدهما: فعل الطاعات وترك المعاصي.

والثاني: أمر غيره بفعل الطاعات وترك المعاصي.

وكمال العبد بالقيام بهما معًا، والإخلال بأحد الأمرين لا يقتضي الإخلال بالآخر.

ومعنىٰ الآيتين تنبيه وتحذير للمسلمين لعدم الجمع بينهما فعل المحرم،

---

(١) موسوعة فقه القلوب: (٣/ ٢٣٣٦).

ونهي الناس عنه، فهذا لا يليق بالعامل، فضلًا عن المسلم، فضلًا عن العالم أو الداعي إلىٰ الله.

ومن آداب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التعريف، فإن الجاهل يقدم علىٰ الشيء لا يظنه منكرًا فإذا عرف أقلع عنه، فيجب تعريفه بلطف. ومنها ستر العيوب والقبائح: «**وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ**».(١)

إنكار المنكر له أربع حالات:

الأولىٰ: أن يزول ويخلفه ضده.

الثانية: أن يقل وإن لم يزُل بجملته.

الثالثة: أن يزول ويخلفه مثله.

الرابعة: أن يزول ويخلفه ما هو شر منه.

فالأوليان مشروعتان، والثالثة موضع اجتهاد، والرابعة محرمة.

وقد أمر النبي - ﷺ - بإنكار المنكر وتغيير المنكر ليحصل بذلك من المعروف ما يحبه الله ورسوله.

فإذا كان إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكر منه، وأبغض إلىٰ الله ورسوله منه، فإنه لا يسوغ إنكاره، وإن كان الله يبغضه ويمقت أهله، وهذا كالإنكار علىٰ الملوك والولاة بالخروج عليهم، فإن ذلك أساس كل شر وفتنة إلىٰ آخر

---

(١) أخرجه مسلم: (٢٦٩٩).

الدهر.

وقد استأذن الصحابة رسول الله - ﷺ - في قتال الأمراء الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها، وقالوا: أفلا نقاتلهم؟. فقال: «**لا، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلاةَ، لا مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلاةَ**». (١)

* وقال - ﷺ -: «**مَنْ رَأَىٰ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ، إِلا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً**». (٢)

ومن تأمل ما جرىٰ علىٰ الإسلام من الفتن الصغار والكبار رآها من إضاعة هذا الأصل العظيم، وعدم الصبر علىٰ منكر، فطلب إزالته فتولد منه ما هو أكبر منه.

وقد كان رسول الله - ﷺ - يرىٰ بمكة أكبر المنكرات وألوان الشرك في أول بعثته ولم يستطع تغييرها بيده مع بغضه لها.

بل لما فتح مكة، وصارت دار إسلام عزم علىٰ تغيير البيت ورده علىٰ قواعد إبراهيم، ومنعه من ذلك مع قدرته عليه خشية وقوع ما هو أعظم منه من عدم احتمال قريش لذلك، لقرب عهدهم بالجاهلية.

* قال النبي - ﷺ - «**يا عائشة: لَوْلا أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ؛ لأَمَرْتُ بِالْبَيْتِ فَهُدِمَ، فَأَدْخَلْتُ فِيهِ مَا أُخْرِجَ مِنْهُ، وَأَلْزَقْتُهُ بِالأَرْضِ، وَجَعَلْتُ لَهُ**

---

(١) أخرجه مسلم: (١٨٥٥).

(٢) أخرجه البخاري: (٧٠٥٤) واللفظ له، ومسلم: (١٨٤٩).

بَابَيْنِ بَابًا شَرْقِيًّا وَبَابًا غَربيًّا، فَبَلَغْتُ بِهِ أَسَاسَ إِبْرَاهِيمَ». (١)

ولهذا لم يأذن في الإنكار علىٰ الأمراء باليد، لما يترتب عليه من وقوع ما هو أعظم منه من سفك الدماء واضطراب الأمن.

فإذا رأيت أهل الفجور والفسوق يلعبون بالشطرنج كان إنكارك عليهم من عدم الفقه والبصيرة، إلا إذا نقلتهم منه إلىٰ ما هو أحب إلىٰ الله ورسوله ﷺ كالرماية وسباق الخيل ونحوهما.

وإذا رأيت الكفار المقاتلين يشربون الخمر فلا تنكر عليهم؛ لأن الله ﷻ إنما حرم الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وهؤلاء يصدهم الخمر عن قتل النفوس وسبي الذرية، وأخذ الأموال، وهكذا.

وقد وقع بسبب الجهل به غلط عظيم علىٰ الشريعة، أوجب الحرج والمشقة، وحصول الفتن، وتكليف ما لا سبيل إليه، وما يُعلم أن الشريعة لا تأتي به.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وظيفة الأنبياء والرسل، ووظيفة هذه الأمة، والقيام بها من أشرف الأعمال، فلا بدَّ لمن يقوم بهما من العلم لئلا يقع فيما حرم الله، ويوقع عباد الله فيما حرم الله، فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إفتاء عملي بدون سؤال، تثيره أحوال الناس وفشو المعاصي بينهم.

---

(١) أخرجه البخاري: (١٥٨٦)، واللفظ له، ومسلم: (١٣٣٣).

اختلاف الناس في قبول الإيمان والعمل بالأحكام:

الناس يختلفون في قبول الإيمان والعمل بالأحكام، وعند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا بدَّ من مراعاة ذلك.

فالناس أربعة أقسام:

- **الأول: قوي الإيمان، عالم بالأحكام:**

فهذا ليس له عذر، فإذا وقعت منه معصية ينكر عليه بقوة، ويعامل معاملة أشد، لئلا يكون قدوة لغيره في المعصية، كما اعتزل النبي - ﷺ - الثلاثة الذين خلفوا في غزوة تبوك خمسين ليلة، وأمر الناس بهجرهم لما تركوا الخروج لغزوة تبوك مع كمال إيمانهم وعلمهم.

- **الثاني: قوي الإيمان، جاهل بالأحكام:**

فهذا يدعىٰ مباشرة ببيان الحكم الشرعي، وبيان خطر اقتراف المعاصي، وإزالة المنكر الذي وقع فيه. عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَأَىٰ خَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ فِي يَدِ رَجُلٍ، فَنَزَعَهُ فَطَرَحَهُ، وَقَالَ: «**يَعْمِدُ أَحَدُكُمْ إِلَىٰ جَمْرَةٍ مِنْ نَارٍ فَيَجْعَلُهَا فِي يَدِهِ**»، فَقِيلَ لِلرَّجُلِ بَعْدَ مَا ذَهَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: خُذْ خَاتِمَكَ انْتَفِعْ بِهِ، قَالَ: لَا وَاللهِ، لَا آخُذُهُ أَبَدًا وَقَدْ طَرَحَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ.(١)

- **الثالث: ضعيف الإيمان، عالم بالأحكام:**

فهذا يدعىٰ بالرفق واللين بالحكمة والموعظة الحسنة، ليزيد إيمانه فيطيع ربه، ويتوب من معصيته. عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: إِنَّ فَتًىٰ شَابًّا أَتَىٰ النَّبِيَّ

---

(١) أخرجه مسلم: (٢٠٩٠).

ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ وَقَالُوا: مَهْ. مَهْ. فَقَالَ: «**ادْنُهْ**»، فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا. قَالَ: فَجَلَسَ قَالَ: «**أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟**» قَالَ: لَا. وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ. قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ**». قَالَ: «**أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟**» قَالَ: لَا. وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ**». قَالَ: «**أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟**» قَالَ: لَا. وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ. قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ**». قَالَ: «**أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟**» قَالَ: لَا. وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ. قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ**». قَالَ: «**أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟**» قَالَ: لَا. وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ. قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ**». قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ: «**اللهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ**» قَالَ: فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَىٰ يَلْتَفِتُ إِلَىٰ شَيْءٍ. (١)

- **الرابع: ضعيف الإيمان، جاهل بالأحكام:**

فهذا نصبر عليه، ونرفق به، ونعرفه بعظمة من يعصيه، ونعلمه الحكم بالرفق واللطف، ولا نوبخه ولا نزجره ولا نعنفه، كما فعل النبي - ﷺ - مع الأعرابي الذي بال في المسجد.

* عن أنس - رضي الله عنه - قال: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللهِ - ﷺ - إِذْ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ، فَقَامَ يَبُولُ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ - ﷺ -: مَهْ مَهْ. قال: قال رَسُولُ اللهِ - ﷺ -: «**لا تُزْرِمُوهُ، دَعُوهُ**». فَتَرَكُوهُ حَتَّىٰ بَالَ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللهِ - ﷺ - دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ: «**إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ وَلا الْقَذَرِ، إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللهِ ﷻ، وَالصَّلاةِ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ**». أَوْ

(١) أخرجه أحمد: (٢٢٥٦٤)، وانظر السلسلة الصحيحة رقم (٣٧٠).

كَمَا قال رَسُولُ اللهِ - ﷺ -، قال: فَأَمَرَ رَجُلًا مِنَ الْقَوْمِ، فَجَاءَ بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ، فَشَنَّهُ عَلَيْهِ. (١)

فالمعاصي آفات تصيب القلوب والجوارح، ولإزالتها لا بدَّ من تخلية وتحلية، ببيان عظمة الله، وعظمة كتابه، وعظمة أوامره، وعظمة اليوم الآخر.

وبيان خطر المعاصي والسيئات علىٰ النفس، وعلىٰ المجتمع، وعلىٰ الأمة، وبيان فضل الطاعات والفضائل وحسن التحلي بها، وبيان خطر المعاصي والرذائل وقبح التلوث بها.

فهل نقوم بوظيفة الأنبياء والمرسلين، ونبتعد عن وظيفة الشياطين والملحدين كما قال سبحانه: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤- ١٠٥]. (٢)

مواقف في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

- **قصة سعيد بن جبير مع الحجاج بن يوسف الثقفي:**

سعيد بن جبير جهبذ العلماء مات وما في الأرض رجل إلا وهو محتاج إلىٰ علمه، ذبحه الحجاج بن يوسف الثقفي، الذي قال عنه سيدنا عمر بن عبد العزيز: لو تخابثت الأمم وجاءت كل أمة بخبيثها، وجئنا بالحجاج

(١) أخرجه البخاري: (٢١٩)، ومسلم: (٢٨٥)، واللفظ له.
(٢) موسوعة فقه القلوب: (٣/ ٢٣٤٠- ٢٣٤٨).

لفقناهم.

* عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ دكوان وَغَيْرِهِ: أَنَّ الْحَجَّاجَ بَعَثَ إِلَىٰ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فَأَصَابَهُ الرَّسُولُ بِمَكَّةَ فَلَمَّا سَارَ بِهِ الرَّسُولُ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ رَآهُ الرَّسُولُ يَصُومُ النَّهَارَ وَيَقُومُ اللَّيْلَ.

فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ: وَاللهِ إِنِّي لأَعْلَمُ أَنِّي إِنَّمَا أَذْهَبُ بِكَ إِلَىٰ الْقَتْلِ فَاذْهَبْ أَيَّ الطَّرِيقِ شِئْتَ.

فَقَالَ سَعِيدٌ. إِنَّهُ سَيَبْلُغُ الْحَجَّاجَ أَنَّكَ أَخَذْتَنِي فَإِنْ خَلَّيْتَ عَنِّي خِفْتُ أَنْ يَقْتُلَكَ وَلَكِنْ أَذْهَبُ إِلَيْهِ.

فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ لَهُ الْحَجَّاجُ: مَا اسْمُكَ؟

قَالَ: سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ قَالَ: كَذَبْتَ أَنْتَ شَقِيُّ بْنُ كُسَيْرٍ.

قَالَ: أُمِّي سَمَّتْنِي.

قَالَ: شَقِيتَ وَشَقِيَتْ أُمُّكَ.

قَالَ: الْغَيْبُ يَعْلَمُهُ غَيْرُكَ.

قَالَ: أَمَا وَاللهِ لأُبْدِلَنَّكَ بِالدُّنْيَا نَارًا تَلَظَّىٰ.

قَالَ: لَوْ عَلِمْتُ أَنَّ ذَلِكَ إِلَيْكَ مَا اتَّخَذْتُ إِلَهًا غَيْرَكَ.

قَالَ: مَا تَقُول فِي رَسُول الله النَّبِي الْمُصْطَفَىٰ ﷺ؟ قَالَ: خَيْرُ الْبَاقِينَ وَخَيْرُ الْمَاضِينَ.

قَالَ: مَا تَقُولُ فِي أَبِي بَكْرٍ؟

قَالَ: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾ [التوبة:٤٠] أَعَزَّ اللهُ بِهِ الدِّينَ وَجَمَّعَ بِهِ بَعْدَ الْفُرْقَةِ.

قَالَ: مَا تَقُولُ فِي عُمَرَ؟

قَالَ الْفَارُوقُ وَخِيرَةُ اللهِ فِي خَلْقِهِ.

قَالَ: مَا تَقُولُ فِي عُثْمَانَ؟

قَالَ: الْمُجَهِّزُ جَيْشَ الْعُسْرَةِ الْمُشْتَرِي بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ.

قَالَ: مَا تَقُولُ فِي عَلِيٍّ قَالَ من أَوَّلهمْ إِسْلامًا وَأَقْدَمِهِمْ هِجْرَةً وَأَعْظَمِهِمْ فَضْلا زَوَّجَ مِنْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَحَبَّ بَنَاتِهِ إِلَيْهِ؟

قَالَ: مَا تَقُولُ فِي مُعَاوِيَةَ؟

قَالَ: كَاتِبُ رَسُولِ اللهِ.

قَالَ: مَا تَقُولُ فِي عَبْدِ الْمَلِكِ؟

قَالَ إِنْ يَكُنْ مُحْسِنًا فَأَتَمَّ اللهُ إِحْسَانَهُ وَإِنْ يَكُنْ مُسِيئًا فَلَنْ يُعْجِزَ اللهَ.

قَالَ: مَا تَقُولُ فِي الْخُلَفَاءِ مُنْذُ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَىٰ يَوْمِنَا هَذَا؟

قَالَ: سَيُجْزَوْنَ بِأَعْمَالِهِمْ فَمَسْرُورٌ ومبثور لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ.

قَالَ: مَا تَقُولُ فِيَّ؟

قَالَ: أَنْتَ وَنَفْسُكَ أَعْلَمُ.

قَالَ: بُثَّ فِي علمك.

قَالَ: إِذا أسؤك وَلا أَسُرُّكَ.

قَالَ: فَبُثَّ.

قَالَ: قَدْ ظَهَرَ مِنْكَ جَوْرٌ فِي حُكْمِ اللهِ وَجُرْأَةٌ عَلَىٰ مَعَاصِي اللهِ.

قَالَ: ذُمَّهُمْ أَوِ امْدَحْهُمْ قَالَ: إِنَّمَا اسْتَحْفَظْتُ أَمْرَ نَفْسِي.

قَالَ: فَأَيُّ رَجُلٍ أَنا؟

قَالَ: يَوْم الْقِيَامَة تختبر.

قَالَ: فَأَيُّهُمْ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟

قَالَ: أَرْضَاهُمْ لِخَالِقِهِ.

قَالَ: وَأَيُّهُمْ أَرْضَاهُمْ لِخَالِقِهِ؟

قَالَ: أَتْبَعُهُمْ لأَمْرِهِ وَأَعْلَمُهُمْ بِطَاعَتِهِ.

قَالَ: وَاللهِ لأُقَطِّعَنَّكَ أَعْضَاءً.

قَالَ: إِذًا تُفْسِدُ عَلَيَّ دُنْيَايَ وَأُفْسِدُ عَلَيْكَ آخِرَتَكَ وَالْقِصَاصُ أَمَامَكَ.

قَالَ: كَيْفَ تَرَىٰ مَا نَجْمَعُ لأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الأَمْوَالِ؟

قَالَ: لَمْ أَرَ مِنْهَا شَيْئًا.

قَالَ: فَأمر بالأموال فنشرت بَين يَدَيْهِ.

قَالَ: إِنْ حَمَلْتَها حَتَّىٰ تَشْتَرِيَ لِصَاحِبِكَ الأَمَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَهَـٰذَا صَالِحٌ، وَإِلا فَقَدْ أَوْقَرْتَ ظَهْرَكَ وَاشْتَدَّ حسابه.

قَالَ: كَيفَ تَرَاهُ لَا يَنْفَعُ إِلا طَيِّبٌ؟

قَالَ: أَوَلَيْسَ هُوَ بِطَيِّبٍ؟

قَالَ: بِرَأْيِكَ جَمَعْتَهُ.

قَالَ: أَتُحِبُّ أَنَّهُ لَكَ؟

قَالَ: لَا أُحِبُّ إِلا مَا يُحِبُّ اللهُ.

قَالَ: الْوَيْلُ لَكَ.

قَالَ: الْوَيْلُ لِمَنْ زُحْزِحَ عَنِ الْجَنَّةِ وَأُدْخِلَ النَّارَ.

قَالَ: كَيْفَ تَرَىٰ مَا نَعُدُّ مِنْ هَذِهِ الْمَعَازِفِ وَالْمَزَامِيرِ وَالطُّبُولِ؟

فَضُرِبَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ فَأَقْبَلَ سَعِيدٌ يَبْكِي قَالَ: تَاللهِ مَا رَأَيْتُ رَجُلا أَشَدَّ خِلافًا مِنْكَ ضُرِبَتْ بَيْنَ يَدَيْكَ الْمَعَازِفُ وَالطُّبُولُ فَأَقْبَلْتَ تَبْكِي.

قَالَ: يَا حَجَّاجُ وَكَيْفَ لَا نَبْكِي مِنْ شَيْءٍ لَهُ نَظائِرُ مِنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ؟ مِنْهَا نَفْخَةُ الصَّعْقَةِ.

قَالَ: اذْهَبُوا بِهِ فَاقْتُلُوهُ.

قَالَ: إِنِّي أُشْهِدُكَ يَا حَجَّاجُ أَنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَأَسْتَحْفِظُكَهُمَا حَتَّىٰ أَلْقَاكَ بِهِمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ تَبَسَّمَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ فَقَالَ: رُدُّوهُ فَلَمَّا رَدُّوهُ قَالَ: مِمَّ ضَحِكْتَ؟

قَالَ: تَعَجَّبْتُ مِنْ جُرْأَتِكَ عَلَىٰ اللهِ وَحِلْمِ اللهِ عَنْكَ.

قَالَ: اسْحَبُوهُ فَلَمَّا سَحَبُوهُ قَالَ: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٧٩] قَالَ: اصْرِفُوا وَجْهَهُ عَنِ الْقِبْلَةِ.

قَالَ: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:١١٥].

قَالَ: كُبُّوهُ لِوَجْهِه عَدُوَّ اللهِ مَا أَنْزَعَهُ لآيِ الْقُرْآنِ.

فَقَالَ: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه:٥٥].

فَبَلَغَ ذَلِكَ الْحَسَنَ الْبَصْرِيَّ فَقَالَ: اللَّهُمَّ قَاصِمَ الْجَبَابِرَةِ اقْصِمِ الْحَجَّاجَ.

فَمَا بَقِيَ بَعْدَ ذَلِكَ أَيَّامًا حَتَّىٰ وَقَعَ فِي جَوْفِهِ الدُّودُ وَأَصَابَهُ الكزاز. (١)

عن يحيىٰ بن سعيد، عن كاتب كان للحجاج يقال له يعلىٰ، قال: كنت أكتب للحجاج وأنا يومئذ غلام حديث السن، فدخلت عليه يومًا بعد قتل سعيد بن جبير وهو في قبة لها أربعة أبواب، فدخلت مما يلي ظهره، فسمعته يقول: ما لي ولسعيد بن جبير، فخرجت رويدًا وعلمت أنه إن علم بي قتلني، ثم لم يلبث الحجاج إلا يسيرا حتىٰ مات. وفي رواية أخرىٰ: أنه كان يقول: ما لي ولسعيد بن جبير كلما أردت النوم أخذ برجلي. (٢)

- **قصة الإمام الأوزاعي مع السفاح العباسي:**

ذكر الذهبي في السير في ترجمة شيخ الإسلام الأوزاعي: عن الفِرْيَابِي

---

(١) المحن: (ص: ٢٣٧- ٢٣٨).

(٢) المنتظم: (٧/ ٤).

قال: لَمَّا فَرَغَ عَبْدُ اللهِ بنُ عَلِيٍّ يَعْنِي: عَمَّ السَّفَّاحِ – [١]. مِنْ قَتْلِ بَنِي أُمَيَّةَ، بَعَثَ إِلَيَّ، وَكَانَ قَتَلَ يومئذ نيفًا، وَسَبْعِينَ مِنْهُم بِالكَافِركُوبَاتَ.[٢] فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيَّ وَقَدِمْتُ فَدَخَلْتُ، وَالنَّاسُ سِمَاطَانِ.[٣]

فَقَالَ: مَا تَقُوْلُ فِي مَخْرَجِنَا [٤].، وَمَا نَحْنُ فِيْهِ؟ [٥].

قُلْتُ: أَصلَحَ اللهُ الأَمِيرَ قَدْ كَانَ بَيْنِي، وَبَيْنَ دَاوُدَ بنِ عَلِيٍّ مَوَدَّةٌ [٦].

قَالَ: لَتُخْبِرَنِّي. فَتَفَكَّرْتُ ثُمَّ قُلْتُ: لأَصْدُقَنَّهُ، وَاسْتَبَسَلْتُ لِلْمَوْتِ [٧].

ثُمَّ رَوَيتُ لَهُ عَنْ يَحْيَىٰ بنِ سَعِيْدٍ حَدِيْثَ الأَعْمَالِ، «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَىٰ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَىٰ دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَىٰ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**».[٨] وَبِيَدِهِ قَضِيبٌ يَنكُتُ بِهِ [٩].

---

(١) والسفاح هو أهم شخصية أسست لدولة العباسيين. وقال عنه الإمام الذهبي: كان ملكًا سفاكًا للدماء ظالمًا غشومًا، قتل في صبيحة اليوم الذي دعا فيه الأوزاعي مائة وسبعين رجلًا من رجال بني أمية وأمرائها.

(٢) جمع الكافر كوب :وهو المقرعة.

(٣) يعني صفان.

(٤) أي الخروج علىٰ دولة الأمويين.

(٥) أي من قتلهم وتعذيبهم وسجنهم وأخذ أموالهم.

(٦) يقصد بذلك أن يعفيه من الجواب -الذي سيغضبه -بسبب علاقة المودة السابقة بينه وبين أخيه.

(٧) يعني وطنت نفسي علىٰ الموت.

(٨) البخاري: (١).

(٩) أي يضرب به الأرض من شدة غضبه.

ثُمَّ قَالَ: يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ: مَا تَقُوْلُ فِي قَتْلِ أَهْلِ هَذَا البَيْتِ؟ (١)

قُلْتُ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بنُ مَرْوَانَ عَنْ مُطَرِّفِ بنِ الشِّخِّيْرِ عَنْ عَائِشَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ - قَالَ: «**لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، إِلَّا بِإِحْدَىٰ ثَلَاثٍ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالمَارِقُ مِنَ الدِّينِ التَّارِكُ لِلْجَمَاعَةِ**». (٢)

فَقَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الخِلَافَةِ، وَصِيَّةٌ لَنَا مِنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ -؟ فَقُلْتُ: لَوْ كَانَتْ، وَصِيَّةً مِنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ مَا تَرَكَ عَلِيٌّ - رضي الله عنه - أَحَدًا يَتَقَدَّمُهُ.

قَالَ: فَمَا تَقُوْلُ فِي أَمْوَالِ بَنِي أُمَيَّةَ؟ قُلْتُ: إِنْ كَانَتْ لَهُم حَلَالًا فَهِيَ عَلَيْكَ حَرَامٌ، وَإِنْ كَانَتْ عَلَيْهِم حَرَامًا فَهِيَ عَلَيْكَ أَحرَمُ. فَأَمَرَنِي، فَأُخْرِجْتُ. (٣)

✍ يقول الذهبي معلقًا: قَدْ كَانَ عَبْدُ اللهِ بنُ عَلِيٍّ مَلِكًا جَبَّارًا، سَفَّاكًا لِلدِّمَاءِ، صَعبَ المِرَاسِ، ومع هذا فالإمام الأوزاعي يَصْدَعُهُ بِمُرِّ الحَقِّ كَمَا تَرَىٰ لَا كَخَلْقٍ مِنْ عُلَمَاءِ السُّوءِ الَّذِيْنَ يُحَسِّنُوْنَ لِلأُمَرَاءِ مَا يَقْتَحِمُوْنَ بِهِ مِنَ الظُّلمِ وَالعَسْفِ، وَيَقلِبُوْنَ لَهُمُ البَاطِلَ حَقًّا قَاتَلَهُمُ اللهُ أَوْ يَسكُتُوْنَ مَعَ القُدْرَةِ عَلَىٰ بَيَانِ الحَقِّ. (٤)

ولذلك لما مات الإمام الأوزاعي وقف والي حمص علىٰ قبره فقال:

---

(١) يقصد بني أمية.
(٢) البخاري: (٦٨٧٨).
(٣) سير أعلام النبلاء: (٦/ ٥٥٣).
(٤) سير أعلام النبلاء: (٦/ ٥٥٢).

رَحِمَكَ اللهُ أَبَا عَمْرٍو فَلَقَدْ كُنْتُ أَخَافُكَ أَكْثَرَ مِمَّنْ، وَلَّانِي. (١)

- **الإمام أبو بكر بن النابلسي:**

الإمام أبو بكر بن النابلسي شيخ علماء الحديث في مصر لما أتىٰ المعز الفاطمي العبيدي الإسماعيلي وكان من أحفاد ميمون القداح اليهودي، الذي مدحه ابن هانئ الأندلسي بقوله:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار... فاحكم فأنت الواحد القهار

وقبل أن يموت بسنتين اختفىٰ في سرداب، فقال المصريون: المعز في السحاب. قال ابن كثير معلقًا: قال تعالىٰ: ﴿ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴾ [الزخرف:٥٤].

✍ **قال ابن كثير**: وَقَدْ أُحْضِرَ إِلَىٰ بَيْنِ يديه الزاهد العابد الورع الناسك التقىٰ أبو بكر النابلسي - فقال له المعز: بلغني عنك أَنَّكَ قُلْتَ لَوْ أَنَّ مَعِي عَشرةَ أَسْهُمٍ لرميت الروم بتسعة ورميت المصريين بسهم، فقال: ما قلت هذا، فظن أنه رجع عن قوله فقال: كيف قلت؟ قال: قلت: ينبغي أن نرميكم بتسعة ثم نرميهم بِالْعَاشِرِ. قَالَ: وَلِمَ؟ قَالَ: لِأَنَّكُمْ غَيَّرْتُمْ دِينَ الأمة وقتلتم الصالحين وأَطفَأْتُم نور الإلهية، وادعيتم ما ليس لكم. فَأَمَرَ بَإِشْهَارِهِ فِي أَوَّلِ يَوْمٍ ثُمَّ ضُرِبَ في اليوم الثاني بالسياط ضَرْبًا شَدِيدًا مُبَرِّحًا ثُمَّ أَمَرَ بِسَلْخِهِ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ، فَجِيءَ بِيَهُودِيٍّ فَجَعَلَ يَسْلُخُهُ وَهُوَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ قَالَ الْيَهُودِيُّ: فَأَخَذَتْنِي رِقَّةٌ عَلَيْهِ، فَلَمَّا بَلَغْتُ تِلْقَاءَ قَلْبِهِ طَعَنْتُهُ بِالسِّكِّينِ فَمَاتَ ﷺ. فكان

(١) سير أعلام النبلاء: (٦/ ٥٥٣).

يقال لَهُ الشَّهِيدُ. (١) وروىٰ الذهبي فقال: والله لقد سمع صوت القرآن من جوفه بعد أن قتلوه. (٢)

- **الشيخ عز الدين عبد السلام بائع أمراء المماليك:**

هو عبد الْعَزِيز بن عبد السَّلَام بن أبي الْقَاسِم بن حسن بن مُحَمَّد ابْن مهذب السّلمِيّ شيخ الْإِسْلَام وَالْمُسْلِمين وَأحد الْأَئِمَّة الْأَعْلَام سُلْطَان الْعلمَاء إِمَام عصره بِلَا مدافعة الْقَائِم بِالْأَمر بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْي عَن الْمُنكر فِي زَمَانه المطلع علىٰ حقائق الشَّرِيعَة وغوامضها الْعَارِف بمقاصدها لم ير مثل نَفسه وَلَا رأىٰ من رَآهُ مثله علمًا وورعًا وقيامًا فِي الْحق وشجاعة وَقُوَّة جنان وسلاطة لِسَان.

موقفه مع سلطان دمشق:

✍ **يقول الإمام السبكي:** وَاسْتمرّ الشَّيْخ عز الدّين بِدِمَشْق إِلَىٰ أثْنَاء أَيَّام الصَّالح إِسْمَاعِيل الْمَعْرُوف بِأبي الخيش فاستعان أَبُو الخيش بالفرنج وَأَعْطَاهُمْ مَدِينَة صيدا وقلعة الشقيف فَأنْكر عَلَيْهِ الشيخ عز الدّين وَترك الدُّعَاء لَهُ فِي الْخطْبَة وساعده فِي ذَلِك الشَّيْخ أَبُو عَمْرو ابْن الْحَاجِب الْمَالِكِي فَغَضب السُّلْطَان مِنْهُمَا فَخَرَجَا إِلَىٰ الديار المصرية فِي حُدُود سنة تسع وَثَلَاثِينَ وستمِائَة.

---

(١) سير أعلام النبلاء: (٦/ ٥٥٢).

(٢) البداية والنهاية: (١١/ ٢٨٤).

نزوله أرض مصر وموقفه مع أستاذ دار السلطان:

فَلَمَّا مر الشَّيْخ عز الدّين بالكرك تَلقاهُ صَاحبهَا وَسَأَلَهُ الْإِقَامَة عِنْده فَقَالَ لَهُ بلدك صَغِير علىٰ علمي ثمَّ توجه إِلَىٰ الْقَاهِرَة فَتَلقاهُ سلطانها الْملك الصَّالح نجم الدّين أَيُّوب بن الْكَامِل وأكرمه وولاه خطابة جَامع عَمْرو ابْن الْعَاصِ بِمصْر وَالْقَضَاء بهَا وبالوجه القبلي مُدَّة فاتفق أَن أستاذ دَاره فَخر الدّين عُثْمَان بن شيخ الشُّيُوخ وَهُوَ الَّذِي كَانَ إِلَيْهِ أَمر المملكة عمد إِلَىٰ مَسْجِد بِمصْر فَعمل علىٰ ظَهره بِنَاء لطبل خانات وَبقيت تضرب هُنَالك فَلَمَّا ثَبت هَذَا عِنْد الشَّيْخ عز الدّين حكم بهدم ذَلِك الْبناء وَأسْقط فَخر الدّين ابْن الشَّيْخ وعزل نَفسه من الْقَضَاء وَلم تسْقط بذلك منزلَة الشَّيْخ عِنْد السُّلْطَان وَلكنه لم يعده إِلَىٰ الْولَايَة وَظن فَخر الدّين وَغَيره أَن هَذَا الحكم لَا يتأثر بِهِ فَخر الدّين فِي الْخَارِج فاتفق أَن جهز السُّلْطَان الْملك الصَّالح رَسُولا من عِنْده إِلَىٰ الْخَلِيفَة المستعصم بِبَغْدَاد فَلَمَّا وصل الرَّسُول إِلَىٰ الدِّيوَان ووقف بَين يَدي الْخَلِيفَة وَأدّىٰ الرسَالَة خرج إِلَيْهِ وَسَأَلَهُ هَل سَمِعت هَذِه الرسَالَة من السُّلْطَان فَقَالَ لَا وَلَكِن حملنيها عَن السُّلْطَان فَخر الدّين ابْن شيخ الشُّيُوخ أستاذ دَاره فَقَالَ الْخَلِيفَة إِن الْمَذْكُور أسْقطه ابْن عبد السَّلَام فَنحْن لَا نقبل رِوَايَته فَرجع الرَّسُول إِلَىٰ السُّلْطَان حَتَّىٰ شافهه بالرسالة ثمَّ عَاد إِلَىٰ بَغْدَاد وأداها ثمَّ بنىٰ السُّلْطَان مدرسة الصالحية الْمَعْرُوفَة بَين القصرين بِالْقَاهِرَةِ وفوض تدريس الشَّافِعِيَّة بهَا إِلَىٰ الشَّيْخ عز الدّين فباشره وتصدىٰ لنفع النَّاس بِعُلُومِهِ وَلما اسْتَقر مقَامه بِمصْر أكْرمه حَافظ الديار المصرية وزاهدها عبد الْعَظِيم الْمُنْذِرِيّ وَامْتنع من الْفتيا وَقَالَ كُنَّا نفتي قبل حُضُور الشَّيْخ عز الدّين وَأما بعد حُضُوره فمنصب الْفتيا مُتَعَيّن فِيهِ.

موقفه مع السلطان أيوب:

يقول تلميذه الشيخ الْبَاجِيّ: طلع شَيخنَا عز الدّين مرّة إِلَىٰ السُّلْطَان فِي يَوْم عيد إِلَىٰ القلعة فشاهد العساكر مصطفين بَين يَدَيْهِ ومجلس المملكة وَمَا السُّلْطَان فِيهِ يَوْم الْعِيد من الأبهة وَقد خرج علىٰ قومه فِي زينته علىٰ عَادَة سلاطين الديار المصرية وَأخذت الْأُمَرَاء تقبل الأَرْض بَين يَدي السُّلْطَان فَالْتَفت الشَّيْخ إِلَىٰ السُّلْطَان وناداه يَا أَيُّوب مَا حجتك عِنْد الله إِذا قَالَ لَك ألم أبوئ لَك ملك مصر ثمَّ تبيح الْخُمُور فَقَالَ هَل جرىٰ هَذَا فَقَالَ نعم الحانة الْفُلَانِيَّة يُبَاع فِيهَا الْخُمُور وَغَيرهَا من الْمُنْكَرَات وَأَنت تتقلب فِي نعْمَة هَذِه المملكة يُنَادِيه كَذَلِك بِأَعْلَىٰ صَوته والعساكر واقفون فَقَالَ يَا سَيِّدي هَذَا أَنا مَا عملته هَذَا من زمَان أبي فَقَالَ أَنْت من الَّذين يَقُولُونَ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ ﴾﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ ﴾ [الزخرف:٢٢] فرسم السُّلْطَان بِإِبْطَال تِلْكَ الحانة.

✍ **يقول تلميذه الشيخ الْبَاجِيّ**: سَأَلت الشَّيْخ لما جَاءَ من عِنْد السُّلْطَان وَقد شاع هَذَا الْخَبَر يَا سَيِّدي كَيفَ الْحَال فَقَالَ يَا بني رَأَيْته فِي تِلْكَ العظمة فَأَرَدْت أَن أهينه لِئَلَّا تكبر نَفسه فتؤذيه فَقلت يَا سَيِّدي أما خفته فَقَالَ وَالله يَا بني استحضرت هَيْبَة الله تَعَالَىٰ فَصَارَ السُّلْطَان قدامي كالقط.(١)

عز الدين عبد السلام بائع أمراء المماليك:

رأىٰ الشيخ عز الدين عبد السلام أن المماليك الذين اشتراهم نجم الدين

---

(١) طبقات الشافعية: (٨/ ٢٠٩-٢١٢).بتصرف.

أيوب ودفع ثمنهم من بيت مال المسلمين واستغلهم في خدمته وجيشه، وتصريف شئون الدولة يمارسون البيع والشراء وهو تصرف باطل، لأن المملوك لا ينفذ تصرفه، فأخذ سلطان العلماء لا يمضي لهم بيعًا ولا شراء، فضايقهم ذلك وشجر بينهم وبينه كلام حول هذا المعنىٰ فقال لهم بائع الملوك: أنتم الآن أرقاء لا ينفذ لكم تصرف، وإن حكم الرق مستصحب عليكم لبيت مال المسلمين، وقد عزمت علىٰ بيعكم فاحتدم الأمر، وبائع الملوك مصمم، لا يصحح لهم بيعًا ولا شراء، ولا نكاحًا، فتعطلت مصالحهم، وكان من جملتهم نائب السلطان الذي اشتاط غضبًا، واحمر أنفه، فاجتمع مع شاكلته، وأرسلوا إلىٰ بائع الملوك، فقال: نعقد لكم مجلسًا وينادىٰ عليكم لبيت مال المسلمين، ويحصل عتقكم بطريق شرعي فرفعوا الأمر إلىٰ السلطان، فبعث إليه، فلم يرجع فخرجت من السلطان كلمة فيها غلظة حاصلها الإنكار علىٰ الشيخ - رحمه الله - في دخوله في هذا الأمر، وإنه لا يتعلق به، وهنا أدرك الشيخ العز أن أعوان الباطل تمالؤوا عليه ووقفوا في وجه الحق وتطبيق الشرع، وتنفيذ الأحكام التي لا تفرق - في الدين - بين كبير وصغير، وحاكم ومحكوم وأمير ومواطن، فلجأ إلىٰ سلاحه الضعيف الباهت في ظاهره القوي الفعال المدمر في حقيقته وجوهره وسنده، وأعلن الانسحاب وعزل نفسه عن القضاء وقرر الرحيل عن القرية الظالم أهلها والتي ترفض إقامة شرع الله، ونفذ العز قراره فورًا، وحمل أهله، ومتاعه علىٰ حماره وركب حمارًا آخر وخرج من القاهرة، وما انتشر الخبر بين الناس في مصر حتىٰ تحركت جموع المسلمين وراءه فم تكن امرأة ولا صبي ولا رجل لا يؤوبه إليه بتخلف، ولا سيما العلماء والصالحين، والتجار، وأمثالهم

ولسان حالهم يقول: لا خير في مصر إن لم يكن فيها العز بن عبد السلام وأمثاله، القائمون بالكتاب والسنة والآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر، والمجاهدين في سبيل الله، لا يخافون لومة لائم، ولا شماتة شامت، ورفعة التقارير حول هذه الظاهرة إلىٰ القاهرة، وكانت التوصيات: متىٰ راح ذهب ملكك فركب السلطان بنفسه ولحقه واسترضاه وطيب قلبه، فرجع أن ينادىٰ علىٰ ملوك مصر وأمرائها ويبيعهم، وأرسل إليه كبيرهم ـ نائب السلطان ـ بالملاطفة والشيخ لم يتغير، لأنه يريد إنفاذ حكم الله، عندئذ انزعج نائب السلطان وأصدر قراره بتصفية الشيخ جسديًا وقال: كيف ينادي علينا هذا الشيخ ويبيعنا ونحن ملوك الأرض والله لأضربنه بسيفي هذا بنفسه في جماعته، وجاء إلىٰ بيت الشيخ والسيف في يده صلتًا وطرق الباب فخرج إليه ولد الشيخ، فرأىٰ أمرًا جلدًا، وعاد إلىٰ أبيه، وأخبره الحال، فقال بائع الأمراء ممتلئًا إيمانًا بربه، قائلًا لولده: يا ولدي: أبوك أقل من أن يقتل في سبيل الله، فلما رآه نائب السلطان اهتزت يده وارتعدت فرائصه وسقط أرضًا، فبكىٰ، وسأل الشيخ أن يدعو له قائلًا: يا سيدي، خيرًا أي العمل؟ فقال الشيخ أنادي عليكم وأبيعكم، قال نائب السلطان: ففيما تصرف ثمننا؟ قال الشيخ: في مصالح المسلمين قال نائب السلطان: من يقضيه؟ قال الشيخ: أنا وأنفذ الله أمره علىٰ يد الشيخ ـ رحمه الله ـ فباع الأمراء مناديًا عليهم واحد تلو الآخر وغالىٰ سلطان العلماء في ثمنهم وقبضه وصرفه في وجوه الخير التي تعود بالنفع علىٰ البلاد والعباد. ومن هنا عرف الشيخ العز بأنه: (بائع الملوك).

واشتهر أمره في الآفاق، وسجل له التاريخ موقفًا فريدًا لم يشهده العالم أجمع، وعلا صوت الحق، وعز العلماء وتم تطبيق شرع الله تعالىٰ، وهزم

الباطل وطاشت سهام السلطة والقوة المادية، أمام سلطان الله تعالىٰ، وأحكامه، وصدق علىٰ العز حديث رسول الله ﷺ: «**أَفْضَلُ الْجِهَادِ: كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ**».(١) وعاد العز إلىٰ عرينه في كنف الله تعالىٰ ورعايته وهو القائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾ [الحج:٣٨]، والقائل: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١﴾ [يوسف:٢١]. (٢)

- **قصة رجل مع المأمون:**

دَخَلَ رَجُلٌ عَلَىٰ الْمَأْمُونِ كَانَ يَمْشِي فِي النَّاسِ فَيَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنْ الْمُنْكَرِ دُونَ أَنْ يَكُونَ مَأْمُورًا مِنْ قِبَلِ الْخَلِيفَةِ، فَاسْتَدْعَاهُ الْمَأْمُونُ وَقَالَ لَهُ: لِمَ تَأْمُرُ وَتَنْهَىٰ وَقَدْ جَعَلَ اللهُ ذَلِكَ إِلَيْنَا وَنَحْنُ الَّذِينَ قَالَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [الحج:٤١].

فَقَالَ الرَّجُلُ: صَدَقْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْتَ كَمَا وَصَفْتَ نَفْسَكَ مِنَ السُّلْطَانِ وَالتَّمَكُّنِ غَيْرَ أَنَّا أَوْلِيَاؤُكَ وَأَعْوَانُكَ فِيهِ. وَلا يُنْكِرُ ذَلِكَ إِلا مَنْ جَهِلَ كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ - ﷺ -، قَالَ الله جَلَّ وَعَلا وَتَقَدَّسَ: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾

(١) المعجم الكبير للطبراني: (٨/ ٢٨٢).صحيح الجامع: (١١٠٠).
(٢) المغول التتار بين الانتشار والانكسار: (ص: ٢٧٣-٢٧٤). وطبقات الشافعية: (٨/ ٢١٦).

[التوبة:٧١]، وَقَالَ رَسُول اللهِ - ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا**» وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ. (١) فَأَعْجَبَ الْمَأْمُونُ بِكَلامِهِ وَسُرَّ بِهِ وَقَالَ: مِثْلُكَ يَجُوزُ أَنْ يَأْمُرَ بِالْمَعْرُوفِ فَامْضِ عَلَىٰ مَا كُنْتَ عَلَيْهِ بِأَمْرِنَا وَعَنْ رَأْيِنَا. وَهَكَذَا حِين أَحْسَنَ الرَّجُلَ الاحْتِجَاج بِالْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ انْقَطَعَتْ حُجَّة الْمَأْمُونِ، وَلَمْ يَجِدُ بُدًّا مِنْ إِقْرَارِ الرَّجُلَ عَلَىٰ طَرِيقَتِهِ بِالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ.

وَعَكْسُ هَذَا الرَّجُل دَخَلَ وَاعِظٌ عَلَىٰ الْمَأْمُون فوعظه وأغلظ عليه في القول فقال له المأمون: يَا رَجُل ارْفِقْ فَإِنَّ اللهَ بَعَثَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ إِلَىٰ مَنْ هُوَ شَرٌّ مِنِّي، وَأَمَرَهُ بِالرِّفْقِ. بَعَثَ مُوسَىٰ وَهَارُون إِلَىٰ فِرْعَون، فَأَوْصَاهُمَا بِقَوْلِهِ: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه:٤٤]، وَهُنَا كَانَ مَوْقِفُ الْمَأْمُونِ هُوَ الأَقْوَىٰ لأَنَّ الدَلِيلَ مَعَهُ. (٢)

- **بُنَانُ الحَمَّال وقصته مع ابن طولون:**

✍ **يقول عنه الذهبي**: الإِمَامُ المُحَدِّثُ الزَّاهِدُ، شَيْخُ الإِسْلَامِ، أَبُو الحَسَنِ بُنَانُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ حَمْدَانَ بنِ سَعِيْدٍ الوَاسِطِيُّ، نَزِيْلُ مِصْرَ، وَمَنْ يُضْرَبُ بِعِبَادَتِهِ المَثَلُ. وقال عنه أيضًا: وَكَانَ كَبِيْرَ القَدْرِ، لَا يَقْبَلُ مِنَ الدَّوْلَةِ شَيْئًا، وله جلالة عجيبة عند الخاص والعام. وَقَدِ امتُحِنَ فِي ذَاتِ اللهِ، فَصَبَرَ، وَارْتَفَعَ شَأْنُه.

✍ **وقَالَ الحُسَيْنُ بنُ أَحْمَدَ الرَّازِيُّ**: سَمِعْتُ أَبَا عَلِيٍّ الرُّوْذَبَارِيَّ يَقُوْلُ:

---

(١) صحيح البخاري: (٢٤٤٦).

(٢) موارد الظمآن لدروس الزمان: (٢/ ١٠٦).

كَانَ سَبَبُ دُخُوْلِي مِصْرَ حِكَايَةَ بُنَانَ الحَمَّالَ، وَذَلِكَ أَنَّهُ أَمَرَ ابْنَ طُوْلُوْنَ بِالمَعْرُوْفِ، فَأَمَرَ بِهِ أَنْ يُلقَىٰ بَيْنَ يَدَيْ سَبُعٍ، فَجَعَلَ السَّبُعُ يَشُمُّهُ وَلَا يَضُرُّه، فَلَمَّا أُخرِجَ مِنْ بَيْنِ يَدَيِ السَّبُعِ، قِيْلَ لَهُ: مَا الَّذِي كَانَ فِي قَلْبِكَ حَيْثُ شَمَّكَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَتَفَكَّرُ فِي سُؤرِ السِّبَاعِ وَلُعَابِهَا. قَالَ: ثُمَّ ضُرِبَ سَبْعَ دِرَرٍ، فَقَالَ لَهُ – يَعْنِي: لِلْمَلِكِ– حَبَسَكَ اللهُ بِكُلِّ دِرَّةٍ سَنَةً. فَحُبِسَ ابْنُ طُوْلُوْنَ سَبْعَ سِنِيْنَ. (١)

• **ابن تيمية في مقابلة ملك التتار:**

ذهب الشيخ ابن تيمية مع الوفد الشامي وكان رئيسا للوفد إلىٰ مقابلة (قازان) ملك التتار وقائدهم.

✍ **يقول ابن كثير**: «وقد كسا الله الشيخ حلة من المهابة والإيمان والتقىٰ ولقد قال أحد الذين شاهدوا اللقاء: كنت حاضرا مع الشيخ فجعل يحدث السلطان بقول الله ورسوله في العدل ويرفع صوته ويقرب منه.. والسلطان مع ذلك مقبل عليه مصغ لما يقول شاخص إليه لا يعرض عنه؛ وإن السلطان من شدة ما أوقع الله في قلبه من الهيبة والمحبة سأل من هذا الشيخ؟ إني لم أر مثله ولا أثبت قلبا منه ولا أوقع من حديثه في قلبي ولا رأيتني أعظم انقيادًا لأحد منه فأخبر بحاله وما هو عليه من العلم والعمل».(٢)

---

(١) سير أعلام النبلاء: (١١/ ٢٩٩).

(٢) لمحات تاريخية من حياة ابن تيمية: (٦/ ١٢١).

- **الإمام البويطي مع الواثق ووالي مصر:**

الإمام البويطي تلميذ الإمام الشافعي، وعالم الشافعية، امتحن في خلق القرآن، فلقد بعث الواثق لوالي مصر أن امتحنه في خلق القرآن، فالوالي كان يحبه، فقال له: قل: إن القرآن مخلوق بيني وبينك، قال: لا والله ورائي مائة ألف، ولا أكذب في دين الله ﷻ، فاضطر أنه يسيره إلىٰ بغداد والأغلال في عنقه، والأنكال والقيود في رجليه، وقد شدوا ما بين رجليه وما بين عنقه بسلسلة وضعوا فيها قطعة حديد زنتها أربعين رطلًا، وكان يقول: والله لأموتن في حديدي هَذَا حَتَّىٰ يأتي من بعدي قوم يعلمون أنه قد مَات فِي هَذَا الشأن قوم فِي حديدهم. (١)

- **قصة الإمام أحمد بن نصر الخزاعي مع الواثق:**

✍ **والإمام أحمد بن نصر الخزاعي قال له الواثق**: ما تقول في القرآن؟ قال: القرآن كلام الله، قال: هل ترىٰ ربك يوم القيامة؟ قال: صحت بذلك الأحاديث، فقال الواثق: إني أحتسب خطاي إلىٰ هذا الرجل الكافر ثم قام فقتله، وعلقوا رأسه في بغداد وجسده في سامراء، ووضعوا القيد في رجليه بعد أن قتل.

✍ **وعن إبراهيم بْن إِسْمَاعِيل بْن خلف قَالَ**: كَانَ أحمد بْن نصر خِلِّي، فلما قتل في المحنة وصلب رأسه، أخبرت أن الرأس يقرأ القرآن، فمضيت فبت بقرب من الرأس مشرفا عَلَيْهِ، وَكَانَ عنده رجالة وفرسان يحفظونه، فلمَا

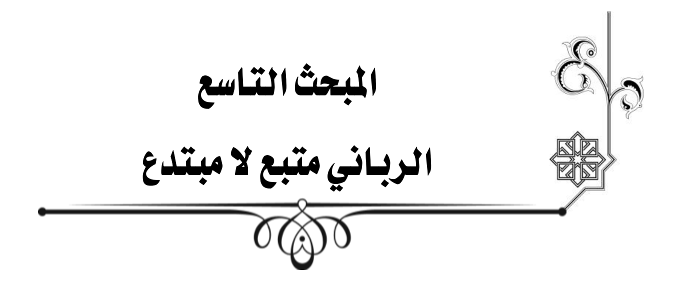
---

(١) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: (١١/ ١٧٥).

هدأت العيون سمعت الرأس يقرأ: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢﴾ [العنكبوت: ١- ٢]، فاقشعر جلدي، ثم رأيته بعد ذلك فِي المنام وعليه السندس والإستبرق وعلىٰ رأسه تاج، فقلت: مَا فعل الله بك يَا أخي؟ قَالَ: غفر لي وأدخلني الجنة، إلا أني كنت مغمومًا ثلاثة أيام، فقلت: ولم؟ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مر بي، فلمَا بلغ خشبتي حول وجهه عني، فقلت لَهُ بعد ذلك: يَا رَسُول اللهِ، قتلت عَلَىٰ الحق أم عَلَىٰ الباطل؟ قَالَ: أنت عَلَىٰ الحق، ولكن قتلك رجل من أهل بيتي، فإذا بلغت إليك أستحي منك. (١)

***

(١) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: (١١/ ١٦٩).



المبحث التاسع
الرباني متبع لا مبتدع

إن الحياة الربانية تقتضي الاتباع لا الابتداع، لأن الرباني لن يصل إلىٰ طريق السعادة إلا باتباع رسول الله ﷺ قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران:٣١] ومن هنا نقف في هذه الصفحات حول قضية الاتباع.

تعريف الاتباع:

- **الاتباع لغة:**

مصدر اتّبع المأخوذ من مادّة (ت ب ع)، وتدلّ هذه المادّة علىٰ التّلوّ والقفو، يقال: تبعت القوم تبعا، وتباعة بالفتح، إذا مشيت خلفهم أو مرّوا بك فمضيت معهم، وتبعت الشّيء: سرت في أثره، والتّابع: التّالي، والجمع تبّع وتبّاع وتبعة. والتّبع اسم للجمع. وقال أبو عبيد: أتبعت القوم إذا كانوا قد سبقوك فلحقتهم.

وقال الفرّاء: أتبع أحسن من اتّبع؛ لأنّ الاتّباع أن يسير الرّجل وأنت تسير وراءه. فإذا قلت أتبعته فكأنّك قفوته.

واتّبع القرآن: ائتمّ به وعمل بما فيه، وفي حديث أبي موسىٰ الأشعريّ- رضي الله عنه -: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ كَائِنٌ لَكُمْ أَجْرًا، وَكَائِنٌ لَكُمْ ذِكْرًا، وَكَائِنٌ عَلَيْكُمْ

وِزْرًا، فَاتَّبِعُوا الْقُرْآنَ وَلَا يَتَّبِعُكُمْ، فَإِنَّهُ مَنْ يَتَّبِعِ الْقُرْآنَ يَهْبطُ بِهِ رِيَاضَ الْجَنَّةِ، وَمَنْ يُتَّبَعْ بِهِ الْقُرْآنُ يَزُخُّ فِي قَفَاهُ حَتَّىٰ يَقْذِفَهُ فِي جَهَنَّمَ». (١)

✍ يقول: اجعلوه أمامكم ثمّ اتلوه كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة:١٢١] أي يتّبعونه حقّ اتّباعه، وأراد لا تدعوا تلاوته والعمل به فتكونوا قد جعلتموه وراءكم.

وتابع بين الأمور متابعة وتباعًا: واتر، ووالىٰ. وتابع عمله وكلامه: أتقنه وأحكمه، ومنه حديث أبي واقد اللّيثيّ: تابعنا الأعمال فلم نجد شيئا أبلغ في طلب الآخرة من الزّهد في الدّنيا، أي أحكمناها وعرفناها. ويقال: تابع فلان كلامه، وهو تبيع للكلام إذا أحكمه، ويقال: هو يتابع الحديث إذا كان يسرده، وقيل: فلان متتابع العلم إذا كان علمه يشاكل بعضه بعضا لا تفاوت فيه. (٢)

والاتّباع في الأصل: اقتفاء أثر الماشي، ثمّ استعمل في العمل بمثل عمل الغير، كما في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ﴾ [التوبة:١٠٠] ثمّ استعمل في امتثال الأمر، والعمل بما يأمر به المتبوع فهو الائتمار. (٣)

- **واصطلاحًا:**

✍ **قال الإمام أحمد** - رحمه الله تعالىٰ -: هو أن يتّبع الرّجل ما جاء عن النّبيّ

---

(١) التفسير من سنن سعيد بن منصور: (١/ ٤٩) وسنن الدارمي: (٣٣٧١)

(٢) لسان العرب لابن منظور: (١/ ٤١٦، ٤١٩)، وانظر الصحاح: (٣/ ١١٩٠)، ومقاييس اللغة: (١/ ٣٦٢).

(٣) تفسير التحرير والتنوير: (٧/ ٤٢٣).

ﷺ وعن أصحابه، ثمّ هو من بعد في التّابعين مخيّر.

✍ **وقال ابن عبد البرّ** - رحمه الله تعالىٰ -: الاتّباع ما ثبت عليه الحجّة، وهو اتّباع كلّ من أوجب عليك الدّليل اتّباع قوله. فالرّسول ﷺ هو المثل الأعلىٰ في اتّباع ما أمر به. (١)

✍ **قال الشّافعيّ** - رحمه الله تعالىٰ -: باب ما أمر عرفه من أمر رسول الله ﷺ، وأن قد جعل الله بالنّاس كلّهم الحاجة إليه في دينهم، وأقام عليهم حجّته بما دلّهم عليه من سنن رسول الله ﷺ معاني ما أراد الله بفرائضه في كتابه، ليعلم من عرف منها ما وصفنا أنّ سنّته ﷺ إذا كانت سنّة مبيّنة عن الله معنىٰ ما أراد من مفروضه فيما فيه كتاب يتلونه، وفيما ليس فيه نصّ كتاب سنّة أخرىٰ فهي كذلك لا يختلف حكم الله ثمّ حكم رسوله، بل هو لازم بكلّ حال. (٢)

✍ **وقال الشّاطبيّ** - رحمه الله تعالىٰ -: الكتاب (أي القرآن) هو المتّبع علىٰ الحقيقة، ومراتب النّاس بحسب اتّباعهم له. إنّ الله تعالىٰ وضع هذه الشّريعة حجّة علىٰ الخلق كبيرهم وصغيرهم، مطيعهم وعاصيهم، برّهم وفاجرهم. لم يختصّ بها أحدا دون أحد، وكذلك سائر الشّرائع إنّما وضعت لتكون حجّة علىٰ جميع الأمم الّتي تنزّل فيهم تلك الشّرائع، حتّىٰ إنّ المرسلين بها صلوات الله عليهم داخلون تحت أحكامها.

فأنت ترىٰ أنّ نبيّنا محمّدًا ﷺ مخاطب بها في جميع أحواله وتقلّباته ممّا

---

(١) أضواء البيان للشنقيطي: (٧/ ٥٤٨).

(٢) الرسالة للشافعي: (٨٥- ١٠٥) بتصرف.

اختصّ به دون أمّته، أو كان عامًّا له ولأمّته- فالشّريعة هي الحاكمة على الإطلاق والعموم عليه وعلى جميع المكلّفين، وهي الطّريق الموصّل والهادي الأعظم. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى:٥٢].

فهو عليه الصّلاة والسّلام أوّل من هداه الله بالكتاب والإيمان، ثمّ من اتّبعه فيه، والكتاب هو الهادي، والوحي المنزّل عليه مرشد ومبيّن لذلك الهدى، والخلق مهتدون بالجميع.

ولمّا استنار قلبه وجوارحه عليه الصّلاة والسّلام وباطنه وظاهره بنور الحقّ علمًا وعملًا، صار هو الهادي الأوّل لهذه الأمّة والمرشد الأعظم، حيث خصّه الله تعالى دون الخلق بإنزال ذلك النّور عليه، واصطفاه من جملة من كان مثله في الخلقة البشريّة اصطفاءً أوّليًّا من جهة اختصاصه بالوحي الّذي استنار به قلبه وجوارحه فصار خلقه القرآن، حتّى قال الله فيه: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم:٤] وذلك لأنّه حكّم الوحي على نفسه حتّى صار في علمه وعمله على وفقه واقفًا عند حكمه، فقد جاء بالأمر وهو به مؤتمر، وبالنّهي وهو منته وبالوعظ وهو متّعظ، وبالتّخويف وهو أوّل الخائفين، وبالتّرجية وهو سائق دابّة الرّاجين، وقد صارت الشّريعة المنزّلة عليه حجّة حاكمة عليه، ودلالة على الصّراط المستقيم الّذي سار عليه، فإذا كان الأمر كذلك، فسائر الخلق حريّون بأن تكون الشّريعة حجّة حاكمة عليهم، ومنارًا يهتدون بها إلى الحقّ، وشرفهم إنّما يثبت بحسب ما اتّصفوا به من الدّخول

تحت أحكامها، والأخذ بها قولًا واعتقادًا وعملًا، فمن كان أشدّ محافظة علىٰ اتّباع الشّريعة فهو أولىٰ بالشّرف والكرم، ومن كان دون ذلك لم يمكن أن يبلغ في الشّرف المبلغ الأعلىٰ في اتّباعها، فالشّرف إذا إنّما هو بحسب المبالغة في تحكيم الشّريعة.(١)

الاتباع دليل محبة الله ﷻ ورسوله ﷺ :

للمحبّة طرفان هما: المحبّ والمحبوب، وفيما يتعلّق بمحبّة الله ﷻ فإنّ طرفيها هما: محبّة العبد لربّه ومحبّة الرّبّ لعبده، ودليل الأولىٰ هي اتّباع المصطفىٰ ﷺ.

أمّا الثّانية فهي ثمرة ذلك الاتّباع ويؤكّد ذلك قول الله تعالىٰ: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [آل عمران:٣١]، ولذلك أطلق علىٰ هذه الآية الكريمة آية المحبّة، يقول أبو سليمان الدّارانيّ: لمّا ادّعت القلوب محبّة الله ﷻ أنزل الله هذه الآية محنة(٢).(٣)

ومعنىٰ هذه الآية- كما يقول الطّبريّ- قل يا محمّد لوفد نصارىٰ نجران إن كنتم تزعمون أنّكم تحبّون الله فحققوا قولكم الّذي تقولونه إن كنتم صادقين باتّباعكم إيّاي فإنّكم تعلمون أنّي رسول الله إليكم كما كان عيسىٰ-

(١) الاعتصام (٢/ ٣٣٨- ٣٤٠) باختصار.
(٢) محنة: أي اختبارا وامتحانا لهذه القلوب.
(٣) مدارج السالكين: (٣/ ٢٢).

-عليه السلام- رسولا إلىٰ من أرسله الله إليهم (١).

وقد فسّر بعضهم المحبّة بالاتّباع والطّاعة من جانب العباد ومحبّة الله لعباده بإنعامه عليهم بالغفران فقال: محبّة العبد لله ورسوله طاعته لهما واتّباعه أمرهما ومحبّة الله للعباد إنعامه عليهم بالغفران (٢).

✍ **وقال سهل بن عبد الله:** علامة حبّ الله حبّ القرآن وعلامة حبّ القرآن حبّ النّبيّ ﷺ، وعلامة حبّ النّبيّ ﷺ حبّ السّنّة، وعلامة ذلك كلّه حبّ الآخرة (٣)، وهذه الآية الكريمة حاكمة علىٰ كلّ من ادّعىٰ محبّة الله وليس هو علىٰ الطّريقة المحمّديّة بأنّه كاذب في نفس الأمر حتّىٰ يتّبع الشّرع المحمّديّ والدّين النّبويّ في جميع أقواله وأفعاله، والمراد بـ ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١] أنّه يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبّتكم إيّاه وهو محبّته إيّاكم وهذا أعظم من الأوّل إذ ليس الشّأن أن تحبّ إنّما الشّأن أن تحبّ. (٤)

✍ **يقول ابن القيّم** - رحمه الله تعالىٰ - في قوله تعالىٰ في الآية السّابقة: يحببكم الله إشارة إلىٰ دليل المحبّة وثمرتها وفائدتها فدليلها وعلامتها اتّباع الرّسول ﷺ وفائدة الاتّباع وثمرته محبّة الله ﷻ فإذا لم تحصل المتابعة فليست المحبّة بحاصلة، وقال أيضًا: وعلىٰ ذلك فإنّه لا تنال محبّة الله ﷻ إلّا باتّباع

---

(١) باختصار عن تفسير الطبري: (٣/ ١٥٦).
(٢) تفسير القرطبي: (٤/ ٤٠).
(٣) المرجع السابق نفسه، الصفحة نفسها.
(٤) تفسير ابن كثير: (١/ ٣٥٨).

الحبيب ﷺ (١)، والخلاصة أنّ الاتّباع علامة علىٰ صدق العبد في حبّه لله تعالىٰ وأنّ ثمرة هذا الاتّباع هي محبّة الله ﷻ وغفرانه.

الاتباع في القرآن الكريم:

ورد الاتّباع في القرآن الكريم مأمورًا به ومنهيًّا عنه.

- **فالمنهيّ عنه**: هو اتّباع الهوىٰ والشّيطان والظّنّ والكفّار وما أشبه ذلك.

- **أمّا المأمور به**: فقد ورد علىٰ صور عديدة منها اتّباع الرّسل، ومنها اتّباع الوحي والشّريعة والهدىٰ وصالح المؤمنين، وسنصنّف آيات الاتّباع المأمور به وفقا لما أمر باتّباعه ولكن سأكتفي بآية أو آيتين علىٰ الأكثر في كل فقرة حتىٰ لا يطول الكلام.

- **الآيات الواردة في الاتباع:**

- **أولا: اتباع المولى ﷻ:**

- ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [يونس:٣٥].

- ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟

---

(١) مدارج السالكين: (٣/ ٢٢- ٣٩) بتصرف.

سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ ﴾ [غافر:٧].

- **ثانيًا: اتباع الرسول ﷺ ورسل الله الكرام وأوليائه الصالحين:**

- ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة:١٤٣].

- ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [آل عمران:٣١].

- **ثالثًا: اتباع الهدى والرضوان وما أنزل الله من كتاب أو ارتضى من شريعة:**

- ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [البقرة:٣٨].

- ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ ﴾ [آل عمران:١٦٢].

- **رابعًا: اتباع المؤمنين:**

- ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [التوبة:١٠٠].

- ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٥﴾ [لقمان:١٥].

- **حديث السنة عن الاتباع:**

١- عن عمر بن الخطّاب- رضي الله عنه - أَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ بِكِتَابٍ أَصَابَهُ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكُتُبِ، فَقَرَأَهُ عَلَىٰ النَّبِيُّ ﷺ فَغَضِبَ وَقَالَ: «**أَمُتَهَوِّكُونَ (١) فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، لَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ، أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَىٰ كَانَ حَيًّا، مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي**».(٢)

٢- عن أبي موسىٰ الأشعريّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ مَا بَعَثَنِيَ اللهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَىٰ قَوْمَهُ، فَقَالَ: يَا قَوْمِ إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بِعَيْنَيَّ، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ(٣)، فَالنَّجَاءَ(٤)، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَأَدْلَجُوا(٥) فَانْطَلَقُوا عَلَىٰ مُهْلَتِهِمْ، وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ، فَصَبَّحَهُمُ**

---

(١) متهوّكون: التهوّك هو التحيّر، وقيل: هو الوقوع في الشيء بقلة مبالاة.

(٢) أحمد (٣/ ٣٨٧) ، السنة لابن أبي عاصم (٢٧) ، وقال الألباني: حسن، المشكاة (١/ ٦٣). وعزاه للدارمي، وذكره في الإرواء وذكر له شواهد كثيرة (٦/ ٣٨٣٤).

(٣) أنا النذير العريان: أصله أن الرجل إذا أراد إنذار قومه وإعلامهم بما يوجب المخافة نزع ثوبه وأشار به إليهم إذا كان بعيدًا منهم ليخبرهم بما دهمهم، وأكثر ما يفعل هذا طليعة القوم ورقيبهم.

(٤) النجاء: اطلبوا النجاة.

(٥) فأدلجوا: ساروا من أول الليل.

الْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ (١)، **فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي وَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ، وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ مَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ**». (٢)

٣- عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ خَطًّا، ثُمَّ قَالَ: «**هَذَا سَبِيلُ اللهِ**»، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**هَذِهِ سُبُلٌ** – قَالَ يَزِيدُ: مُتَفَرِّقَةٌ – **عَلَىٰ كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ**»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣].(٣)

٤- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**مَنْ دَعَا إِلَىٰ هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَىٰ ضَلَالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا**». (٤)

٥- عن أبي رافع – رضي الله عنه – أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ مُتَّكِئًا عَلَىٰ أَرِيكَتِهِ يَأْتِيهِ الْأَمْرُ مِنْ أَمْرِي مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ فَيَقُولُ لَا نَدْرِي مَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللهِ اتَّبَعْنَاهُ**». (٥)

---

(١) اجتاحهم: استأصلهم.

(٢) البخاري- الفتح ١١ (٦٤٨٢)، ومسلم (٢٢٨٣) واللفظ له.

(٣) أحمد (١/ ٤٣٥) واللفظ له، الحاكم (٢/ ٣١٨) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، السنة لابن أبي عاصم (١٣)، وقال الألباني (مخرجه): إسناده حسن، والحديث صحيح.

(٤) مسلم (٢٦٧٤).

(٥) أبو داود (٤٦٠٥) وقال الألباني (٣/ ٨٧١/ ٣٨٤٩): صحيح.

٦- عن جابر بن عبد الله- رضي الله عنهما - قال: «جَاءَتْ مَلَائِكَةٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ نَائِمٌ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ نَائِمٌ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ العَيْنَ نَائِمَةٌ، وَالقَلْبَ يَقْظَانُ، فَقَالُوا: إِنَّ لِصَاحِبِكُمْ هَذَا مَثَلًا، فَاضْرِبُوا لَهُ مَثَلًا، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ نَائِمٌ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ العَيْنَ نَائِمَةٌ، وَالقَلْبَ يَقْظَانُ، فَقَالُوا: مَثَلُهُ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَىٰ دَارًا، وَجَعَلَ فِيهَا مَأْدُبَةً وَبَعَثَ دَاعِيًا، فَمَنْ أَجَابَ الدَّاعِيَ دَخَلَ الدَّارَ وَأَكَلَ مِنَ المَأْدُبَةِ، وَمَنْ لَمْ يُجِبِ الدَّاعِيَ لَمْ يَدْخُلِ الدَّارَ وَلَمْ يَأْكُلْ مِنَ المَأْدُبَةِ، فَقَالُوا: أَوِّلُوهَا لَهُ يَفْقَهْهَا، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ نَائِمٌ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ العَيْنَ نَائِمَةٌ، وَالقَلْبَ يَقْظَانُ، فَقَالُوا: فَالدَّارُ الجَنَّةُ، وَالدَّاعِي مُحَمَّدٌ ﷺ، فَمَنْ أَطَاعَ مُحَمَّدًا ﷺ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ، وَمَنْ عَصَىٰ مُحَمَّدًا ﷺ فَقَدْ عَصَىٰ اللهَ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ فَرْقٌ بَيْنَ النَّاسِ».(١)

٧- عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما - قال: ذُكِرَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ رِجَالٌ يَجْتَهِدُونَ فِي الْعِبَادَةِ اجْتِهَادًا شَدِيدًا، فَقَالَ: «تِلْكَ ضَرَاوَةُ الْإِسْلَامِ وَشِرَّتُهُ(٢)، وَلِكُلِّ ضَرَاوَةٍ شِرَّةٌ، وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةٌ، فَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَىٰ اقْتِصَادٍ وَسُنَّةٍ فَلِأُمٍّ مَا هُوَ(٣)، وَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَىٰ الْمَعَاصِي، فَذَلِكَ الْهَالِكُ».

وفي رواية: عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ

---

(١) البخاري- الفتح ١٣ (٧٢٨١).

(٢) الشّرّة بكسر الشين وفتح الراء مشدّدتين، معناها النشاط والرغبة، والضراوة مصدر قولهم ضري الشيء لهج به أي أغرم به وعشقه، والفترة هي السكون بعد الشدة، والهدوء بعد الحدة.

(٣) فلأم ما هو: دعاء لأمه يعني إنه راجع إلىٰ أصل ثابت عظيم، وبمعنىٰ فليؤم ويقصد؛ لأنه علىٰ الطريق المستقيم.

شِرَّةً، وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةٌ، فَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَىٰ سُنَّتِي، فَقَدْ أَفْلَحَ، وَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ، فَقَدْ هَلَكَ». (١)

٨- عن أبي هريرة- رضي الله عنه - أنّ رسول الله ﷺ قال: «**كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَىٰ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَنْ يَأْبَىٰ؟ قَالَ: «**مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَىٰ**». (٢)

المثل التطبيقي من حياة النبي ﷺ في الاتباع:

* عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، قَالَ: اتَّخَذَ النَّبِيُّ ﷺ خَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ، فَاتَّخَذَ النَّاسُ خَوَاتِيمَ مِنْ ذَهَبٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنِّي اتَّخَذْتُ خَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ**» فَنَبَذَهُ، وَقَالَ: «**إِنِّي لَنْ أَلْبَسَهُ أَبَدًا**»، فَنَبَذَ النَّاسُ خَوَاتِيمَهُمْ. (٣)

* وعَنِ المِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ، وَمَرْوَانَ، يُصَدِّقُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَدِيثَ صَاحِبِهِ، قَالَا: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ زَمَنَ الحُدَيْبِيَةِ حَتَّىٰ إِذَا كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ خَالِدَ بْنَ الوَلِيدِ بِالْغَمِيمِ (٤) فِي خَيْلٍ لِقُرَيْشٍ طَلِيعَةٌ (٥)، فَخُذُوا ذَاتَ اليَمِينِ**» فَوَاللهِ مَا شَعَرَ بِهِمْ خَالِدٌ حَتَّىٰ إِذَا هُمْ بِقَتَرَةِ

---

(١) أحمد (٢/ ١٦٥) ولفظ الرواية الأولىٰ له وصححه شاكر (٦٥٤٠) ، ابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٨)، ولفظ الرواية الثانية له. وقال مخرجه: إسناده صحيح علىٰ شرط الشيخين، وعزاه كذلك لابن حبان (٢/ ٣٤٩) عن أبي هريرة بلفظ قريب والطحاوي في مشكل الآثار.

(٢) البخاري- الفتح ١٣ (٧٢٨٠).

(٣) البخاري- (٧٢٩٨).

(٤) الغميم: هو مكان بين رابغ والجحفة، وقيل موضع بين مكة والمدينة.

(٥) الطليعة: مقدمة الجيش.

الجَيْشِ[١]، فَانْطَلَقَ يَرْكُضُ نَذِيرًا لِقُرَيْشٍ، وَسَارَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّىٰ إِذَا كَانَ بِالثَّنِيَّةِ[٢] الَّتِي يُهْبَطُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ، فَقَالَ النَّاسُ: حَلْ حَلْ[٣] فَأَلَحَّتْ[٤]، فَقَالُوا: خَلأَتْ القَصْوَاءُ، خَلأَتْ القَصْوَاءُ[٥]، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَا خَلأَتْ القَصْوَاءُ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الفِيلِ**[٦]»، ثُمَّ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا**»، ثُمَّ زَجَرَهَا فَوَثَبَتْ.

قَالَ: فَعَدَلَ عَنْهُمْ حَتَّىٰ نَزَلَ بِأَقْصَىٰ الحُدَيْبِيَةِ عَلَىٰ ثَمَدٍ[٧] قَلِيلِ المَاءِ، يَتَبَرَّضُهُ[٨] النَّاسُ تَبَرُّضًا، فَلَمْ يُلَبِّثْهُ النَّاسُ حَتَّىٰ نَزَحُوهُ وَشُكِيَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ العَطَشُ، فَانْتَزَعَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوهُ فِيهِ، فَوَاللهِ مَا زَالَ يَجِيشُ لَهُمْ بِالرِّيِّ حَتَّىٰ صَدَرُوا عَنْهُ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ الخُزَاعِيُّ فِي نَفَرٍ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ خُزَاعَةَ، وَكَانُوا عَيْبَةَ نُصْحِ[٩] رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ تِهَامَةَ، فَقَالَ: إِنِّي تَرَكْتُ كَعْبَ ابْنَ لُؤَيٍّ، وَعَامِرَ بْنَ لُؤَيٍّ نَزَلُوا أَعْدَادَ

---

(١) قترة الجيش: ما يثيره من الغبار أو هي الغبار الأسود.

(٢) الثنية: طريق في الجبل تشرف علىٰ الحديبية.

(٣) حل حل: كلمة تقال للناقة إذا تركت السير.

(٤) ألحّت: أي تمادت علىٰ عدم القيام، وهو من الإلحاح.

(٥) خلأت: الخلاء للناقة كالحران للخيل.

(٦) حابس الفيل أي حبسها الله- ﷻ- كما حبس الفيل عن مكة.

(٧) ثمد قليل الماء: أي حفيرة فيها ماء مثمود أي قليل.

(٨) يتبرضه: هو الأخذ قليلًا قليلًا.

(٩) عيبة نصح: العيبة هي ما توضع به الثياب لحفظها، أي أنهم موضع النصح له والأمانة لسره.

مِيَاهِ الحُدَيْبِيَةِ، وَمَعَهُمُ العُوذُ المَطَافِيلُ(١)، وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ وَصَادُّوكَ عَنِ البَيْتِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ، وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ نَهِكَتْهُمُ الحَرْبُ، وَأَضَرَّتْ بِهِمْ، فَإِنْ شَاءُوا مَادَدْتُهُمْ مُدَّةً، وَيُخَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ، فَإِنْ أَظْهَرْ: فَإِنْ شَاءُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا، وَإِلَّا فَقَدْ جَمُّوا(٢)، وَإِنْ هُمْ أَبَوْا، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَىٰ أَمْرِي هَذَا حَتَّىٰ تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي(٣)، وَلَيُنْفِذَنَّ اللهُ أَمْرَهُ**».

فَقَالَ بُدَيْلٌ: سَأُبَلِّغُهُمْ مَا تَقُولُ، قَالَ: فَانْطَلَقَ حَتَّىٰ أَتَىٰ قُرَيْشًا، قَالَ: إِنَّا قَدْ جِئْنَاكُمْ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ وَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ قَوْلًا، فَإِنْ شِئْتُمْ أَنْ نَعْرِضَهُ عَلَيْكُمْ فَعَلْنَا، فَقَالَ سُفَهَاؤُهُمْ: لَا حَاجَةَ لَنَا أَنْ تُخْبِرَنَا عَنْهُ بِشَيْءٍ، وَقَالَ ذَوُو الرَّأْيِ مِنْهُمْ: هَاتِ مَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ، قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا، فَحَدَّثَهُمْ بِمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَامَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ، أَلَسْتُمْ بِالوَالِدِ؟ قَالُوا: بَلَىٰ، قَالَ: أَوَلَسْتُ بِالوَلَدِ؟ قَالُوا: بَلَىٰ، قَالَ: فَهَلْ تَتَّهِمُونِي؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي اسْتَنْفَرْتُ أَهْلَ عُكَاظَ، فَلَمَّا بَلَّحُوا(٤) عَلَيَّ جِئْتُكُمْ بِأَهْلِي وَوَلَدِي وَمَنْ أَطَاعَنِي؟ قَالُوا: بَلَىٰ، قَالَ: فَإِنَّ هَذَا قَدْ عَرَضَ لَكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ، اقْبَلُوهَا وَدَعُونِي آتِيهِ، قَالُوا: ائْتِهِ، فَأَتَاهُ، فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ نَحْوًا

---

(١) العوذ المطافيل: العوذ هي الناقة ذات اللبن، والمطافيل الأمهات اللاتي معها أطفالها.

(٢) جمّوا: أي استراحوا.

(٣) سالفتي: السالفة هي صفحة العنق. والمعنىٰ من قوله حتىٰ تنفرد سالفتي كناية عن القتل أو القتال وحيدًا.

(٤) بلّحوا: التبلّح هو الامتناع عن الإجابة: وبلحوا بمعني امتنعوا عن أداء ما عليهم.

مِنْ قَوْلِهِ لِبُدَيْلٍ، فَقَالَ عُرْوَةُ عِنْدَ ذَلِكَ: أَيْ مُحَمَّدُ أَرَأَيْتَ إِنِ اسْتَأْصَلْتَ أَمْرَ قَوْمِكَ، هَلْ سَمِعْتَ بِأَحَدٍ مِنَ العَرَبِ اجْتَاحَ أَهْلَهُ قَبْلَكَ، وَإِنْ تَكُنِ الأُخْرَىٰ، فَإِنِّي وَاللهِ لَأَرَىٰ وُجُوهًا، وَإِنِّي لَأَرَىٰ أَوْشَابًا(١) مِنَ النَّاسِ خَلِيقًا أَنْ يَفِرُّوا وَيَدَعُوكَ، فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: امْصُصْ بِبَظْرِ اللَّاتِ(٢)، أَنَحْنُ نَفِرُّ عَنْهُ وَنَدَعُهُ؟

فَقَالَ: مَنْ ذَا؟

قَالُوا: أَبُو بَكْرٍ.

قَالَ: أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْلَا يَدٌ كَانَتْ لَكَ عِنْدِي لَمْ أَجْزِكَ بِهَا لَأَجَبْتُكَ، قَالَ: وَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَكُلَّمَا تَكَلَّمَ أَخَذَ بِلِحْيَتِهِ، وَالمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ قَائِمٌ عَلَىٰ رَأْسِ النَّبِيِّ ﷺ، وَمَعَهُ السَّيْفُ وَعَلَيْهِ المِغْفَرُ، فَكُلَّمَا أَهْوَىٰ عُرْوَةُ بِيَدِهِ إِلَىٰ لِحْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ ضَرَبَ يَدَهُ بِنَعْلِ السَّيْفِ، وَقَالَ لَهُ: أَخِّرْ يَدَكَ عَنْ لِحْيَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَرَفَعَ عُرْوَةُ رَأْسَهُ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: المُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ، فَقَالَ: أَيْ غُدَرُ(٣)، أَلَسْتُ أَسْعَىٰ فِي غَدْرَتِكَ؟ وَكَانَ المُغِيرَةُ صَحِبَ قَوْمًا فِي الجَاهِلِيَّةِ فَقَتَلَهُمْ، وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ، ثُمَّ جَاءَ فَأَسْلَمَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«أَمَّا الإِسْلَامَ فَأَقْبَلُ، وَأَمَّا المَالَ فَلَسْتُ مِنْهُ فِي شَيْءٍ»**.

---

(١) الأوشاب: الأخلاط من أنواع شتىٰ.

(٢) امصص بظر اللات: البظر قطعة تبقىٰ بعد الختان في فرج المرأة واللات: صنم لهم، وكانت عادة العرب الشتم بذلك لكن بلفظ الأم فأراد أبو بكر المبالغة في سب عروة بإقامة من كان يعبد مقام أمه.

(٣) غدر: من غادر وهي مبالغة في وصفه بالغدر.

ثُمَّ إِنَّ عُرْوَةَ جَعَلَ يَرْمُقُ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ بِعَيْنَيْهِ، قَالَ: فَوَاللهِ مَا تَنَخَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَىٰ وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ.

فَرَجَعَ عُرْوَةُ إِلَىٰ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ، وَاللهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَىٰ المُلُوكِ، وَوَفَدْتُ عَلَىٰ قَيْصَرَ، وَكِسْرَىٰ، وَالنَّجَاشِيِّ، وَاللهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ مُحَمَّدًا، وَاللهِ إِنْ تَنَخَّمَ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَىٰ وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ فَاقْبَلُوهَا.

فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ: دَعُونِي آتِيهِ، فَقَالُوا: ائْتِهِ، فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**هَذَا فُلَانٌ، وَهُوَ مِنْ قَوْمٍ يُعَظِّمُونَ البُدْنَ، فَابْعَثُوهَا لَهُ**» فَبُعِثَتْ لَهُ، وَاسْتَقْبَلَهُ النَّاسُ يُلَبُّونَ، فَلَمَّا رَأَىٰ ذَلِكَ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ، مَا يَنْبَغِي لِهَؤُلَاءِ أَنْ يُصَدُّوا عَنِ البَيْتِ، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَىٰ أَصْحَابِهِ، قَالَ: رَأَيْتُ البُدْنَ قَدْ قُلِّدَتْ وَأُشْعِرَتْ، فَمَا أَرَىٰ أَنْ يُصَدُّوا عَنِ البَيْتِ.

فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ مِكْرَزُ بْنُ حَفْصٍ، فَقَالَ: دَعُونِي آتِيهِ، فَقَالُوا: ائْتِهِ، فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**هَذَا مِكْرَزٌ، وَهُوَ رَجُلٌ فَاجِرٌ**»، فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَبَيْنَمَا هُوَ يُكَلِّمُهُ إِذْ جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، قَالَ مَعْمَرٌ: فَأَخْبَرَنِي أَيُّوبُ، عَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّهُ لَمَّا جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَقَدْ**

سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ».

قَالَ مَعْمَرٌ: قَالَ الزُّهرِيُّ فِي حَدِيثِهِ: فَجَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ: هَاتِ اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابًا فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ الكَاتِبَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**»، قَالَ سُهَيْلٌ: أَمَّا الرَّحْمَنُ، فَوَاللهِ مَا أَدْرِي مَا هُوَ وَلَكِنِ اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ، فَقَالَ المُسْلِمُونَ: وَاللهِ لَا نَكْتُبُهَا إِلَّا بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ**» ثُمَّ قَالَ: «**هَذَا مَا قَاضَىٰ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ**»، فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَاللهِ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ البَيْتِ، وَلَا قَاتَلْنَاكَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَاللهِ إِنِّي لَرَسُولُ اللهِ، وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي، اكْتُبْ مُحَمَّدُ ابْنُ عَبْدِ اللهِ**» - قَالَ الزُّهْرِيُّ: وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ: «**لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا**» - فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**عَلَىٰ أَنْ تُخَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ البَيْتِ، فَنَطُوفَ بِهِ**»، فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَاللهِ لَا تَتَحَدَّثُ العَرَبُ أَنَّا أُخِذْنَا ضُغْطَةً(١)، وَلَكِنْ ذَلِكَ مِنَ العَامِ المُقْبِلِ، فَكَتَبَ، فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَعَلَىٰ أَنَّهُ لَا يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ وَإِنْ كَانَ عَلَىٰ دِينِكَ إِلَّا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا، قَالَ المُسْلِمُونَ: سُبْحَانَ اللهِ، كَيْفَ يُرَدُّ إِلَىٰ المُشْرِكِينَ وَقَدْ جَاءَ مُسْلِمًا؟

فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ دَخَلَ أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو يَرْسُفُ فِي قُيُودِهِ(٢)، وَقَدْ خَرَجَ مِنْ أَسْفَلِ مَكَّةَ حَتَّىٰ رَمَىٰ بِنَفْسِهِ بَيْنَ أَظْهُرِ المُسْلِمِينَ، فَقَالَ سُهَيْلٌ: هَذَا يَا مُحَمَّدُ أَوَّلُ مَا أُقَاضِيكَ عَلَيْهِ أَنْ تَرُدَّهُ إِلَيَّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

---

(١) أخذنا ضغطة: أي قهرًا وعنوة.

(٢) يرسف في قيوده: أي يمشي مشيًا بطيئًا بسبب القيد.

«**إِنَّا لَمْ نَقْضِ الكِتَابَ بَعْدُ**»، قَالَ: فَوَاللهِ إِذًا لَمْ أُصَالِحْكَ عَلَىٰ شَيْءٍ أَبَدًا، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**فَأَجِزْهُ لِي**»، قَالَ: مَا أَنَا بِمُجِيزِهِ لَكَ، قَالَ: «**بَلَىٰ فَافْعَلْ**»، قَالَ: مَا أَنَا بِفَاعِلٍ، قَالَ مِكْرَزٌ: بَلْ قَدْ أَجَزْنَاهُ لَكَ.

قَالَ أَبُو جَنْدَلٍ: أَيْ مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ، أُرَدُّ إِلَىٰ المُشْرِكِينَ وَقَدْ جِئْتُ مُسْلِمًا، أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ لَقِيتُ؟ وَكَانَ قَدْ عُذِّبَ عَذَابًا شَدِيدًا فِي اللهِ.

قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ: فَأَتَيْتُ نَبِيَّ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ: أَلَسْتَ نَبِيَّ اللهِ حَقًّا، قَالَ: «**بَلَىٰ**»، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَىٰ الحَقِّ، وَعَدُوُّنَا عَلَىٰ البَاطِلِ، قَالَ: «**بَلَىٰ**»، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا؟ قَالَ: «**إِنِّي رَسُولُ اللهِ، وَلَسْتُ أَعْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي**»، قُلْتُ: أَوَلَيْسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي البَيْتَ فَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: «**بَلَىٰ، فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ العَامَ**»، قَالَ: قُلْتُ: لَا، قَالَ: «**فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ**».

قَالَ: فَأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ فَقُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَيْسَ هَذَا نَبِيَّ اللهِ حَقًّا؟ قَالَ: بَلَىٰ، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَىٰ الحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَىٰ البَاطِلِ؟ قَالَ: بَلَىٰ، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا[١] إِذًا؟ قَالَ: أَيُّهَا الرَّجُلُ إِنَّهُ لَرَسُولُ اللهِ ﷺ، وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ، وَهُوَ نَاصِرُهُ، فَاسْتَمْسِكْ بِغَرْزِهِ[٢]، فَوَاللهِ إِنَّهُ عَلَىٰ الحَقِّ، قُلْتُ: أَلَيْسَ كَانَ يُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي البَيْتَ وَنَطُوفُ[٣] بِهِ؟ قَالَ: بَلَىٰ، أَفَأَخْبَرَكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ العَامَ؟

---

(١) نعطي الدنية في ديننا: أي لماذا نرضىٰ بالنقص؟.

(٢) غرزه: الغرز للإبل بمنزلة الركاب للفرس. والمراد بقوله «فاستمسك بغرزه» أي تمسك بأمره وترك مخالفته كالذي يمسك بركاب الفارس فلا يفارقه.

(٣) ضبط العيني هذا الفعل بفتح الطاء والواو وتشديد هما (نطّوّف) علىٰ أن أصله (نتطوّف).

قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ.

قَالَ الزُّهْرِيُّ: قَالَ عُمَرُ: فَعَمِلْتُ لِذَلِكَ أَعْمَالًا، قَالَ: فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قَضِيَّةِ الكِتَابِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «**قُومُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ احْلِقُوا**».

قَالَ: فَوَاللهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ حَتَّىٰ قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَىٰ أُمِّ سَلَمَةَ، فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، أَتُحِبُّ ذَلِكَ، اخْرُجْ ثُمَّ لَا تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً، حَتَّىٰ تَنْحَرَ بُدْنَكَ، وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ، فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّىٰ فَعَلَ ذَلِكَ نَحَرَ بُدْنَهُ، وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا، فَنَحَرُوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا حَتَّىٰ كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا.

ثُمَّ جَاءَهُ نِسْوَةٌ مُؤْمِنَاتٌ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠] حَتَّىٰ بَلَغَ ﴿بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠] فَطَلَّقَ عُمَرُ يَوْمَئِذٍ امْرَأَتَيْنِ، كَانَتَا لَهُ فِي الشِّرْكِ فَتَزَوَّجَ إِحْدَاهُمَا مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ، وَالأُخْرَىٰ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ.

ثُمَّ رَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَىٰ المَدِينَةِ، فَجَاءَهُ أَبُو بَصِيرٍ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ وَهُوَ مُسْلِمٌ، فَأَرْسَلُوا فِي طَلَبِهِ رَجُلَيْنِ، فَقَالُوا: العَهْدَ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا، فَدَفَعَهُ إِلَىٰ الرَّجُلَيْنِ، فَخَرَجَا بِهِ حَتَّىٰ بَلَغَا ذَا الحُلَيْفَةِ، فَنَزَلُوا يَأْكُلُونَ مِنْ تَمْرٍ لَهُمْ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ لِأَحَدِ الرَّجُلَيْنِ: وَاللهِ إِنِّي لَأَرَىٰ سَيْفَكَ هَذَا يَا فُلَانُ جَيِّدًا، فَاسْتَلَّهُ الآخَرُ، فَقَالَ: أَجَلْ، وَاللهِ إِنَّهُ لَجَيِّدٌ، لَقَدْ جَرَّبْتُ بِهِ، ثُمَّ جَرَّبْتُ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ:

أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْهِ، فَأَمْكَنَهُ مِنْهُ، فَضَرَبَهُ حَتَّىٰ بَرَدَ(١)، وَفَرَّ الآخَرُ حَتَّىٰ أَتَىٰ المَدِينَةَ، فَدَخَلَ المَسْجِدَ يَعْدُو، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ رَآهُ: «**لَقَدْ رَأَىٰ هَذَا ذُعْرًا**». فَلَمَّا انْتَهَىٰ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: قُتِلَ وَاللهِ صَاحِبِي وَإِنِّي لَمَقْتُولٌ، فَجَاءَ أَبُو بَصِيرٍ فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، قَدْ وَاللهِ أَوْفَىٰ اللهُ ذِمَّتَكَ، قَدْ رَدَدْتَنِي إِلَيْهِمْ، ثُمَّ أَنْجَانِي اللهُ مِنْهُمْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَيْلُ أُمِّهِ(٢) مِسْعَرَ(٣) حَرْبٍ، لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ**».

فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ عَرَفَ أَنَّهُ سَيَرُدُّهُ إِلَيْهِمْ، فَخَرَجَ حَتَّىٰ أَتَىٰ سِيفَ البَحْرِ(٤) قَالَ: وَيَنْفَلِتُ مِنْهُمْ أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلٍ، فَلَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ، فَجَعَلَ لَا يَخْرُجُ مِنْ قُرَيْشٍ رَجُلٌ قَدْ أَسْلَمَ إِلَّا لَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ، حَتَّىٰ اجْتَمَعَتْ مِنْهُمْ عِصَابَةٌ، فَوَاللهِ مَا يَسْمَعُونَ بِعِيرٍ خَرَجَتْ لِقُرَيْشٍ إِلَىٰ الشَّأْمِ إِلَّا اعْتَرَضُوا لَهَا، فَقَتَلُوهُمْ وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ، فَأَرْسَلَتْ قُرَيْشٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ تُنَاشِدُهُ بِاللهِ وَالرَّحِمِ، لَمَّا أَرْسَلَ، فَمَنْ أَتَاهُ فَهُوَ آمِنٌ، فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح:٢٤] حَتَّىٰ بَلَغَ ﴿ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتح:٢٦] وَكَانَتْ حَمِيَّتُهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يُقِرُّوا أَنَّهُ نَبِيُّ اللهِ، وَلَمْ يُقِرُّوا بِبِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَحَالُوا بَيْنَهُمْ

(١) حتىٰ برد: أي خمدت أنفاسه وحواسه.
(٢) ويل أمه: كلمة ذم تقولها العرب في المدح ولا يقصدون معنىٰ ما فيها من الذم.
(٣) مسعر حرب: أي مقدام للحرب مسعّر لنارها.
(٤) سيف البحر (بكسر السين): أي ساحل البحر.

وَبَيْنَ البَيْتِ.(١)

هذه أمثلة من اتباع الصحابة لرسول الله ﷺ.

✍ **وانظر ما قاله أبو بكر لعمر**: أَيُّهَا الرَّجُلُ إِنَّهُ لَرَسُولُ اللهِ ﷺ، وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ، وَهُوَ نَاصِرُهُ، فَاسْتَمْسِكْ بِغَرْزِهِ، فَوَاللهِ إِنَّهُ عَلَىٰ الحَقِّ. وأيضًا ما حدث من أبي جندل وأبي بصير رضي الله عنهما.

من الآثار وأقوال العلماء والمفسرين الواردة في الاتباع:

١- قال عمر - رضي الله عنه - لشريح (القاضي): «إن جاءك شيء في كتاب الله فاقض به، ولا يلفتنّك عنه الرّجال؛ فإن جاءك ما ليس في كتاب الله فانظر سنّة رسول الله ﷺ فاقض بها، فإن جاءك ما ليس في كتاب الله ولم يكن فيه سنّة من رسول الله ﷺ، فانظر ما اجتمع عليه النّاس فخذ به، فإن جاءك ما ليس في كتاب الله ولم يكن في سنّة رسول الله ﷺ، ولم يتكلّم فيه أحد قبلك، فاختر أيّ الأمرين شئت، إن شئت أن تجتهد برأيك ثمّ تقدم فتقدّم، وإن شئت، إن تتأخّر فتأخّر، ولا أرىٰ التّأخّر إلّا خيرا لك. (٢)

٢- وعن عمر بن الخطّاب - رضي الله عنه -: أنّه جاء إلىٰ الحجر الأسود فقبّله فقال: «إنّي أعلم أنّك حجر لا تضرّ ولا تنفع، ولولا أنّي رأيت النّبيّ ﷺ يقبّلك ما قبّلتك. (٣)

---

(١) البخاري- الفتح ٥ (٢٧٣١، ٢٧٣٢) واللفظ له، ومسلم مقطعا (١٧٨٣، ١٧٨٤، ١٧٨٥).

(٢) سنن النسائي: (٨/ ٢٣١)، سنن الدارمي: (١/ ٧١، ٧٢).

(٣) البخاري- الفتح ٣ (١٥٩٧) واللفظ له، مسلم (١٢٧٠).

٣- وعن أبي وائل قال: جلست إلىٰ شيبة في هذا المسجد، قال: جلس إليّ عمر في مجلسك هذا فقال: هممت أن لا أدع فيها [(١)] صفراء ولا بيضاء[(٢)] إلّا قسمتها بين المسلمين. قال: ما أنت بفاعل. قال: لم؟ قلت: لم يفعله صاحباك: قال هما المرآن يقتدىٰ بهما.

٤- وقال عليّ بن أبي طالب - رضي الله عنه : إيّاكم والاستنان بالرّجال؛ فإنّ الرّجل ليعمل بعمل أهل الجنّة ثمّ ينقلب لعلم الله فيه فيعمل بعمل أهل النّار فيموت وهو من أهل النّار، وإنّ الرّجل ليعمل بعمل أهل النّار فينقلب لعلم الله فيه فيعمل بعمل أهل الجنّة فيموت وهو من أهل الجنّة، فإن كنتم لا بدّ فاعلين فبالأموات لا بالأحياء وأشار إلىٰ رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام.[(٣)]

٥- وقال ابن عبّاس- رضي الله عنهما - في معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الفرقان:٧٤]، اجعلنا أئمّة هدىٰ ليُهتَدَىٰ بنا ولا تجعلنا أئمّة ضلالة.[(٤)]

٦- وقال ابن عبّاس- رضي الله عنهما - في قوله تعالىٰ: ﴿ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ ﴾ [آل عمران:١٠٦]، «فأمّا الذين ابيضّت وجوههم فأهل السّنّة

(١) أي في الكعبة.

(٢) الصفراء والبيضاء: المراد بهما الذهب والفضة، والمرآن: المراد بهما رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه .

(٣) الاعتصام للشاطبي: (٢/ ٣٥٨، ٣٥٩).

(٤) البخاري- الفتح ١٣ (٢٦٥).

والجماعة وأولو العلم. وأمّا الّذين اسودّت وجوههم فأهل البدع والضّلالة».(١)

٧- **وعن ابن عبّاس** - رضي الله عنهما - **قال:** «قدم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر فنزل على ابن أخيه الحرّ بن قيس بن حصن- وكان من النّفر الذين يدنيهم عمر، وكان القرّاء أصحاب مجلس عمر ومشاورته كهولًا كانوا أو شبّانًا - فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي! هل لك وجه عند هذا الأمير فتستأذن لي عليه؟. قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عبّاس: فاستأذن لعيينة. فلمّا دخل قال: يا ابن الخطّاب، والله ما تعطينا الجزل، وما تحكم بيننا بالعدل. فغضب عمر حتّى همّ بأن يقع به، فقال الحرّ: يا أمير المؤمنين، إنّ الله تعالى قال لنبيّه ﷺ: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [الأعراف:١٩٩]. وإنّ هذا من الجاهلين. فوالله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقّافا عند كتاب الله».(٢)

من فوائد الاتباع:

(١) دليل المحبّة الكاملة ويجلب محبّة الله لعبده.

(٢) الاتّباع مجلبة لرحمة الله تعالى ومغفرته ورضوانه.

(٣) الاتّباع دليل الفلاح والهداية وقبول التّوبة.

(٤) يجلب التّأييد والنّصر والتّمكين والعزّة والفلاح.

---

(١) أصول الاعتقاد (١/ ٧٢).

(٢) البخاري- الفتح ١٣ (٧٢٨٦).

(٥) يحصل للعبد به السّعادة وطيب العيش في الدّارين.

(٦) الخروج من هوىٰ النّفس وعبادة الذّات.

(٧) ضمان السّلامة والأمن من الخطأ لعصمة المتبوع ﷺ.

(٨) السّلامة من الاعتراض والأمن من الانتقاد.

(٩) صاحبه من أئمّة الهدىٰ فيكثر أجره بمقدار ما يكثر تابعه.

(١٠) الاتّباع فيما تركه ﷺ حكمه كحكم اتّباعه فيما فعله ﷺ.

(١١) الاتّباع لا يكون إلّا للصّالحين المتّقين الّذين يقرءون القرآن ويعملون به.

(١٢) لا يجوز اتّباع الكذّابين وطلّاب السّلطة الّذين يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم.

❊❊❊



الخاتمة نسأل الله حسنها

أتيتُــك راجيًــا يَــا ذا الجــلالِ... ففــرِّجْ مــا تَــرَىٰ مــن سُــوءِ حَــالي

عَصَــيْتُك سَــيِّدِي ويْلِــي بجَهْلــي... وَعَيــبُ الــذنبِ لــم يخطُــرْ ببــالي

إلــىٰ مــن يَشْــتكِي المملــوكُ إلَّا... إلــىٰ مَــوْلَاهُ يــا مَــوْلَىٰ المَــوَالي

لَعَمْــرِي ليــتَ أُمِّــي لَــم تلِــدْني... ولــم أُغْضِــبْك في ظُلَــمِ اللَّيَــالي

فَهَــا أنــا عبــدُك العَاصــي فقيــرٌ... إلــىٰ رُحْمــاكَ فاقبــلْ لــي سُــؤَالي

فــإنْ عاقَبْــتَ يــا ربِّــي تُعَاقِــبْ... مُحقًّــا بالعــذابِ وبالنَّكَــال

وإن تَعْفــو فعفْــوك قــد أَرَاني... لِأفعــالي وأوزاري الثقــال

٭٭٭

الفهرس

***

المبحث الثالث الرباني ثابت ٩٣

***

المبحث الرابع الرباني صابر ... ١١٨

***

***

المبحث السادس الربانيون حفظة.....١٦٥

***

***